بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء التاسع

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾
الأنفال ٨ / ٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء التاسع

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بقية قصة شعيب مع قومه

محاورته الملأ وعقابهم بالزلزلة

﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (٨٩) وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (٩٣)﴾

الإعراب :

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام ، والاستفهام هنا للإنكار ، والواو واو الحال ، تقديره : أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا؟.

﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ : أن وصلتها في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، تقديره: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا بمشيئة الله. وقوله : نعود فيها : أي نصير ، ولا يريد به أن يرجع ؛ لأنه لم يكن في ملة الكفر ، فخرج منها حتى يعود ﴿عِلْماً﴾ تمييز منصوب ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ﴾ اللام لام القسم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً﴾ الذين : في موضع رفع ؛ لأنه صفة أو بدل من الذين كفروا في قوله تعالى : ﴿وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ ويجوز أن يكون في موضع مبتدأ مرفوع ، وخبره جملة ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا﴾ واسمها محذوف أي كأنهم ويجوز أن يكون خبره جملة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ﴾ و ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ في موضع نصب على الحال.

البلاغة :

﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا﴾ : تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع.

المفردات اللغوية :

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾ ترجعن إلى ديننا ، وغلبوا في الخطاب الجمع على الواحد ؛ لأن شعيبا لم يكن في ملتهم قط. وعلى نحوه أجاب بقوله : أنعود فيها ولو كنا كارهين؟ والاستفهام للإنكار.

وما يكون لنا ينبغي ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي وسع علمه كل شيء ، ومنه حالي وحالكم ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ احكم ، والفاتح : الحاكم ﴿الْفاتِحِينَ﴾ الحاكمين. والفتاح : الحاكم ، بطريق المبالغة. ﴿وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي قال بعضهم لبعض.

﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ، وأصل معنى الرجفة : الحركة والاضطراب ﴿جاثِمِينَ﴾ باركين على الركب ، ميتين لم يغنوا فيها يقيموا في ديارهم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ﴾ التأكيد بإعادة الموصول وغيره للرد عليهم في قولهم السابق : ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ﴾.

﴿فَتَوَلَّى﴾ أعرض ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تؤمنوا ﴿فَكَيْفَ آسى﴾ أحزن ﴿عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ استفهام بمعنى النفي.

التفسير والبيان :

هذه تتمة قصة شعيب مع قومه تضمنت موضوعين : الأول ـ محاورة شعيب لأشراف قومه ، وبيان عاقبة الكافرين بإنزال العذاب العام عليهم.

أما المحاورة : فقال زعماء القوم الذين تكبروا عن الإيمان وعن اتباع ما أمرهم

به وما نهاهم عنه من عبادة الله وحده ، وإيفاء الكيل والميزان ، وعدم الفساد في الأرض ، وإنذارهم بالعذاب بقوله : فاصبروا ، قالوا في توعدهم شعيبا ومن معه من المؤمنين : قسما ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ﴾ ومن آمن معك من بلادنا كلها ، أو لترجعن إلى ملتنا وديننا الموروث عن الآباء.

وهذا تهديد منهم بأحد أمرين : إما النفي والطرد من القرية ، وإما الإكراه والقهر على الرجوع في ملتهم. وهذا الخطاب مع الرسول شعيب ، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

قال شعيب مستفهما استفهاما إنكاريا ومتعجبا : أتفعلون ذلك وتأمروننا بالعود في ملتكم ، ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه من أحد الأمرين؟.

إنكم تجهلون ما نحن عليه من ثبات العقيدة في القلب ، فلا ينزعها أحد ، وتجهلون أن حب الوطن لا يزعزع العقيدة ، ولا يجعلنا نؤثر الإقامة في بلادنا على مرضاة الله بتوحيده وعبادته واتباع أوامره.

ثم أعلن رفضه التام العودة إلى ملة الكفر قائلا : إنا إذا رجعنا إلى ملتكم واتبعنا دينكم القائم على الشرك ، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادا ، بعد أن نجانا الله من تلك الملة الباطلة ، وهدانا إلى ملة التوحيد واتباع الصراط المستقيم. إن هذا لأمر عجيب. وهذا تنفير من شعيب عن اتباعهم.

وقوله : ﴿إِذْ نَجَّانَا﴾ أي نجّى أصحابنا منها ، من طريق التغليب بإدخال نفسه في زمرتهم ، مع أن الأنبياء معصومون من الكفر.

﴿وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها ...﴾ أي ما ينبغي لنا وليس من شأننا أن نعود في ملتكم أبدا ، ولن يحوّلنا أحد عما نحن فيه من الاستقامة ، لاعتقادنا الجازم أننا على الحق الأبلج ، وأنتم على الملة الباطلة ـ ملة الكفر والشرك. لكن إيماننا منا بمشيئة الله يجعلنا نفوض الأمر لله ، فإن شاء الله الذي يعلم كل شيء ، وله

الحكمة البالغة في كل شيء ، أن يفعل شيئا ، فذلك مرجعه إلى الله ؛ لأنه المتصرف في أمورنا كلها. وهذا تأكيد لرفض العود إلى ملتهم بأبلغ التأكيد. ولا طمع لكم في مشيئة الله الذي يثبّت عباده المخلصين على الإيمان والقول الثابت في الحياة الدنيا أن يعيدنا إلى الضلال ؛ لأن الله متعال عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر ، فذلك خارج عن الحكمة.

إن الله تعالى أحاط علمه بكل شيء ، فهو واسع العلم ، كثير الفضل ، يتصرف بحكمة ، ومشيئته تكون بحسب الحكمة ، ولا يشاء إلا الخير للناس. ومعنى الآية : أنه عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول ، وقلوبهم كيف تتقلب ، وكيف تقسو بعد الرقة ، وتمرض بعد الصحة ، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان.

و ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا﴾ في أمورنا ، مع القيام بما يجب علينا من الحفاظ على شرعه ودينه ، وتوكلنا في أن يثبتنا على الإيمان ، ويوفقنا لازدياد اليقين : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٣] ومن شروط التوكل الصحيح تنفيذ الأحكام الشرعية ومراعاة السنن المطلوبة في الحياة من اتخاذ الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله تعالى. سأل أعرابي النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أيعقل ناقته أم يتركها سائبة ويتوكل على الله؟ فأجابه فيما روى الترمذي : «اعقلها وتوكل».

وهذا رفض آخر للمساومة ومحاولة إعادتهم إلى ملتهم بالدليل.

ثم دعا شعيب على قومه لما يئس منهم فقال : ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وانصرنا عليهم ، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾ مثل قوله : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٨٧] أي إنك العادل الذي لا يجور أبدا ، تحكم بالحق في النزاع بين المرسلين والكافرين ، وبين المحقين والمبطلين.

ثم بعد أن يئس الكفار من عودة المؤمنين برسالة شعيب إلى ملتهم ، لجؤوا إلى

استخدام التهديد والوعيد ، فقال أشرافهم لمن دونهم من المستضعفين المؤمنين ، لتثبيطهم عن الإيمان : تالله لئن اتبعتم شعيبا فيما يقول وآمنتم به إنكم لخاسرون خسارة معنوية في فعلكم بتركم ملة الآباء والأجداد العريقين إلى دين جديد يدعوكم إليه ، لم تألفوه ، ولم تعرفوا مصداقيته ، وخاسرون خسارة مادية إذ لم تزيدوا ثروتكم بتطفيف الكيل والميزان وأخذ أموال الآخرين ؛ وتخسرون باتباع شعيب فوائد البخس والتطفيف ؛ لأنه ينهاكم عنهما ، ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

ويلاحظ أن القرآن وصف الأشراف والسادة أولا بالاستكبار عن الإيمان بالله وبرسالة شعيب عليه السلام ، ثم وصفهم بالإغواء والإضلال ومحاولة تكفير المؤمنين بشعيب ، ثم وصفهم بالكفر والإرهاب ثم أعقب ذلك ببيان عاقبة أمرهم وتعذيبهم فقال : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ...﴾ أي إنهم أبيدوا وأهلكوا بالزلزلة الشديدة ، والصيحة المرعبة ، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالطرد والإجلاء ، فأصبحوا منكبين على وجوههم ميتين. وقد عبر عن عذابهم هنا بالرجفة ، وفي سورة هود بالصيحة كعذاب ثمود ؛ لأن الرجفة أي الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة : ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود ١١ / ٩٥].

وفي سورة الشعراء بيّن سبحانه أنه أرسل شعيبا إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين في النسب ، والأيكة : الغيضة بين ساحل البحر ومدين ، وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها. وعذاب أصحاب الأيكة بالسّموم والحر الشديد بعد أن تجمعوا تحت ظلّة من السحاب يتفيئون بظلها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا. فالظلة : هي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم. والخلاصة : لقد اجتمع على قوم شعيب ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من

أسفل منهم ، فزهقت أرواحهم وجمدت أجسامهم [١].

فمن الخاسر إذن؟ الحقيقة أن الذين كذبوا شعيبا هم الخاسرون على سبيل الحصر ، وهم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا ، كأن لم يقيموا في دارهم ، وهو رد على قولهم السابق : ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ والمراد من هذا الرد : المبالغة في الذم والتوبيخ ، وأما الإعادة فهي لتعظيم الأمر وتفخيمه وتهويل ما يستحقون من الجزاء على جهلهم ، لذا كرر قوله : ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً﴾.

الحق أن الكافرين هم الذين خسروا خسرانا عظيما في الدنيا والآخرة ، دون المؤمنين ؛ لأن الذين اتبعوا شعيبا قد أنجاهم الله ، فهم الرابحون. كما قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [هود ١١ / ٩٤].

وفي هذا دلالة واضحة على أن العاقبة للمتقين ، والربح الحقيقي لمن يأكل الحلال ، ويترفع عن الحرام ، وأن الدمار والهلاك والإفلاس للكافرين الذين ينغمسون في الحرام ، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

وأما شعيب فقد أدبر عنهم وتولى عنهم بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال موبخا لهم ومقرعا : ﴿يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به ، فلا آسف عليكم ، وقد كفرتم بما جئتكم به ، كما قال : ﴿فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ﴾؟! أي فكيف أحزن على قوم أنكروا وحدانية الله ، وكذبوا رسوله ، ولقد أعذر من أنذر. قال الكلبي : خرج من بين أظهرهم ، ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٢.

فقه الحياة أو الأحكام :

كان من أثر دعوة شعيب خطيب الأنبياء قومه إلى عبادة الله وترك أكل أموال الناس بالباطل ، أنهم واجهوه بالتخيير بين أمرين خطيرين : إما الطرد والجلاء ، وإما الصيرورة إلى ملتهم ، وهذا هو المقصود بقولهم : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَ﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا ، فوقع العود بمعنى الابتداء ، تقول العرب : قد عاد إليّ من فلان مكروه ، يريدون قد صار إلي منه المكروه ، ولا يعني ذلك أن شعيبا كان قبل النبوة على ملتهم ، فهو معصوم من الكفر ، وكذلك كان خطاب شعيب من قبيل التغليب ، فإنهم خاطبوه بخطاب أتباعه ، وأجروا عليه أحكامهم.

والحزم يقابله الحزم والإصرار ، فكان رد شعيب حاسما وقاطعا بأنه لن يفعل ما يريدون ، ولن يعود أي يصير إلى ملتهم ، فإنه إن فعل ذلك بعد أن تبين له الحق ، فقد افترى على الله ، وكذلك كان أتباعه صريحين صارمين ، وجوابه جوابهم. وهذا نابع من أصل النبوة والرسالة ، فإنها تتميز بصدق اللهجة ، والبراءة عن الكذب ، فالعود في ملتهم يبطل النبوة ، ويزيل الرسالة.

وقد نظم شعيب نفسه مع قومه بقوله : ﴿إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها﴾ أي من الملة ، وإن كان بريئا منها ، إجراء للكلام على حكم التغليب ، كما ذكروا في كلامهم : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾.

وتمسك الأشاعرة بقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ على أنه تعالى قد يشاء الكفر ؛ لأن المعنى : إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى ملتكم ، وكانت تلك الملة كفرا. وقال المعتزلة : لا يشاء تعالى إلا الخير والصلاح ؛ لأن هذا الاستثناء وهو : إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى ملتكم قضية شرطية ، وليس فيها بيان أنه تعالى شاء ذلك أو ما شاء ، وهذا أيضا مذكور على سبيل التبعيد ، كما يقال : لا أفعل ذلك إلا إذا ابيضّ القار (الزفت) وشاب الغراب.

ووجه تعلق قوله تعالى : ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ بما قبله : أنه ربما كان في علمه تعالى حصول أمر ثالث غير الإخراج والعود إلى الملة ، وهو البقاء في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملتكم ، ويجعلكم مقهورين تحت أمرنا ، خاضعين تحت حكمنا.

ودل قوله تعالى : ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ على أنه تعالى كان عالما في الأزل بجميع الأشياء ؛ لأن قوله : وسع فعل ماض ، فيتناول كل ماض ، بل إنه يتناول علم الحاضر والمستقبل وعلم المعدوم ؛ لأن التعبير بالماضي يفيد الجزم بحصول العلم بكل الأشياء.

ودل قوله تعالى : ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا ، رَبَّنَا افْتَحْ ...﴾ على أن النبي وكل مؤمن ينبغي أن يظل على صلة بالله وتفويض كامل في أموره له ، فقوله : ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا﴾ يفيد الحصر ، أي عليه توكلنا لا على غيره ، وقوله : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ ...﴾ يراد به تفويض الحكم إلى الله والدعاء له واللجوء إليه ، وقوله : و ﴿أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾ يراد به الثناء على الله تعالى.

واستدل الأشاعرة بقوله : ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾ على أنه تعالى هو الذي يخلق الإيمان في العبد.

ودلت آية ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً﴾ على أن قوم شعيب استحقوا عذاب الإهلاك أو الاستئصال بأمرين : الكفر أو الضلال ، والإضلال لغيرهم أو الإغواء.

وتعذيبهم كان بالرجفة (وهي الزلزلة الشديدة المهلكة) وبالصيحة (وهي الصوت الشديد المهلك) معا التي تلازم الرجفة ولا تنفك عنها. وذلك العذاب كان مختصا بأولئك المكذبين ، ونجّى الله المؤمنين ، وذلك يدل على ثلاثة أمور : أن ذلك العذاب إنما حدث بخلق فاعل مختار ، وليس أثر الكواكب والطبيعة ، وإلا لعم أتباع شعيب ، وذلك الفاعل المختار عالم بجميع الجزئيات ، حتى يمكنه

التمييز بين المطيع والعاصي ، واختصاص العذاب بقوم دون قوم من أعظم المعجزات لشعيب عليه السلام .

سنة الله في التضييق والتوسعة قبل إهلاك الأمم

﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾

البلاغة :

﴿مِنْ نَبِيٍ﴾ فيه حذف وإضمار ، والتقدير : من نبي فكذّب أو كذبه أهلها.

﴿مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ و ﴿بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿قَرْيَةٍ﴾ مدينة جامعة تجمع الزعماء كالعاصمة ، وإنما ذكر القرية ؛ لأنها مجتمع القوم الذين يبعث الرسل إليهم ، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة ؛ لأنها مجتمع الأقوام من نبي أي فكذبوه ﴿أَخَذْنا﴾ عاقبنا ﴿أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ البأساء : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر ، والضراء : ما يضر الإنسان في نفسه أو معيشته كالمرض ، وقيل : في كل بالعكس. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون فيؤمنوا. وقوله لعلهم لا يمكن حمله على الشك في حق الله تعالى ، فيحمل على أن المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا. والتضرع : إظهار الضراعة أي الضعف والخضوع.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنا﴾ أعطيناهم ﴿مَكانَ السَّيِّئَةِ﴾ العذاب ﴿الْحَسَنَةَ﴾ الغنى والصحة ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ كثروا ونموا ، من قولهم : عفا النبات والشعر : إذا كثر ﴿وَقالُوا﴾ كفرا للنعمة ﴿قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كما مسنا ، وهذه عادة الدهر ، وليست بعقوبة من الله ، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً﴾ أخذناهم بالعذاب فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه قبله.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أحوال الأنبياء مع أقوامهم ، وما حلّ بهم من العذاب ، بيّن في هذه الآية أن جنس هذا الهلاك أو الاستئصال لم يقتصر على زمن هؤلاء الأنبياء فقط ، وإنما قد فعله بغيرهم ، وبيّن أيضا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذّب الأنبياء ، وهي التدرج بهم من التضييق عليهم بالبأساء (شدة الفقر) والضراء (المرض ونحوه) ثم إلى السعة والرخاء والرفاه ، ثم يأتي إنزال العذاب فجأة من غير شعور بمجيئه. وفي ذلك تحذير لقريش وأمثالهم وتخويفهم ، وحمل لهم على الإيمان برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن سنته المتبعة في تعذيب الأمم والشعوب الضالة ، سواء في زمن الأنبياء أو في غير زمنهم ، وتلك السنة فيها إنذار وإعذار ، ومقدمات توحي بضرورة تغيير الأوضاع ، والانتقال من الكفر والضلال إلى الإيمان والهدى.

والمعنى : إننا إذا أرسلنا نبيا إلى قوم ، فكذبوه ، فلا نعاجلهم بالعذاب ، وإنما نتدرج في إمهالهم وتذكيرهم بتقليب الأحوال ، فنبدؤهم بالعقاب بإنزال شيء من الشدة والمكروه ، بتعريضهم لسوء الحال المادية وإفقارهم ، ثم بتسليط الأمراض والبلايا والأسقام عليهم ، أو بالعكس ، المرض أولا ، ثم الفقر ، لكي يتضرعوا أي يدعوا الله ويخشعوا ويبتهلوا إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنا ...﴾ : ثم حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن فقر إلى غنى ، ومن مرض إلى صحة وعافية ، ليشكروا على ذلك فما فعلوا. فالسيئة : كل ما يسوء صاحبه ، والحسنة : ما يستحسنه الطبع والعقل.

﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء : إذا كثر ، وذلك لأن الرخاء يكون عادة سببا في كثرة النسل.

﴿وَقالُوا : قَدْ مَسَّ ...﴾ أي ابتليناهم بالشدة والرخاء ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما أفاد هذا ولا هذا ، وقالوا غير معتبرين بالأحداث : قد مسّنا من البأساء والضراء ، وما بعده من الرخاء ، مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان ، ولم يتفهموا سنن الله في تهيئة الأسباب للسعادة والشقاء في البشر. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين : «عجبا لأمر المؤمن ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له» فالمؤمن يتنبه لما ابتلاه لله به من الضراء والسراء ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد : «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار ، لا يدري فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه».

وتغيير الحال من سوء إلى حسن أمر ضروري للتخلص من البلاء ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١٣ / ١١].

أما مصير غير المعتبرين بأحداث الزمان وتقلباته فكما ذكر تعالى : ﴿فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ..﴾ أي فكان عاقبة أمرهم أنا أخذناهم أي عاقبناهم بالعقوبة على بغتة ، أي فجأة ، من غير شعور منهم بما سينزل بهم من العقاب ، ليكون أكثر حسرة ، كما في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٤٤] وكما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والبيهقي عن عائشة : «موت الفجأة رحمة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر».

فما على الناس مؤمنين وكفارا إلا الاتعاظ بما حل بغيرهم ، فالمؤمن بالله

لا يغتر بالزمان ، وتكون الشدائد والمصائب صقلا له ، وتمحيصا لنفسه ، وتربية لها ، والكافر إذا مسه الشر يئس ، وإذا مسه الخير بطر واستكبر وبغى في الأرض ، فكانت عاقبته الدمار.

فقه الحياة أو الأحكام :

الحلم والإمهال من خصائص صنع الله وسنته الدائمة في خلقه ، لكي يتعظوا بالأحداث ويصححوا مسيرتهم في الحياة ، ويقلعوا عما هم عليه من معاص وموبقات. والابتلاء يكون بالشر وبالخير : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣٥] والعاقل المفكر المتدبر أحوال الماضي وتقلبات المستقبل هو الذي يستفيد من دروس الحياة : ﴿وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٦٨].

ودل قوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ في رأي المعتزلة : على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة. وقال أهل السنة : إن الله يدبر أهل القرى بما يكون إلى الإيمان أقرب ، لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء ، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر.

ولكن الناس لا يعتبرون ، فبالرغم من أنه تعالى أخذهم بالشدة والرخاء ، فلم يزدجروا ولم يشكروا ، وهذا يدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم الله عليه من رخاء بعد شدة ، وأمن بعد خوف ، بل رأوا أن هذه عادة الزمان في أهله ، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد ، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة.

أما الحق تعالى فقد أزال عذرهم وأمهلهم ، لكنهم لم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال.

الترغيب بالإيمان لزيادة الخير والترهيب من الكفر

بالعذاب المبكّر

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

الإعراب :

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى ...﴾ بفتح الواو ، تكون الهمزة للاستفهام ، والواو حرف عطف. وبإسكان الواو : تكون أو التي يراد بها أحد الشيئين ، والمعنى : أو كان الأمر من أحد هذين الشيئين من إتيان العذاب ليلا أو ضحى. ﴿أَنْ لَوْ نَشاءُ﴾ أن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنه ، والجملة فاعل ﴿يَهْدِ﴾. والهمزة في المواضع الأربعة في الآيات للتوبيخ ، والفاء والواو الداخلة عليها للعطف.

البلاغة :

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى﴾ تكرار الجملة للإنذار ، ويسمى هذا في البلاغة إطنابا.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ، فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ هذا تكرير لقوله : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى﴾ وتكرار الإنكار للتأكيد وزيادة التقرير ، ومكر الله : استعارة لاستدراج العبد والتمهيد لعقابه. قال الزمخشري في الكشاف : ٢ / ٥٦٣ ، مكر الله : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة.

المفردات اللغوية :

﴿أَهْلَ الْقُرى﴾ الذين أرسل إليهم الرسل فكذبوا ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسلهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ﴾ لسهلنا عليهم بركات من السماء بالمطر ونحوه من حرارة الشمس لتوفير الخصب في الأرض ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات والمعادن ونحوها ﴿وَلكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرسل ﴿فَأَخَذْناهُمْ﴾ عاقبناهم.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى﴾ المكذبون ﴿بَأْسُنا﴾ عذابنا ﴿بَياتاً﴾ ليلا ﴿وَهُمْ نائِمُونَ﴾ غافلون عنه ﴿ضُحًى﴾ نهارا ، وأصل معنى الضحى : وقت ارتفاع الشمس وإضاءة الدنيا أول النهار ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلهون ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ استدراجه إياهم بالنعمة وأخذهم بغتة. والمكر : التدبير الخفي الذي يؤدي إلى ما لا يحتسبه الإنسان.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبين ، يقال : هداه السبيل ، وهداه له وإليه ، أي دلّه عليه وبيّنه له ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ بالسكنى ﴿مِنْ بَعْدِ أَهْلِها﴾ أي بعد هلاك أهلها ﴿أَصَبْناهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ الموعظة سماع تدبر.

المناسبة :

لما أبان الله تعالى في الآية السابقة أن الذين عصوا وتمردوا من أهل القرى أخذهم الله بغتة ، أبان في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخير ، ثم أنذرهم بالعذاب المبكّر ليلا أو نهارا ، إذا كذبوا الرسل ، تأكيدا لما سبق.

التفسير والبيان :

هذا إخبار عن سنة أخرى من سنن الله في عباده ، وتلك السنة أنه لو آمن أهل القرى كأهل مكة وغيرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واتقوا ما نهى الله عنه وحرمه من الشرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام ، لأنزل عليهم الخيرات الكثيرة من السماء كالمطر ، وأخرج لهم خير الأرض من نبات ومعادن وكنوز ، وآتاهم من العلوم والمعارف والإلهامات الربّانية لفهم سنن الكون.

أي فلو آمنوا ليسّر الله لهم كل خير من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم ومن ذواتهم وأفكارهم.

وفي هذا دلالة على أن الإيمان الصحيح سبب للسعادة والرخاء.

ولكنهم كذبوا رسلهم ولم يؤمنوا ولم يتقوا ، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم والشرك المفسد نظام الحياة.

وفيه دلالة على أن العقاب نتيجة لازمة لكسب المعاصي.

ثم إنه تعالى أعاد التهديد والتخويف بعذاب الاستئصال ، والتحذير من مخالفة أوامره ، والتجرؤ على زواجره فقال : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار عليهم ، والمقصود التعجب من حالهم وغفلتهم ، والمراد : أبعد ذلك أمن أهل القرى الكافرة كأهل مكة وأمثالهم نزول العذاب والنكال بهم في حال الغفلة وهو النوم ليلا.

أو هل أمنوا أن ينزل بهم العذاب في حال شغلهم وغفلتهم وهو أثناء اللعب واللهو في النهار. ويلاحظ أن انشغالهم في أعمالهم التي لا فائدة منها كأنها ألعاب أطفال.

وذلك في الحالين تخويف من نزول العذاب بهم في أوقات الغفلة : وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار ؛ لأنه يغلب على المرء التشاغل باللذات فيه. والمعنى المراد : فإن أمنتم حالا لم تأمنوا الحال الآخر.

قال الرازي : قوله : ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يحتمل التشاغل بأمور الدنيا ، فهي لعب ولهو ، ويحتمل خوضهم في كفرهم ؛ لأن ذلك كاللعب في أنه لا يضر ولا ينفع [١].

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ١٤ / ١٨٥.

ثم كرر الله تعالى الاستفهام الإنكاري لزيادة التوبيخ ، بعد قوله : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى﴾ وعطف عليه بالفاء ، فقال : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم. ومكر الله : جزاؤه وأخذه العبد من حيث لا يشعر ، مع استدراجه. إن كانوا أمنوا مكر الله وعقابه ، فلا يأمن مكر الله إلا الذين خسروا أنفسهم ، قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

ومجموع معنى الآيتين : أكان سبب أمنهم أن يأتيهم العذاب في وقت غفلتهم ليلا أو نهارا ، أو كان سبب أمنهم غفلتهم عن مكر الله بهم ، أي جزاؤه الذي ينزله بهم؟ إن ظنوا ذلك فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون أنفسهم.

وبعد بيان حال الكفار الذين أهلكهم الله بالاستئصال ، أبان تعالى أن الهدف من ذكر هذه القصص حصول العبرة لجميع المكلفين في مصالح أديانهم وطاعاتهم ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ ...﴾.

أي أو لم يتبين للناس ، وخصوصا قريشا الذين يخلفون غيرهم في سكنى الأرض ووراثتها مع الديار ، بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها : أن شأننا معهم كشأننا مع من سبقهم ، فلو نشاء أصبناهم وعذبناهم بذنوبهم وأعمالهم السيئة ، كما عذبنا أمثالهم من قبل ، وفعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين.

فإن لم نهلكهم بالعذاب نختم على قلوبهم ، فهم لا يسمعون الموعظة والتذكير سماع تدبر ، ولا يقبلون ولا يتعظون ولا ينزجرون ، كما قال تعالى : ﴿وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠١] وأما المؤمنون فشأنهم الاتعاظ والاعتبار بما حدث لمن قبلهم ، كما قال تعالى في آيات كثيرة موضوعها واحد ،

منها : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ [طه ٢٠ / ١٢٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ترغيبا للمؤمنين وترهيبا للكافرين. أما ترغيب المؤمنين فهو إفاضته الخيرات والبركات الإلهية من السماء بالمطر والرياح المباركة ، ومن الأرض بالنبات والثمار ، والمعادن والكنوز ، وكثرة المواشي والأنعام ، وحصول الأمن والسلامة ، وإلهام الإنسان رشده وفكره إلى اكتشاف وسائل الراحة والرخاء.

وأما ترهيب الكافرين فهو إنذارهم بتعذيبهم عذاب استئصال ودمار ، كعذاب الأمم الأخرى وأهل القرى والمدن الذين أرسل إليهم الرسل ، فكذبوهم وآذوهم.

وحذرهم تعالى بألا يغتروا بحلم الله وإمهاله وتأجيله العقاب ، فربما يأتي العقاب في حال الغفلة ليلا أو نهارا ، ومن اغتر بحلم الله وأمن مكره ، أي جزاءه ، فلا يأمن الجزاء إلا الخاسرون.

أولم يتبين لهم أن سنة الله واحدة في تعذيب الكافرين؟ وسنة الله لا تتغير ، إنه يعذب العصاة والمتمردين بسبب ذنوبهم وسيئاتهم ، كما عذب الذين من قبلهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، وإن لم نهلكهم بالعقاب ﴿نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ الموعظة سماع فهم وتدبر.

واستدل أهل السنة بقوله تعالى : ﴿وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ على أنه تعالى قد يمنع العبد عن الإيمان ، أي بعد أن علم عدم إيمان ذلك العبد. وقال الجبائي المعتزلي : المراد من هذا الطبع أنه تعالى يسم قلوب الكفار بسمات وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون ، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان.

العبرة من قصص أهل القرى

﴿تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (١٠١) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠٢)﴾

الإعراب :

﴿تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ﴾ تلك : مبتدأ ، القرى : صفة ، و ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ معنى اللام تأكيد النفي ، وأن الإيمان كان منافيا لحالهم في التصميم على الكفر.

﴿بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الباء سببية ﴿وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ الضمير للناس على الإطلاق ، أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد.

﴿وَإِنْ وَجَدْنا﴾ إن مخففة من الثقيلة. قال الزمخشري : وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض.

المفردات اللغوية :

﴿تِلْكَ الْقُرى﴾ هي قرى الأقوام الخمسة التي وصفت سابقا ، وهم قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها﴾ نذكر لك شيئا من أخبارها كيف أهلكت. والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام. وقوله : ﴿مِنْ أَنْبائِها﴾ أي بعض أخبار أهلها ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ المعجزات الظاهرات. ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيئهم ﴿بِما كَذَّبُوا﴾ كفروا به ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ قبل مجيئهم ، بل استمروا على الكفر ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ﴾ أي مثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية ، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ألا يؤمنوا.

﴿لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أكثر الناس ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ أي وفاء بعهدهم يوم أخذ الميثاق ، أي أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى.

والعهد : قد يكون بين طرفين كالمعاهدة ، أو من طرف واحد بأن يعهد لآخر بشيء ، أو يلزم به. والميثاق : العهد المؤكد.

﴿لَفاسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة وعن كل عهد ، إما فطري أو شرعي ، بنقضه ونكثه والغدر بأحكامه. ﴿وَما وَجَدْنا﴾ أي ألفينا ﴿وَإِنْ وَجَدْنا﴾ علمنا.

المناسبة :

بعد أن قص الله تعالى على نبيه أخبار قرى الأقوام الخمسة (قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وإعذاره إليهم ببيان الحق بالأدلة على ألسنة رسلهم ، أراد الله تسلية نبيه ، وتثبيته على الصبر على دعوته ، وتذكيره بالعبرة من قصص الماضين ، وأن ما يلاقيه من قومه ليس جديدا ، وإنما هو طريق قديم سلكه كثير من أقوام الأنبياء.

التفسير والبيان :

تلك القرى : قرى الأقوام الخمسة الذين وصفوا بما سبق نقص عليك يا محمد بعض أخبارها كيف أهلكت ، مما فيه العبرة والعظة لقومك ، والتسلية لك والتثبيت على دعوتك. وإنما خص الله أنباء هذه القرى ؛ لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم ، فتوهموا أنهم على الحق ، وذكرها الله تنبيها لقريش وأمثالهم عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال.

ثم إن هذه القرى كانت في بلاد العرب ، وكان أهل مكة يتناقلون بعض أخبارها ، وهي جميعا متشابهة في تكذيب الرسل ، وعذاب الاستئصال ، فكانت العبرة منها واحدة ، لذا فصلت عن قصة موسى الآتية ؛ لأن قومه آمنوا به ، وإنما كذب به فرعون وجماعته فعذّبوا.

وسبب عقاب تلك الأقوام هو تكذيب الرسل ، فبالرغم من أنهم أقاموا لهم الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب

تكذيبهم بالحق من قبل مجيء الرسل وأول ما ورد عليهم ، أي في بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ، ومن قبل مجيء المعجزات ، فظلوا على حالهم ، ولم تؤثر فيهم الآيات الدالة على صدق الرسل ، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولا حين جاءتهم الرسل ، أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم ، إلى أن ماتوا مصرّين على كفرهم وعنادهم ، مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات.

ومثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية ، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ألا يؤمنوا أبدا. وبإيجاز : مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتثبيت له على دعوته ، وإخباره بأن هذا العناد والتمرد من أهل مكة قد سبقهم إليه أمثالهم من الأمم الغابرة ، فلا تأس ولا تحزن على كفرهم.

وما وجدنا لأكثر الأمم الماضية عهدا وفوا به ، سواء عهد فطرة الذي عاهدهم الله وهم في صلب آدم ، أو عهد شرع بالإيمان وأداء التكاليف ، أو عهد عرف متعارف عليه بأداء الالتزامات واحترام العقود التي يبرمونها فيما بينهم. ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. وفي التعبير بالأكثر إشارة إلى أن بعضهم قد آمن ، ونفذ كل عهد مع الله أو مع الناس. وهذا من دقة القرآن ومصداقيته.

ومخالفة عهد الفطرة السليمة القائم على الإقرار بتوحيد الله وأنه لا إله إلا هو ، وعبادة غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، كان كلاهما بتأثير البيئة ، جاء في صحيح مسلم : «يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفي

الصحيحين : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه» الحديث.

وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن مخالفة الفطرة السليمة وعن الشرك ، قال الله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

الكفر عناد وتصميم بالرغم من معرفة الحق والاقتناع بالبرهان. ولقد كان إيراد قصص القرى التي أهلكها الله ، وهي قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب للعبرة والاتعاظ ، وما كان أهل تلك القرى ليؤمنوا الآن حقيقة بسبب تكذيبهم السابق قبل مجيء الرسل ، وظلوا إلى آخر أعمارهم مستمرين على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم ، إلى أن ماتوا مصرّين على كفرهم وعنادهم.

والختم والطبع على قلوب الكفار القدامى والمعاصرين للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن يأتي بعدهم إنما هو بسبب كفرهم وإصرارهم على موقفهم.

وهناك حقيقة أخبرت عنها الآية وهي أن أكثر الناس لا أمانة لهم ولا وفاء لديهم لعهد الله وميثاقه ، وعهود الناس ووعودهم ، وأن أكثرهم في الواقع فاسقون مارقون خارجون عن حدود الطاعة المطلوبة منهم نحو ربهم.

قصة موسى عليه‌السلام مع فرعون والملأ من قومه

﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١٣) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾

الإعراب :

﴿حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ﴾ أن في موضع جر بعلى بمعنى الباء ، وتقديره : حقيق بأن لا أقول. وقرئ بتشديد الياء في : على ، فيكون : ألا أقول : في موضع رفع بالابتداء ، وما قبله

خبره ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوف على محذوف ، سد مسده حرف الإيجاب : نعم ، كأنه قال : نعم إن لكم لأجرا ، وإنكم لمن المقربين.

﴿فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ : إذا للمفاجاة : مبتدأ ، وثعبان : خبره.

﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ﴾ : أن فيهما : في موضع نصب بفعل مقدر ، على تقدير : إما أن تفعل الإلقاء ، وإما أن نفعل الإلقاء.

البلاغة :

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فيه تأكيد الجملة بمؤكدين : إن واللام ، لإزالة الشك من نفوس السحرة ، ويسمى هذا الخبر إنكاريا.

المفردات اللغوية :

﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد الرسل المذكورين ﴿مُوسى﴾ هو كليم الله موسى بن عمران أعظم أنبياء بني إسرائيل ﴿فِرْعَوْنَ﴾ لقب كل ملك لمصر في العهد القديم ، وقيل : كان اسمه منيتاح بن رمسيس ، سنة ١٢٢٥ ق. م من الأسرة ١٩ ، مثل لقب كسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ﴿بِآياتِنا﴾ الآيات هنا : المعجزات الدالة على صدق النبي مثل العصا واليد. ﴿وَمَلَائِهِ﴾ أشراف قومه ، والمراد هنا قومه ﴿فَظَلَمُوا بِها﴾ كفروا وجحدوا بها ﴿عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بالكفر وتلك العاقبة هي إهلاكهم ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير أو خليق به ﴿عَلى أَنْ لا أَقُولَ﴾ أي بأن لا أقول ﴿ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ حية عظيمة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أخرجها من جيبه ﴿بَيْضاءُ﴾ ذات شعاع ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ خلاف ما كانت عليه من الجلد الهامد ﴿لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر. وفي سورة الشعراء : كان هذا من قول فرعون نفسه ، فكأنهم قالوه معه على سبيل التشاور. ﴿تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون علي ﴿أَرْجِهْ وَأَخاهُ﴾ أخر أمرهما ولا تفصل في شأنهما الآن ﴿الْمَدائِنِ﴾ أي مدن المملكة ﴿حاشِرِينَ﴾ جامعين السحرة منها. ﴿ساحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهر بفنون السحر ، يفضل موسى في علم السحر ، فجمعوا. ﴿تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ما معنا.

﴿قالَ : أَلْقُوا﴾ أمر بالإذن بتقديم إلقائهم توصلا به إلى إظهار الحق ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ صرفوها عن حقيقة إدراكها ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خوفوهم حيث تخيلوها حيات تسعى.

المناسبة

هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ، وفيها من الإيضاح والبيان ما لم يذكر في غيرها من القصص ؛ لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات الأنبياء السابقين ، وجهل قوم فرعون الذين أرسل إليهم كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام ، كما أن موسى أرسل أيضا لغير قومه ، أما الأنبياء السابقون فإنهم أرسلوا لأقوامهم.

أضواء من التاريخ :

ذكر اسم موسى في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة ، وله قصص كثيرة مثيرة وعجيبة منذ بداية ولادته حينما كان جماعة فرعون يقتلون أولاد بني إسرائيل ويبقون نساءهم أحياء ، فألقته أمه في النيل في صندوق ، ثم رده الله إليها لإرضاعه ، فهذه قصته مع أمه وأخته في سورتي القصص وطه ، ثم قصة خروجه من مصر إلى أرض مدين وهو شاب ، بسبب قتله مصريا إغاثة لعبراني ، وقصته مذكورة في سورة القصص (١٥ ـ ٢١) وفي سورة طه (الآية ٤٠) ثم سقايته الماشية لابنتي شعيب (القصص ٢٢ ـ ٢٥) ثم مصاهرته لشعيب عليه‌السلام (القصص ٢٦ ـ ٣٨ ، وطه ٤١) ثم رعيه ماشية شعيب مهرا لابنته عشر سنين بالوادي المقدس : طوى.

ثم بعثته عليه‌السلام بينما ذهب لإتيان أهله بنار للاستدفاء وذلك في سورة الإسراء (٢ ـ ٣) وسورة طه (٩ ـ ٦ و ١٧ ـ ٣٦ ، و ٤٢ ـ ٤٧) وسورة القصص (٤٥ ـ ٤٦ و ٢٩ ـ ٣٥) وسورة الفرقان (٣٥ ـ ٣٦) وسورة الشعراء (١٢ ـ ١٦) وسورة النمل (٧ ـ ١٢) وسورة السجدة (٢٣ ـ ٢٥) وسورة النازعات (١٥ ـ ١٩).

ثم عودته إلى مصر مع أخيه هارون ودعوته فرعون إلى الإيمان برسالته ،

وذلك في سورة الأعراف (١٠٤ ـ ١٠٥) وسورة الشعراء (١٧ ، ٢٢).

ثم محاورته فرعون في ربوبية الله وإظهاره الآيات البينات الدالة على صدق نبوته في سورة طه (٥٥) وسورة الشعراء (٢٤ ـ ٢٨) وموقف فرعون الطاغية بتجاهل ألوهية الله وادعائه الألوهية ، وأمره ببناء صرح يصعد به إلى السماء في سورة القصص (٣٨) وسورة غافر (٣٦ ـ ٣٧) التي قال الله فيها : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ : يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً ...﴾.

وإظهاره معجزتي العصا واليد أمام فرعون في سورة الأعراف (١٠٦ ـ ١٢٦) وسورة يونس (٧٥ ـ ٨٩) وسورة طه (٥٧ ـ ٧٦) وسورة الشعراء (٢٩ ـ ٥٢).

ووصف الله رد فعل فرعون وقومه وتماديهم في الضلال وإصرارهم على الكفر في سورة الأعراف (١٠٧ ـ ١٢٩) وغافر (٢٣ ـ ٢٧) وائتمار آل فرعون بموسى لقتله ودفاع مؤمن عنه في سورة غافر (٢٨ ـ ٣٥ ، و ٣٨ ـ ٤٦) واستخفاف فرعون بموسى في سورة الزخرف (٥١ ـ ٥٤) والنازعات (٢٢ ـ ٢٦).

وكانت آيات العذاب التسع لفرعون وقومه لما كذبوا موسى هي العقاب الفاصل ، وتلك الآيات : الجدب (السنون) ، ونقص الأموال ، ونقص الأنفس ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.

أما العصا واليد وفلق البحر وانبجاس الماء لبني إسرائيل فكانت معجزات لموسى عليه‌السلام.

أما الآيات التسع فهي مذكورة في سورة الأعراف (١٣٠ ـ ١٣٥) وسورة الإسراء (١٠١ ـ ١٠٢) وسورة طه (٥٩) وسورة النمل (١٣ ـ ١٤) وسورة القصص (٣٦ ـ ٣٧) وسورة الزخرف (٤٦ ـ ٥٠) وسورة القمر (٤١ ـ ٤٢) وسورة النازعات (٢٠ ـ ٢١).

وإغراق فرعون وملئه في البحر الأحمر مذكور في سورة الأعراف (١٣٦ ـ ١٣٧) وسورة يونس (٩٠ ـ ٩٢) وسورة الإسراء (١٠٣ ـ ١٠٤) وسورة طه (٧٧ ـ ٧٩) وسورة الشعراء (٥٢ ـ ٦٨) وسورة القصص (٣٩ ـ ٤٠) وسورة الزخرف (٥٥ ـ ٥٦) وسورة الدخان (١٧ ـ ٣١) وسورة الذاريات (٣٨ ـ ٤٠).

وأما عقاب فرعون وقومه في الآخرة ففيه عبرة لكل من ادعى الألوهية وتغطرس واستكبر عن قبول دعوة الأنبياء ، وهو مذكور في سورة هود (٩٦ ـ ٩٩) وسورة القصص (٤١ ـ ٤٢) وسورة غافر (٤٥ ـ ٥٢) وسورة الدخان (٤٣ ـ ٥٠).

وقد قلّد بنو إسرائيل في عهد موسى وثنية المصريين ، ولم يؤمن بموسى إلا ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون أن يفتنهم عن دينهم ويردهم إلى الوثنية ، كما قال تعالى : ﴿فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ وطلبوا من موسى حينما رأوا عباد الأصنام أن يتخذ لهم إلها كما لهؤلاء القوم آلهة ، وكذلك طلبوا الاستبدال بالمن والسلوى الحبوب والبصل والثوم والبقول ، وذلك مذكور في سورة البقرة : ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ﴾ (٦١) وفي سورة الأعراف : ﴿اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (١٣٨ ـ ١٤٠) وضرب الحجر وانفجار العيون الاثنتي عشرة في سورة الأعراف (١٥٩ ـ ١٦٠) وإنزال المن والسلوى في سورة طه (٨٠ ـ ٨٢).

ثم ذهب موسى تاركا بني إسرائيل لميقات ربه ، وكتب له الألواح المتضمنة الوصايا التي طلب إلى بني إسرائيل العمل بها ، وذلك مذكور في سورة الأعراف : ﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً ...﴾ (١٤٢ ـ ١٤٧).

وفي أثناء غيبة موسى في جبل الطور اتخذ السامري عجلا إلها لبني إسرائيل

يعبدونه ، صنعه من ذهب بعد أن جمعه من حلي النساء ، وجعله بفعل تأثير الرياح والرمال أو أثر قدم فرس جبريل ذا خوار أي كصوت الثور ، وقال لهم : ﴿هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى﴾. ولم يفلح هارون في ردهم عن عبادة العجل : ﴿قالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى﴾ [طه ٢٠ / ٩١]. وبعد عودة موسى غضب على أخيه هارون وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه ، وكان فيه حدة ، فاعتذر إليه هارون بأنه بذل أقصى جهده. ثم عاتب موسى النبي ، موسى السامري فقال السامري : ﴿بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه ٢٠ / ٩٦] فعاقبه موسى بالطرد والتشرد وأن يقول في حياته : ﴿لا مِساسَ﴾. وقصة عبادة العجل مذكورة في سورة البقرة (٥٤ ، و ٩٢ ـ ٩٣) وسورة الأعراف (١٤٨ ـ ١٥٤) وسورة طه (٨٤ ـ ٩٨).

ثم أمر الله على لسان موسى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وهي فلسطين أرض الموعد ، فتمردوا ، فحرمت عليهم ، وتاهوا في الأرض أربعين سنة يعيشون في البرية ، من عهد خروجهم من مصر ، إلى أن مات موسى ، وعبروا نهر الأردن ، وملكوا أريحاء وما حولها غرب الأردن أربعين سنة. وتلك القصة مذكورة في سورة المائدة (٢٠ ـ ٢٦).

وفي صحراء التيه ذكر الله تعالى في سورتي البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل حتى صار كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك ، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف. وقصة نتق الجبل مذكورة في سورة البقرة (٦٣ ـ ٦٤) وسورة الأعراف (١٧١).

وبالرغم من أعجوبة قصة البقرة (البقرة ٦٧ ـ ٧٤) التي ذكرناها في الجزء الأول ، فإن بني إسرائيل لم يتعظوا بها ، وبقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة ، ولم تفلح مواعظ موسى فيهم.

ولموسى عليه‌السلام موقف متشدد مع قارون الثري الطاغية ، وقد ذكرت قصته في سورة القصص (٧٦ . ٨٣) كما ذكر ما آل إليه أمر طغيانه بخسف الأرض به وبداره ، وإبادة أعداء موسى المقدر عددهم مائتين وخمسين.

ويلاحظ أن موسى أوذي من بني إسرائيل وأظهر الله براءته من عيب اتهموه به وهو الأدرة (ورم في الخصية) أو البرص ، وذلك في سورة الأحزاب (٦٩) وسورة الصف (٥).

ولما رأى بنو إسرائيل اقترافهم الإثم الكبير بعبادة العجل ، اختار موسى من القوم سبعين رجلا يذهبون معه إلى الجبل الذي اعتاد مناجاة الله فيه وهو جبل الطور ، ليقدموا الطاعة لله ويندموا على ما اقترفوا من إثم ، ويتوبوا من عبادة العجل ، فلما كلم الله تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله ، عاد جماعة منهم إلى التمرد والعصيان ، ولم يؤمنوا أن الله تعالى هو الذي يكلم موسى وأنه أعطاه التوراة ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم إلى بعض ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم ، بعد تضرع موسى وتذلله ، وطلبه العفو عما صدر من سفهائهم ، والقصة مذكورة في سورتي البقرة (٥٥ . ٥٦) والأعراف (١٥٥ . ١٥٧).

ولموسى قصة طريفة مع العبد الصالح الخضر ، مذكورة في سورة الكهف (٦٠ . ٨٢).

وتكرر في القرآن تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمه عليهم مثل آيات سورة البقرة (٤٧ . ٥٧ ، و ٦٠ . ٦١) وفي سورة الأعراف (١٤١) وسورة إبراهيم (٦ . ٨).

وقد مات هارون أولا في جبل «هور» ودفنه موسى ، ثم مات موسى في جبل «نبو» ودفن على الكثيب الأحمر.

وبعد وفاة موسى قام بأمر بني إسرائيل يوشع بن نون من سبط يوسف ، بعد خروجهم من التيه ، أمرهم الله أن يدخلوا مدينة بفلسطين هي بيت المقدس أورشليم» أو أريحا ، وذلك بأن يدخلوا باب المدينة سجّدا ، أي خاشعين متذللين ، وأن يقولوا : حطة فخالفوا ودخلوا على هيئة غير التي أمروا بها ، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب ، والقصة مذكورة في سورة البقرة (٥٨ ـ ٥٩) وسورة الأعراف (١٦١ ـ ١٦٢).

وأثنى الله على موسى وهارون في سورة مريم (٥١ ـ ٥٣) وسورة الصافات (١١٤ ـ ١٢٢) وسورة غافر (٥٣ ـ ٥٤).

ما يستفاد من قصة موسى عليه‌السلام :

شريعة موسى في أصلها الموحى به كشريعة الإسلام في الجملة ، وأمته ذات تاريخ مليء بالاضطرابات والقلاقل والأحداث العنيفة ، وكانت ذات سلطة أحيانا ، وساهمت بشيء من المدنيّة. وكان لقصة موسى مع بني إسرائيل عبر وعظات هي :

١ ـ أنقذ الله موسى من القتل وهو طفل رضيع ، وألقته أمه في النيل ، ثم ردّه الله إليها لإرضاعه ، وتلك عصمة الله ورعايته له ورحمته بأمه.

٢ ـ تربّى موسى في قصور فرعون وكان مؤمنا ونبيا من أولي العزم ، وموسى السامري الذي ربّاه جبريل كافر شقي ابتدع عبادة العجل.

٣ ـ هجرة موسى أو خروجه من أرض مصر بنصيحة رجل من أقصى المدينة بالابتعاد عن مصر ، كانت خيرا كلها ، فإنه صاهر شعيبا عليه‌السلام ، وأوحى الله إليه بالنبوة ، وكانت نصيحة الرجل له من تيسير الله له وفضله عليه ؛ لأنها كانت سببا في نجاته وبعثته. وهكذا فإن من توكل على الله صانه وحماه.

٤ ـ لا أثر لقوة البشر وتآمرهم على الإنسان إذا لازمته العناية الإلهية ، فإن بأس فرعون وملأه لم يلحق ضررا بموسى. وانظر إلى هذه المحاورة الحادة ، إذ قال له فرعون : ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠١] فأجابه موسى بعد تلطف كثير وصبر على الجدال بالباطل : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٢].

٥ ـ الفرج الإلهي يأتي بعد الشدة ، ونصرة الحق تأتي عند اشتداد الأزمة ، فقد دافع رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه عن موسى ، وحذر فرعون وآله بطش الله ، غير خائف ولا مبال به وبسلطته ، ضاربا الأمثال بالأمم الخالية ، كما جاء في قوله تعالى في سورة غافر : ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ ...﴾ [٢٨ ـ ٣٥].

٦ ـ إذا فاضت مشاعر الإيمان في النفس ، هانت أمامها كل الصعاب ، فإن السحرة آمنوا برب موسى ، غير مبالين بفرعون وسطوته.

٧ ـ الصبر مفتاح الفرج وحميد العاقبة ، فإن بني إسرائيل صبروا على أذى فرعون بتقتيل الأبناء واستحياء النساء ثم أعقبهم الله الحسنى بما صبروا : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٧].

وتعرضوا لهجوم الرومان بقيادة «طيطس» الروماني ، فخربوا بيتهم المقدس وهيكلهم الضخم ، بعد سنة ٧١ م فتركوا فلسطين ثم عادوا إليها بعد وفاة موسى وأسسوا مملكة أريحا ، واحتلوا جهات من الحجاز ، كتيماء ووادي القرى وفدك وخيبر ويثرب ، وبنوا فيها المصانع والحصون ، انتظارا لظهور النبي الذي

وعدوا به من العرب الإسماعيليين في يثرب ، وأملا في مؤازرتهم ومناصرتهم ، فأقاموا على الطريق بين يثرب وفلسطين.

٨ ـ حلم موسى على قومه بني إسرائيل ، فبالرغم من غضب الله عليهم بسبب عبادة العجل ، وطلب شيوخهم الذين جاؤوا للتوبة رؤية الله تعالى جهلا وتعنتا ، فإن موسى تضرع إلى ربه طالبا العفو عن زلات سفهائهم ، وقال : ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ، تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٥].

التفسير والبيان :

يذكر الله تعالى أنه بعث بعد الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم‌السلام ، موسى ، بالآيات أي الحجج والدلائل البينة والمعجزات الدالة على صدقه ورسالته ، إلى فرعون : وهو ملك مصر في زمن موسى ، وملئه أي قومه ، فجحدوا وكفروا بها ، ظلما منهم وعنادا ، فانظر أيها الرسول (أي محمد) كيف كان مصير المفسدين في الأرض بالظلم واستعباد البشر ، وهم فرعون وملؤه الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله ، أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم ، وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله : موسى وقومه المؤمنين به. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِها ، وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ، ظُلْماً وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ١٤].

وقال : ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ ولم يقل : وقومه ؛ لأن الذين استعبدهم فرعون وعاضدوه هم أتباع الحكم والسلطان ، وليس سائر الشعب المصري ، وإنما كان الشعب تبعا للحكام ، فلو آمن فرعون لتبعه الشعب كله.

وقوله : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تشويق واجتذاب الأنظار إلى ما سيذكره تعالى من المصير المشؤوم لفرعون وملئه ، ونجاة موسى وبني إسرائيل.

ثم بدأ الله تعالى بعد هذا التشويق ببيان فصول القصة ، وأول فصل منها : إخباره تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وتغلبه عليه بالحجة والمنطق ، وإظهاره الآيات البيّنات في مجلس فرعون وقومه قبط مصر.

وقال موسى : يا فرعون أي يا ملك مصر ، إني رسول من رب العالمين ، أي مالك كل شيء وخالقه ومدبره ، وجدير بي [١] ألا أقول على الله إلا الحق ، فإن الرسول لا يكذب على الله الذي بيده ملكوت كل شيء ، لذا فإني لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق ؛ لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه.

وهاتان الجملتان تتضمنان عقيدة التوحيد : وهي أن للعوالم كلها إنسها وجنّها ربا واحد ، وعقيدة النوبة والرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ.

ومن المؤيدات قوله : قد جئتكم ببرهان وحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا وشاهدا على صدقي فيما أخبرتكم عنه.

وقوله : ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن جميع الناس مربوبون لله ومخلوقون به ، وأن فرعون ليس ربا ولا إلها ، وإلى أن البينة ليست من صنع موسى.

ثم رتب على إثباته نبوته بالبينة الواضحة طلب موسى من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل من أسره واستعباده وقهره ، وتركهم حتى يذهبوا معه راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم ، ليتفرغوا إلى عبادة ربهم وربه ؛ فإنهم من سلالة

---

(١) الباء وعلى يتعاقبان ، فعلى في قوله تعالى : «حَقِيقٌ عَلى» بمعنى الباء ، يقال : رميت بالقوس وعلى القوس ، وجاء على حال حسنة وبحال حسنة.

نبي كريم : إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

وذلك أن يوسف عليه‌السلام لما توفي وانقرضت الأسباط ، تغلب فرعون على نسل بني إسرائيل واستعبدهم ، فأنقذهم الله بموسى عليه‌السلام ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر ، واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

قال فرعون مجيبا موسى : إن كنت مؤيدا بآية من عند ربك ، فأظهرها لنراها ، إن كنت صادقا فيما ادعيت.

فأجابه موسى على الفور إلى ما طلبه بالفعل لا بالقول : فألقى عصاه من يمينه على الأرض أمام فرعون فإذا هي ثعبان (ذكر الحيات) مبين ، أي ظاهر واضح حقيقي يتحرك ويسير من مكان إلى مكان.

وأخرج يده من جيب قميصه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض ، كالشمس المضيئة ، كما قال تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل ٢٧ / ١٢].

وهذا هو الفصل الثاني من القصة.

ولا داعي للاسترسال في أوصاف الثعبان والعصا واليد ، بأكثر مما دلت عليه الآيات القرآنية ؛ إذ ليس لها سند يوثق به ، وإنما هي من الروايات الإسرائيلية التي دسها بعض الدخلاء غير المتورعين ولا المدققين ، مثل كعب الأحبار الإسرائيلي ، ووهب بن منبّه الفارسي الأصل.

ومن المعلوم أن إثارة الفتن السياسية في صدر الإسلام يعود أمرها إلى جماعة السابئيين (أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي) وجماعات الفرس الذين دخلوا في الإسلام لهدمه من الداخل ، وقد قتل عمر على يد أبي لؤلؤة الفارسي المرسل من جماعة سرية في فارس ، وقتل عثمان بدسائس عبد الله بن سبأ.

ثم جاء الفصل الثالث من القصة ومضمونه مقالة ملأ فرعون : قال السادة من قوم فرعون الموافقون له وأهل مشورته : ﴿إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي خبير بفنون السحر وأنواعه ، وله خطره إذ قد يستميل الناس بسحره ، فيكون ذلك سببا لغلبته علينا ، ونزع ملكنا ، وإخراجنا من أرضنا بسحره ، وذلك كله مصرح به في آية أخرى خاطبوا بها موسى وأخاه هارون : ﴿قالُوا : أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ ، وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٧٨] وهو في الواقع صدى لما قاله فرعون وحكاه الله عنه بقوله : ﴿قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ، فَما ذا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٣٤ ـ ٣٥].

ثم وقع ما خافوا منه ، كما قال تعالى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٦].

وتابع الملأ كلامهم وإبداء رأيهم : قال الملأ لفرعون بعد أن استشارهم بقوله السابق : ﴿فَما ذا تَأْمُرُونَ؟﴾ : أخّر الفصل في أمره وأمر أخيه ، وأرسل في الأقاليم ومدائن ملكك فئة من جندك حاشرين ، أي جامعين لك السحرة من سائر البلاد. وإنما قال : في المدائن لأن السحر ينشط في المدن الجامعة المأهولة بكثرة الناس.

وكان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ، فتوهموا أن ما جاء به موسى عليه‌السلام من قبيل شعوذة الساحرين ، فجمعوا له السحرة ، ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات ، كما أخبر تعالى فرعون حيث قال : ﴿قالَ : أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ ، مَكاناً سُوىً. قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى﴾ [طه ٢٠ / ٥٧ ـ ٦٠].

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي إن ترسلهم يأتوك بكل ساحر ماهر بفنون السحر. وواضح أن الهدف الإتيان بالمهرة لتحقيق الغلبة والتفوق. قال الزمخشري : وكانت هذه مؤامرة مع القبط.

ثم جاء الفصل الرابع وهو دور السحرة.

وجاء السحرة من كل مكان ، وقالوا لفرعون : هل لنا أجر لقاء الغلبة على موسى؟ فقال فرعون : نعم لكم أجر عظيم ، وتصبحون من المقرّبين إلى في المركز والمجلس ، وهذا إغراء في الجمع بين المركز المالي والأدبي.

قال السحرة لموسى في اليوم المخصص : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ بسحرك أولا ، وإما أن نلقي ما عندنا؟ وفي هذا التخيير اعتزاز شديد بأنفسهم ، وثقة بخبرتهم ، وعدم مبالاة بعمله.

فأجاب موسى جواب الذكي الخبير ؛ لأن المتأخر في العمل يكون أدرى بما تقتضيه الحال ، وهو واثق أيضا بشأنه وغلبته عليهم : ﴿أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ، وهذا إذن بتقديم الفعل ، لا أمر يقرهم به على فعل السحر ، وهو بقوله المذكور يريد أن يري الناس صنيعهم ويتأملوه ، ويستفرغ ما عندهم من طاقات ، فإذا فرغوا من زيفهم وشعوذتهم ، جاءهم الحق الواضح ، فيكون أوقع في النفوس. لذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا ، سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف ٧ / ١١٦] أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه ، له حقيقة واقعية ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، كما قال تعالى : ﴿قالَ : بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى. قُلْنا : لا تَخَفْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى. وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ، إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾ [طه ٢٠ / ٦٦ ـ ٦٩].

وتتجلى ثقة موسى بنفسه وبأن ما لديه معجزة إلهية ليست من جنس

السحر ، في قوله تعالى : ﴿قالَ مُوسى : ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٨١ ـ ٨٢].

ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ...﴾ أي لما ألقوا حبالهم وأخشابهم ، سحروا أعين المتفرجين ، ومنهم موسى الذي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وجاؤوا بسحر عظيم المظهر ، كبير التأثير في أعين الناس. روي أنهم لوّنوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة ، قيل : جعلوا فيها الزئبق.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آيات قصة موسى على ما يأتي :

١ ـ آية ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا﴾ دلت على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة يمتاز بها عن غيره ؛ إذ لو لم يكن مختصا بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

ودلت أيضا على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة ومعجزات كثيرة. قال ابن عباس رضي‌الله‌عنهما : أول آياته : العصا ثم اليد.

ودلت كذلك على أن فرعون وجماعته ظلموا بالآيات التي جاءتهم ، فاستحقوا العقاب الشامل وهو الإغراق في البحر ؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وإنهم وضعوا الإنكار في موضع الإقرار. والكفر في موضع الإيمان ، فكان ذلك ظلما منهم لتلك الآيات.

٢ ـ دل قوله : ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ على وجود الإله ؛ لأن العالم

محتاج إلى إله يوجده ويخلقه ، ومتصف بصفات كالضعف والتغير ونحوها تجعله مفتقرا إلى ربّ يربّيه.

٣ ـ وقوله : ﴿حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَ﴾ يشير إلى أن الرسول لا يقول إلا الحق.

٤ ـ إن طلب موسى عليه‌السلام إرسال شعب بني إسرائيل معه الذي رتبه على كونه رسولا طلب ليس من السهل على حاكم تلبيته ، لاحتمال تكوين خصوم ضده ، من طريق تبليغهم الحكم الإلهي ، وإعدادهم لمجابهة فرعون.

٥ ـ قوله : ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو المعجزة الظاهرة القاهرة ، وقد طلب فرعون من موسى إظهار تلك المعجزة : ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها ..﴾ دليلا على صدقه فيما يدعيه من الرسالة المرسل بها من الله. وكانت المعجزة قلب العصا ثعبانا ، وإظهار اليد البيضاء.

٦ ـ اختار الطاغية الكافر : فرعون وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة ، وادعى كون موسى ساحرا ، فتشاور مع كبار رجال دولته ، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة صعيد مصر المهرة وبين موسى.

وتم جمع السحرة من أنحاء المملكة ، قيل : كانوا سبعين رجلا أو ثلاثة وسبعين. ودل قوله : ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

٧ ـ دل قوله : ﴿فَأَلْقى عَصاهُ ...﴾ وقوله : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ على أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبا على أهل ذلك الزمان ، فلما كان السحر غالبا على أهل زمان موسى عليه‌السلام ، كانت معجزته شبيهة بالسحر ، وإن كان مخالفا للسحر في الحقيقة. ولما كان الطب غالبا على أهل زمان عيسى

عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب ، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد عليه الصلاة والسلام كانت معجزته القرآن أبلغ الكلام من جنس الفصاحة.

٨ . دل قوله : ﴿وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا ...﴾ على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبدا ذليلا مهينا عاجزا ، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام . ودل أيضا على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان أو الأشياء ، فلم يتمكنوا من قلب الحبال والعصي حيات فعلية ، كما لم يتمكنوا من قلب التراب ذهبا ، وأن يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ، ولو كانوا قادرين على ذلك لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون.

والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق ، وألا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب.

٩ . قوله : ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله ، من قولهم : ﴿نَكُونَ﴾ وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل وهو ﴿نَحْنُ﴾ وتعريف الخبر وهو ﴿الْمُلْقِينَ﴾ بقصد كسب الشهرة واجتذاب أنظار الناس.

وقد جاراهم موسى في رغبتهم ازدراء لشأنهم وقلة المبالاة بهم ، وثقته بالتأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها شيء.

١٠ . دل قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ على أن السحر محض التمويه. ولو كان السحر حقا ، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم. وكل ما في الأمر أنهم تخيلوا أحوالا عجيبة ، مع أن الأمر في الحقيقة خلاف ذلك. ودل قوله : ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ على أن العوام خافوا من حركات تلك الحبال والعصي.

وأما خوف موسى فليس كخوف العوام ، وإنما لعله خاف من وقوع التأخير في ظهور حجته على سحرهم.

١١ ـ السحر كما دلت الآية مجرد خيال وتمويه لا حقيقة فيه ، لذا يسمى بالشّعوذة والدجل ، وهو إما أن يعتمد على بعض خواص المادة كتمدد الزئبق الذي وضعه سحرة فرعون في حبالهم وعصيهم ، وإما أن يستعان فيه بخفة اليد في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعضها ، وإما أن يلجأ فيه إلى تأثير النفس القوية في إرادة النفس الضعيفة ، وقد يستعان حينئذ بأرواح الشياطين ، ومنه ما يسمى في عصرنا بالتنويم المغناطيسي.

١٢ ـ الفرق بين السحر والمعجزة : أن المعجزة حقيقة تظهر على يد مدعي النبوة ، والسحر خيال يحدث على يد رجل فاسق.

لذا أخطأ من زعم أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم سحر ، وأن السحر أثّر فيه ، حتى قال : «إنه يخيّل إلي أني أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله» وإن امرأة يهودية سحرته في وعاء طلع النخل ووضعته تحت الحجر الذي يقف عليه المستقي من البئر ، حتى أتاه جبريل فأخبره بذلك ، فاستخرج وزال عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم . وهذا كله من وضع الملحدين الذين يحاولون العبث بالنبوة وإبطال معجزات الأنبياء عليهم‌السلام .

وهذا ينافي قوله تعالى : (وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى). وجائز أن تفعل المرأة اليهودية ذلك بجهلها ، ثم أطلع الله نبيه على فعلها ، لا أن ذلك ضره وخلط عليه أمره.

إيمان السّحرة بربّ العالمين

﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (١٢٢)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ أَلْقِ عَصاكَ أَنْ﴾ : إما مصدرية في موضع نصب ، وتقديره : بأن ألق عصاك ، فحذف حرف الجر فاتّصل الفعل بها ، وإما أن تكون مفسّرة بمعنى أي ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، كقوله تعالى : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ [ص ٣٨ / ٦] أي : امشوا. ﴿ما يَأْفِكُونَ ما﴾ : موصولة ، أي : زال وذهب الذي عملوا به السّحر ، أو مصدرية بتقدير : فإذا هي تلقف إفكهم ، تسمية للمأفوك بالإفك. ﴿صاغِرِينَ﴾ حال منصوب.

البلاغة :

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ استعارة أستعير لوقع للثبوت والظهور والحدوث.

المفردات اللغوية :

﴿تَلْقَفُ﴾ تتناول وتبتلع بسرعة. ﴿ما يَأْفِكُونَ﴾ يقلبون بتمويههم ، أو يكذبون ويموهون ، مأخوذ من الإفك : وهو قلب الشيء عن وجهه الأصلي ، وهو إما أن يكون بالقول الكاذب ، وإما أن يكون بالفعل كالسحر. والمأفوك : المصروف عن وجهته الأصلية ، قال تعالى : ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة ٥ / ٧٥ وموضع أخرى] أي يصرفون عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل ، ومنه سمّيت الرياح المعدولة عن مهبها مؤتفكة ، كما قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٩] أي أهل تلك القرى. وهي قرى قوم لوط.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون ، وهو موقفه من

السّحرة. وهو إخبار من الله تعالى إلى رسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرّق فيه بين الحق والباطل ، ومضمون الإخبار : إلقاء ما في يمينه وهي عصاه.

أوحى الله إلى موسى وأمر بإلقاء عصاه ، التي تحولت إلى ثعبان عظيم ، فإذا هي تبتلع ما ألقوه ، وموّهوا به أنه حق وهو باطل ، أو ما يقلبونه من الحقّ إلى الباطل ويزوّرونه. قال ابن عباس : فجعلت لا تمرّ بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته ، فعرفت السّحرة أن هذا شيء من السّماء ، ليس بسحر ، فخرّوا سجّدا ، و ﴿قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

وكانوا قد جعلوا الحبال مجوّفة محشوّة بالزئبق ، وقد تحرّكت بتأثير الحرارة : إما بحرارة الشّمس حين أصابتها ، وإما بنار أعدت لها.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ ..﴾ أي فثبت الحقّ وظهر كالشّمس ، وفسد ما كان السّحرة يعملون من الحيل والتّخييل ، وذهب تأثيره ، وأدركوا أن فعل موسى فوق السّحر.

وغلب السّحرة في ذلك الجمع العظيم بأمر الله وقدرته ، وانقلب فرعون وقومه معه صاغرين أذلّة ، بما لحقهم من عار الهزيمة والخيبة والخذلان ، لكن السّحرة آمنوا.

وألقي السّحرة عند ذلك وعند معاينة المعجزة سجّدا لربّهم ؛ لأنّ الحق بهرهم وحملهم على السجود ، وقالوا : صدّقنا وآمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، أي ربّ جميع الأشياء والخلائق من الإنس والجنّ.

وكان هؤلاء منسجمين مع أنفسهم ، منطقيين في تصرّفهم ، فلم يكابروا ، وإنما كانوا صادقين مع نفوسهم ، بدليل أن فرعون قبل المبارزة دعا رؤساء السّحرة

ومعلميهم ، فقال لهم : ما صنعتم؟ قالوا : قد عملنا سحرا لا يطيقه سحرة أهل الأرض ، إلا أن يكون أمرا من السّماء ، فإنه لا طاقة لنا به.

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات إظهار واضح لقدرة الله تعالى بإعدام الحبال والعصي وإذهابها من الوجود ، مما يدلّ على وجود الإله القادر المختار ، وعلى المعجز العظيم لموسى عليه‌السلام ، والحسم القاطع بين الحقّ والباطل.

ولكن المشكلة تكمن في مواقف البشر ، فالمعاندون وهم فرعون وقومه ، بالرغم من عار الهزيمة والخذلان ، ظلّوا على وضعهم من الكفر والعناد والتكذيب ، وهو طيش وخفّة عقل ومكابرة للحقّ. وأما السّحرة البسطاء في الظاهر ، والعقلاء في الحقيقة والواقع ، فإنهم عرفوا أن فعل موسى ليس من قبيل السّحر ، وإنما هو معجزة سماوية إلهية ، فلم يتمالكوا أنفسهم ، وخرّوا ساجدين لربّهم ، خاضعين لإله الكون.

فما أحرى الناس بتقليد هؤلاء ونبذ أولئك!!

ذلك لأنّ السّحرة كانوا مهرة في علم السّحر ، متقنين لفنونه وأنواعه ، ولأجل مهارتهم وإتقانهم وكمال علمهم بالسّحر انتقلوا من الكفر إلى الإيمان.

واحتجّ أهل السّنّة بقوله تعالى : ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ﴾ على أن غيرهم ألقاهم ساجدين ، وما ذاك إلا الله رب العالمين. وهذا يدلّ على أن فعل العبد من خلق الله تعالى ، فهو سبحانه هو خالق الميل إلى الإيمان في قلوبهم.

ولما ظفروا بمعرفة الله تعالى في الحال ، جعلوا سجودهم شكرا لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان ، وعلامة أيضا على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان ، وإظهار الخضوع والتّذلل لله تعالى.

ولما قالوا : ﴿وَهارُونَ﴾ زالت الشّبهة في أن المقصود ليس فرعون مربّي موسى ، وإنما المقصود هو إله السّماء ، وإعلان الكفر بفرعون ؛ إذ أنهم لما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ قال لهم فرعون : إياي تعنون؟ فلما قالوا : ﴿رَبِّ مُوسى﴾ قال : إياي تعنون ؛ لأني أنا الذي ربّيت موسى ، فلما قالوا : ﴿وَهارُونَ﴾ زالت الشّبهة وعرف الكلّ أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السّماء.

تهديد فرعون للسّحرة وإصرارهم على الإيمان بالله

﴿قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾

المفردات اللغوية :

﴿آمَنْتُمْ﴾ استفهام معناه الإنكار والاستبعاد لمكر ، المكر : صرف الإنسان غيره عما يريده بحيلة ، والمعنى : إن هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر ، قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم ، وهو أن تخرجوا منها القبط ، وتسكنوها بني إسرائيل. وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس ، لئلا يتّبعوا السّحرة في الإيمان.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينالكم منّي. ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ أي يد كلّ واحد اليمني ورجله اليسرى وبالعكس ، والصّلب : الشدّ على خشبة ونحوها. ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون في الآخرة. ﴿تَنْقِمُ﴾ تنكر. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً﴾ أفض علينا صبرا يغمرنا كغمرة الماء ، أي هب لنا صبرا واسعا ، عند فعل ما توعدنا به فرعون ، لئلا نرجع كفارا. ﴿وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل السادس من قصّة موسى مع فرعون ، فيه يخبر الله تعالى عمّا توعّد به فرعون السّحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وبما ردّوا به عليه من تسليم أمرهم لله ؛ لأن مصيرهم إليه في الآخرة.

ومعنى ﴿آمَنْتُمْ﴾ على أنه إخبار بخبر : صدقتم ، ويراد به التّوبيخ ، وعلى أنه استفهام يراد به الإنكار والاستبعاد ، أي آمنتم بموسى واتبعتموه في رسالته قبل أن آذن لكم بذلك.

إن صنعكم هذا وغلبته لكم في هذا اليوم ، إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك ، كقوله في الآية الأخرى : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه ٢٠ / ٧١]. إنكم دبّرتم هذه المؤامرة في هذه المدينة لتخرجوا المصريين منها بسحركم ، وتسكنوا فيها مع بني إسرائيل ، فسوف تعلمون ما أصنع بكم من العذاب والنّكال على هذا المكر.

وهذا القول من فرعون مجرّد تمويه وتدليس وتغطية للهزيمة ، لئلا يتّبعوا السّحرة في الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ﴾ [الزّخرف ٤٣ / ٥٤] ؛ إذ إنه يعلم أن هذا قول باطل ، فهو الذي أرسل جنوده في مدائن مملكته ، لجمع السّحرة المتفرّقين من سائر الأقاليم بمصر ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ، ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم بذلك.

وقد استفاد فرعون هذه الفكرة أي الاتّهام بالمكر والمؤامرة من مناقشة دارت بين موسى وكبير السّحرة قبل المبارزة ، روي أن موسى عليه السلام قال لأمير السّحرة أو للسّاحر الأكبر : أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال : لآتين بسحر لا يغلبه سحر ، وإن غلبتني لأومننّ بك. وفرعون يسمع ذلك ، فلذلك قال ما قال.

وبعد أن أجمل الوعيد السابق بقوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فصله بقوله : ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ يعني قسما لأقطعنّ الأيدي والأرجل من خلاف ، ثم لأصلبنّ كل واحد على جذوع الشّجر ، كما قال : ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه ٢٠ / ٧١] أي على الجذوع ، لتكونوا عبرة لمن يكيد لنا ويخرج عن سلطاننا ، قال ابن عباس : وكان أوّل من صلب ، وأوّل من قطّع الأيدي والأرجل من خلاف : فرعون.

فأجابه السّحرة على تهديده ووعيده : إنّنا لا نأبه بالقتل ولا نبالي بالموت ؛ لأننا قد تحقّقنا أنا إلى الله راجعون ، ففي الآخرة يوم الجزاء ، فيثيبنا على شدائد القطع والصّلب ، ونريد أن نفدي أنفسنا من عذاب الله ، فعذابه أشدّ من عذابك ، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم ، وما أكرهتنا من السّحر ، أعظم من نكالك ، فلنصبرنّ اليوم على عذابك ، لنخلص من عذاب الله ، كما قال تعالى : ﴿قالُوا : لا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٥٠ ـ ٥١].

ويحتمل ـ كما ذكر الزّمخشري ـ أن يكون المعنى : إنّا جميعا نحن وأنت يا فرعون ، سننقلب إلى الله ، فيحكم بيننا. وفي هذا إيماء إلى تكذيبه في ادّعاء الرّبوبيّة ، وإيثار ما عند الله على ما عنده من شهوات الدّنيا الفانية.

وما تعيب منّا إلا الإيمان بآيات الله ، الذي هو خير الأعمال ، وأصل المناقب والمفاخر كلها. وفي هذا إعلان لقرار لا رجعة فيه ، وكأنّهم يقولون : لا أمل لك في رجوعنا عن إيماننا.

ربنا هب لنا صبرا واسعا ، وعمّنا بالصبر على دينك والثّبات عليه ، واغمرنا به حتى يفيض علينا كما يغمر الماء الأشياء.

والظاهر أنّ فرعون نفّذ تهديده ووعيده فعلا ، بدليل قوله تعالى في بداية

القصّة : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي فرعون وجماعته. قيل : إنّ فرعون أخذ السّحرة ، وقطعهم على شاطئ النهر ، وإنه آمن بموسى عند إيمان السّحرة ستمائة ألف.

﴿وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ﴾ أي ثابتين على الإسلام ، متابعين لنبيّك موسى عليه‌السلام ، وقالوا لفرعون : ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ، إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ، فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ ، فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى﴾ [طه ٢٠ / ٧٢ ـ ٧٥].

قال ابن كثير نقلا عن ابن عباس وغيره : فكانوا في أوّل النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة.

فقه الحياة أو الأحكام :

حاول فرعون إنقاذ نفسه من عار الهزيمة ، فلما علم أن أمهر الناس بالسحر أقر بنبوّة موسى عليه‌السلام أمام الخلق الكثير ، والحشد العظيم ، خاف أن يصير ذلك حجّة قويّة عند قومه على صحّة نبوّة موسى عليه‌السلام ، فألقى في الحال نوعين من الشّبهة إلى إسماع العوام [(١)] :

الشّبهة الأولى :

قوله : ﴿إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي إن إيمان هؤلاء بموسى عليه‌السلام ليس لقوّة الدّليل ، بل لأجل التّواطؤ مع موسى على الإيمان به والإقرار بنبوّته.

---

(١) تفسير الرّازي : ١٤ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

والشّبهة الثانية :

أنّ الهدف من التّواطؤ إخراج قوم فرعون من المدينة وإبطال ملكهم والاستيلاء على مصر. ولا شكّ أن مفارقة الوطن والنّعمة المألوفة من أصعب الأمور ، فجمع فرعون بين الشّبهتين ، لتغطية آثار الهزيمة ، وإبقاء التّماسك حوله.

ثم أتبع فرعون التّدليس والتّمويه بالتّهديد والوعيد للسّحرة ، وبالتّنكيل الشّديد بهم ، وتقطيع أطرافهم ، وصلبهم ، قال ابن العربي : هذا يدلّ على أنّ الصّلب وقطع اليد والرّجل من خلاف كان عقوبة متأصّلة عند الخلق ، تلقّفوها من شرع متقدّم ، فحرّفوها حتى أوضحها الله في ملّة الإسلام ، وجعلها أعظم العقوبات لأعظم الاجرام أي عقوبة المحاربين(١).

ولكن غباء فرعون وجماعته وكلّ الكفار جعلهم لا يدركون ما الذي يفعله الإيمان الحقّ من الأعاجيب ، فلم يبالوا بالموت ، وطلبوا الثّبات على الإسلام ، والعون على إفراغ الصّبر عليهم عند القطع والصّلب.

وإذا كان الإيمان بالدّين الحقّ والصّبر على الشّدائد من خلق الله تعالى ، كما يقول أهل السّنة ، فإنّ اتّجاه إرادة الإنسان للأخذ بهما ، والاستعانة بالله للثّبات على الإسلام ، دليل على استحقاق العبد الثّواب على ما اتّجهت إليه إرادته ، إذ لو كان الإيمان مجرّد منحة من الله ، لما كان هناك داع لإثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر.

وموقف السّحرة وإعلان إيمانهم بجرأة وصراحة يدلّ على أنّ الإنسان إذا تجرّد عن هواه ، وأذعن للعقل والفكر السّليم ، بادر إلى الإيمان عند ظهور الأدلّة عليه.

---

(١) أحكام القرآن : ٢ / ٧٧٩.

وصلابة السّحرة ومن تابعهم في إيمانهم أحد المظاهر التي تدلّ على أنّ الإيمان الرّاسخ في النّفس يكون أعزّ وأمنع من الجبال الرّاسيات.

وقد دلّت التّجارب وأثبت التاريخ قديما وحديثا أنّ أهل الإيمان بالله واليوم الآخر هم أشدّ الناس حزما ، وأكثرهم شجاعة وصبرا في أوقات الأزمات والمحن والحروب ، والأمثلة كثيرة في تاريخ الإسلام قديما في الفتوحات ، وحديثا في لقاء اليهود وأمثالهم في فلسطين والجزائر والهند وأفغانستان وغيرها.

تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه

ونصيحة موسى لقومه وحوارهم معه

﴿وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾

الإعراب :

﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوف على : يفسدوا ، والواو عاطفة ، ويصحّ أن تكون حالية.

المفردات اللغوية :

﴿الْمَلَأُ﴾ كما تقدّم : السّادة والأشراف. ﴿أَتَذَرُ﴾ أتترك. ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدّعوة إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ يتركك. ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ كان صنع لهم أصناما صغارا يعبدونها ، وقال :

أنا ربّكم وربّها ، ولذا قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾. والواو في قوله ﴿وَيَذَرَكَ﴾ : قيل : إنّها حالية ، أي أتذروه وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟ وقيل : هي عاطفة ، أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك.

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ﴾ المولودين. ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ نستبقي. ﴿نِساءَهُمْ﴾ أحياء كما فعلنا بهم من قبل. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾ قادرون ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل. ﴿يُورِثُها﴾ يعطيها. ﴿وَالْعاقِبَةُ﴾ المصير المحمود. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الله.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل السّابع من قصّة موسى مع فرعون ، يخبر فيه الله تعالى عن تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه ، وما أضمروه لهم من الأذى والبغضاء ، بعد إيمان السّحرة بموسى وانضمامهم له على مشهد من الجموع الغفيرة.

والمعنى : وقال أشراف قوم فرعون لفرعون : أتترك موسى وقومه أحرارا ، فيتمكّنوا من إفساد رعيّتك ، بإدخالهم في دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم وقيادتهم ، ويدعوهم إلى عبادة ربّهم دونك ، ويتركك مع آلهتك فلا يعبدونك ولا يعبدونها كما قررت؟!

ومن المعروف في التّاريخ المصري القديم أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها (الشمس) ويسمّونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشّمس وابنها.

قال الحسن البصري : كان فرعون يعبد الأصنام ، فكان يعبد ويعبد. قال التّيمي : كان يعبد شيئا كان قد جعله في عنقه. فأجابهم فرعون : سنقتّل أبناء بني إسرائيل تقتيلا ، ونستبقي نساءهم أحياء ، كما كنّا نفعل من قبل ، فلا يتكاثرون حتى ينقرضوا ، وإنّا مستعلون عليهم ، قاهرون لهم ، فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد في أرضنا ، ولا الخروج من سلطاننا.

وفي موقف آخر همّ فرعون بقتل موسى كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَقالَ

فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ [غافر ٤٠ / ٢٦].

وحين قال فرعون : ﴿**سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ**﴾ وسمع الإسرائيليّون ذلك ، فزعوا وجزعوا وتضجّروا ، فطمأنهم موسى ونصحهم وقال لهم : استعينوا بالله وحده ، واطلبوا العون والتّأييد منه على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولا تحزنوا ، فالله هو المعين على الشّدائد ، والصّبر سلاح المؤمن ومفتاح الفرج ، واعلموا ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**﴾. وهذا وعد لهم بالنّصر ، وأنّ الدّار ستصير لهم.

واللام في ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ**﴾ يجوز أن تكون للعهد ، ويراد أرض مصر خاصة ، كقوله تعالى : ﴿**وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ**﴾ [الزّمر ٣٩ / ٧٤] ، ويجوز أن تكون للجنس ، فيتناول أرض مصر ؛ لأنها من جنس الأرض. ثمّ بشّرهم بحسن الخاتمة والعاقبة ، فقال :

واعلموا أن العاقبة الحسنى والخاتمة المحمودة لمن اتّقى الله ، والنّصر للمؤمنين ، لا كما يتوهّم فرعون وقومه.

ثم دار حوار بين بني إسرائيل وموسى ، وكأنّ الوصية لم تؤثّر فيهم ، ولشدّة فزعهم من فرعون وقومه ، فقالوا : أوذينا من قبل مجيئك وقبل ولادتك ، ومن بعد إرسالك ، وفعلوا بنا مثلما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ، ومن بعد ذلك ، فقتلوا أولادنا ، وعذّبونا وأساؤوا لنا ، واليوم يتكرر ما كان في الماضي ، وتعود المأساة ، كما تسمع من الوعيد والتّهديد.

فأجابهم موسى مؤكّدا نصر الله لهم ، وما يصيرون إليه في المستقبل القريب ، وثقته بالله تعالى ، ومبشّرا بهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر : أملي بالله ورجائي بفضله ، والله محققه بمشيئته : ﴿**أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**﴾ فرعون وقومه ،

ويجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم ، فينظر عملكم الكائن منكم ، حسنه وقبيحه ، وشكر النّعمة وكفرانها ، وسيجازيكم على حسب ما يوجد منكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ.

وهذا حضّ لهم على العزم على الشكر عند حلول النّعمة ، وزوال النّقمة.

وعبّر بالرّجاء دون الجزم بذلك ، لتفويض المشيئة لله تعالى ، ولئلا يتركوا العمل ويتّكلوا على ذلك. قال سيبويه : عسى : طمع وإشفاق. وقال الزّجاج : وما يطمع الله تعالى فيه فهو واجب.

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يختلف واقع التّاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل بالنّسبة للأقوياء والضّعفاء ، فإن صاحب القوّة والسّلطة يعتمد على سلطانه وبأسه ، فيشيع بين الناس الرّهبة والذّعر والخوف ، ويعلن الإنذار والتّهديد والوعيد.

المنتفعون من السّلطة لسان حالهم ومقالهم وفعلهم فعل تلك السّلطة ، لذلك حرّض السّادة والأشراف من قوم فرعون على موسى وبني إسرائيل.

وكانت استجابة فرعون الطاغية للتحريض فورية ، فجدّد تنكيله ببني إسرائيل وهو قتل أولادهم بعد الولادة ، وتشديد قبضة السّلطة عليهم ، ليظلّوا مقهورين أذلّاء خائفين خاضعين له.

أمّا موسى فكان فرعون كلما رآه خافه أشدّ الخوف ، لذا لم يتعرّض له ، مع أنّ قومه لم يعرفوا ذلك ، فحملوه على أخذه وحبسه ، ولكنه لم يحبسه لعدم الاهتمام به ، ولعدم خوفه في الظاهر منه.

وأمّا المستضعفون بقيادة موسى فلا أمل لهم إلا بالله ، ولا ملجأ إلا إليه ، لذا طلب موسى من قومه أن يطلبوا العون والتّأييد من الله تعالى ، وأن يتذرّعوا

بالصّبر ، فإن صدقوا في إيمانهم ، وصبروا على بلائهم ، حقّق الله لهم الغلبة والنّصر ، وجعل العاقبة الحسنة لهم لتقواهم.

أمرهم موسى بشيئين ، وبشّرهم بشيئين :

أمّا اللّذان أمر موسى عليه السلام بهما : فهما الاستعانة بالله تعالى ، والصّبر على بلاء الله. وإنّما أمرهم أوّلا بالاستعانة بالله ، فلأن من عرف أنه لا مدبّر في العالم إلا الله تعالى ، انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنّه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره.

وأمّا اللّذان بشّر بهما ، فالأوّل : وراثة الأرض ، وهذا إطماع من موسى قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه ، وذلك معنى الإرث : وهو جعل الشيء للخلف بعد السّلف.

والثّاني : قوله : ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة الحسنى والمصير الأفضل لكلّ من اتّقى الله تعالى وخافه ، سواء في الدنيا والآخرة ، أما في الدّنيا فهو الفتح والنّصر على الأعداء ، وأمّا في الآخرة فهو نعيم الجنة [1].

ولكن النّفس البشرية تخاف عادة من تهديد صاحب السّلطة ، فخاف بنو إسرائيل ؛ لأنهم كانوا قبل مجيء موسى عليه السلام مستضعفين في يد فرعون ، فكان يأخذ منهم الجزية ، ويستعملهم في الأعمال الشّاقة ، ويمنعهم من التّرفّه والتّنعّم ، ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم. فلما بعث موسى عليه السلام قوي رجاؤهم في زوال تلك المضار والمتاعب ، فلما سمعوا إعادة تهديد فرعون ، عظم خوفهم وحزنهم ، فقالوا : ﴿أُوذِينا مِنْ قَبْلِ ...﴾.

---

(١) تفسير الرّازي : ١٤ / ٢١٢.

أمّا نبيّ الله موسى فأعلن بشارته بإهلاك فرعون ، وقوّى قلوبهم بما وعدهم من خلافة الأرض ، ليتمسّكوا بالصبر ، ويتركوا الضّجر والجزع المذموم ، ثم بيّن بقوله : ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ما يريده من حثّهم على التّمسّك بطاعة الله ، والاستعداد لشكر النّعمة ، وزوال النّقمة. وقد تحقّق الوعد بالإغراق وبأنواع العذاب الآتية في الآيات التّالية.

أنواع عذاب الدّنيا بآل فرعون

الآيات التسع

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣)﴾

الإعراب :

﴿مَهْما تَأْتِنا مَهْما﴾ : اسم شرط ، والدّليل على أنه اسم عود الضمير إليه من قوله تعالى : ﴿تَأْتِنا بِهِ﴾ وهو منصوب بفعل : ﴿تَأْتِنا﴾ على قول من قال : زيدا ضربته ، ويجوز أن يكون في موضع رفع ، على قول من قال : زيد ضربته ، و ﴿تَأْتِنا﴾ : مجزوم بمهما ؛ لأنه شرط ، وجواب الشّرط قوله تعالى : ﴿فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿آياتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ حال منصوب مما قبله من الأشياء المذكورة في قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ...﴾ والعامل : أرسلنا.

البلاغة :

بين ﴿الْحَسَنَةُ﴾ و ﴿سَيِّئَةٌ﴾ طباق.

وبين ﴿طائِرُهُمْ﴾ و ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنا﴾ كثر استعمال الأخذ في العذاب ، كقوله : ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود ١١ / ١٠٢]. ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قومه وخاصته ، وهم الملأ من قومه ، ولا يستعمل الآل إلا فيمن يختص بقرابة مثل : ﴿وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ﴾ [آل عمران ٣ / ٣٣] أو يختصّ بموالاة ومتابعة في الرّأي مثل : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر ٤٠ / ٤٦].

﴿بِالسِّنِينَ﴾ جمع سنة وهي الحول ، لكن كثر استعمالها في حول الجدب والقحط ، كما هنا ، فيكون المراد منها القحط ، بدليل نقص الثّمرات ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون فيؤمنوا. ﴿الْحَسَنَةُ﴾ الخصب والنّماء والرّخاء. ﴿قالُوا : لَنا هذِهِ﴾ أي نستحقها ولم يشكروا عليها. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ جدب أو بلاء في الأنفس والأرزاق. ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ يتشاءموا ويتطايروا ، وأطلق التّطير على التّشاؤم أخذا بعادة العرب في زجر الطّير ، فكانوا يتأمّلون الخير إذا طار الطائر يمينا ويسمّونه (السّائح) ويتوقّعون الشّرّ إذا طار شمالا ، ويسمّونه (البارح). ﴿طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ ما قضي لهم وقدّر ، والمراد به أن شؤمهم : هو عقابهم الموعود به في الآخرة. وعند الله : أي يأتيهم به ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم به من عنده.

﴿الطُّوفانَ﴾ هو ماء دخل بيوتهم ، ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيّام. ﴿الْجَرادَ﴾ طائر معروف يأكل النبات ، وقد أكل زرعهم وثمارهم أيضا. ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ هو السّوس الذي ينخر الحنطة ، وقيل : هو الدّود أو القراد الذي يأكل الزرع ، ويتبع ما أكله الجراد. ﴿وَالضَّفادِعَ﴾ المعروفة ، فملأت بيوتهم وطعامهم. ﴿وَالدَّمَ﴾ هو الرّعاف ، وقيل: هو دمّ كان يحدث في مياه المصريين. ﴿مُفَصَّلاتٍ﴾ بيّنات. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بها.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثّامن من قصّة موسى مع فرعون ، وهو فصل الجزاء والعقاب أو الآيات التي أنزلها الله على فرعون وقومه ، فبعد أن بشّر موسى عليه‌السلام قومه بإنزال العذاب على فرعون وقومه بقوله : ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ

يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ذكر هنا ألوان العذاب قبل حلول عذاب الاستئصال ، للتّحذير والزّجر وتنبيه السّامعين من خطر الكفر والتّكذيب. وأما عذاب الاستئصال فهو إغراق فرعون في اليمّ ونجاة بني إسرائيل.

وقد ذكر الله تعالى في سورة الإسراء أن الآيات أي آيات العقاب تسع ، بقوله : **﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ...﴾** [١٠١].

وذكر هنا سبع آيات ، ويضاف إليها المذكور في سورة يونس ، وهو : **﴿وَقالَ مُوسى : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾** [٨٨] ، والطّمس على الأموال : هو محقها وهلاكها.

وفسّر البيضاوي الآيات التّسع بأنها آيات أرسل بها موسى إلى بني إسرائيل ، وهي أحكام أمروا بالأخذ بها آيات عقاب ، عوقب بها فرعون وجنوده ، وهي : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وانفجار الماء من الحجر ، وفلق البحر ، ونتق الطّور على بني إسرائيل. وقيل : الطّوفان ، والسّنون ، ونقص الثّمرات ؛ مكان الثّلاث الأخيرة.

والواقع أنّ فلق البحر إنّما كان بعد تمام الآيات ، وانبجاس الحجر بالماء إنما كان بعد هلاك فرعون ، فلا يصحّ أن يكون آية لفرعون وقومه. وأمّا العصا واليد فهما معجزتان لموسى عليه‌السلام ، وليستا آيتي عذاب. فيكون في تقديري مجموع الآيات هكذا : السّنون ، نقص الأموال ، نقص الأنفس ، نقص الثّمرات ، الطّوفان ، الجراد ، القمّل ، الضّفادع ، الدّم [١]. سبع منها مذكور هنا في سورة الأعراف ، وواحدة مذكورة في سورة يونس ، كما أبنت ، أمّا نقص الأنفس فهو

---

(١) قصص الأنبياء للنّجار : ص ١٩٨.

ناجم عادة عن الجدب ، ونقص الثّمار ، والطّوفان ، قال مجاهد وعطاء : الطّوفان : الموت.

ومعنى الآيات هنا : ولقد اختبرنا آل فرعون وامتحنّاهم وابتليناهم بسنين الجوع بسبب قلّة الزّروع ، أي في البادية ، وبنقص الثّمرات ، أي في الأمطار ، قال رجاء بن حيوة : «كانت النّخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة» ، ثم قال تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ليتذكّروا ويتّعظوا ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم لآيات الله وعن ظلمهم لبني إسرائيل ، ويؤمنوا بالله ربّا ، ويستجيبوا لدعوة موسى عليه‌السلام ؛ لأنّ من سنّته تعالى أن يرسل الزّواجر تنبيهات ، ودلّت التّجارب على أنّ الشّدائد تليّن النّفوس ، فتكون المصائب والآفات ونقص الثّمرات سببا في رجوع الناس إلى الله تعالى ، فإن عادوا إلى ربّهم واهتدوا كان الخير والرّخاء ، وإن أعرضوا كان القحط والجدب والهلاك المحتوم ، وقد أعرض آل فرعون عن الاستجابة لدعوة موسى بعد أن أنذرهم ، فكانوا من الهالكين.

ثم بيّن الله تعالى أنّ المصائب زادت آل فرعون عتوّا وبغيا ، فقال : ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ...﴾ أي إذا جاءهم الخصب والرّزق وزيادة الثّمار والمواشي قالوا : لنا هذه ، يعني هذا لنا بما نستحقّه من العمل والمعرفة والتّفوّق ، وإن أصابتهم سيئة ، أي جدب وقحط ، تشاءموا بموسى ومن معه ، وقالوا : هذا بسببهم وما جاؤوا به ، وغفلوا عن واجب شكر نعمة الله ، وعن سيئاتهم وفساد أعمالهم وشرور أنفسهم ، كما قال تعالى في حق النّبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم : ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء ٤ / ٧٨].

ثمّ ردّ الله عليهم بقوله : ﴿أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي إن كلّ ما يصيبهم من خير أو شرّ ، فهو بقضاء الله وقدره ، فالله جعل الخير ابتلاء ليعرف الشاكر

من الجاحد ، وجعل الشّر ابتلاء أيضا ليعرف الصابر من الساخط ، وليرجع أهل الغي والفساد عن غيّهم وفسادهم ، ويقلعوا عن طغيانهم وضلالهم. والله تعالى أيضا جعل أعمال العباد سببا لما ينزل بهم من خير وشرّ غالبا. قال الزّمخشري في تفسير ﴿طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ : أي سبب خيرهم وشرّهم عند الله ، وهو حكمه ومشيئته ، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسّيئة ، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ ويجوز أن يكون معناه : ألا إنما سبب شؤمهم عند الله ، وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوؤهم لأجله ، ويعاقبون عليه بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها﴾ [غافر ٤٠ / ٤٦]. (١)

ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله في تصريف الكون ، ولا يعلمون كيفية ارتباط الأسباب بالمسببات ، ولا أن الأمور تجري بالمقادير ، وأنّ كل شيء عنده بمقدار ، فليس الشؤم بسبب موسى وقومه ، وإنما بسبب سوء العمل ، وبمقتضى النظام الإلهي في قانون السّببية المذكور.

وفضلا عن أن كلّا من الحسنات والسيئات لم تذكّرهم بما يجب عليهم نحو ربّهم ، فإنهم تمرّدوا وعتوا ، وعاندوا الحق ، وأصرّوا على الباطل بقولهم لموسى : إن أي آية جئتنا بها ، وأي حجّة ودلالة أظهرتها لنا ، وأثبتها لإقناعنا وصرفنا عما نحن عليه من ديننا ، رددناها ولم نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، ولا نصدّق برسالتك وقولك أبدا.

لذا عاقبهم الله على كفرهم وتكذيبهم وجرائمهم ، فأرسل عليهم الطّوفان : وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار ، كما قال ابن عباس ، فالطّوفان : ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل.

---

(١) الكشاف : ١ / ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

وأرسل عليهم الجراد ، فأكلت كلّ زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء ، حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ، ففزعوا إلى موسى ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام. خرج موسى عليه السلام إلى الفضاء ، فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد إلى النّواحي التي جاء منها ، فقالوا : ما نحن بتاركي ديننا.

فأقاموا شهرا ، فسلّط عليهم القمّل : وهو كبار القراد ، أو السّوس ، فأكل ما أبقاه الجراد ، ولحس الأرض ، أو صغار الذّباب أو البراغيث أو القمل المعروف الذي يلدغ ويمصّ الدّم ، أي أنّه سلّط عليهم بعد الجراد من الآفات الزراعية من صغار الذّر كالدودة ، فأكلت الزّروع واستأصلت كلّ شيء أخضر. ثم فزعوا إلى موسى فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.

فأرسل الله الضّفادع ، فدخلت بيوتهم ، وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم ، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلّم وثبت الضفدع إلى فمه ، وامتلأت منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرّقاد ، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور ، فشكوا إلى موسى ، وقالوا : ارحمنا هذه المرة ، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ، ولا نعود ، فأخذ عليهم العهود ، ودعا فكشف الله عنهم ، ثم نقضوا العهد.

فأرسل الله عليهم الدّم ، أي تحوّلت مياههم إلى دم ، فكانوا إذا ما استقوا من الأنهار والآبار ، وجدوه دما عبيطا ، فشكوا إلى فرعون ، فقال : إنه قد سحركم ، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد ، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء ، وما يلي القبطي دما.

كلّ ذلك آيات مفصّلات أي واضحات بيّنات ظاهرات ، لا يشكل على عاقل أنها من عند الله ، ولا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة ونقمة على كفرهم ، وهي دالّة

على صدق موسى ، إذ قد توعّدهم بوقوع كلّ واحدة منها تفصيلا.

أما فرعون وقومه فظلّوا على عنادهم وكبريائهم فاستكبروا عن عبادة الله ، ولم يتّعظوا ، وكانوا قوما مجرمين في حقّ أنفسهم وغيرهم ، مصرّين على الجرم والذّنب.

فقه الحياة أو الأحكام :

ترشد الآيات في الجملة إلى قانون السّببيّة : وهو ربط الأسباب بالمسبّبات والنتائج على حسب مشيئته تعالى ، وإلى أن ما يتعرّض له الناس من آفات زراعية ومصائب فهو بسبب أعمالهم.

وأما تفصيلا فدلّت الآيات على أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار ، لأجل أن يتركوا العناد والتّمرد ، ويرجعوا إلى الانقياد والعبودية لله ، لأن أحوال الشدّة ترقّق القلب ، وترغّب فيما عند الله ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٧] ، وقال : ﴿وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٥١].

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ليتّعظوا وترقّ قلوبهم ، يدلّ على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكّروا ، لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر.

وأول آية على فرعون وقومه من آيات العقاب : السّنين أي الجدوب ، يقال : أصابتهم سنة أي جدب ، وفي الحديث الثابت : «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنّي يوسف». يروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام ، وقيل : شهر ، وقيل : أربعون يوما.

والثانية : نقص محصول الثّمار وغلاته نقصا شديدا مريعا ، لا يكفي أحدا.

وهذان عقابان ، كلّ منهما أخفّ من أنواع العقاب الأخرى ، بدءا بالتّدرج في العذاب لعلّهم ينزجروا ، ولكن القوم عند نزول تلك المحن عليهم لم يتّعظوا ولم يرعووا ، وإنما أقدموا على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم ، فقال تعالى : ﴿**فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا : لَنا هذِهِ**﴾ الآية.

فهم ينسبون الخير من الخصب والثّمار وسعة الرّزق والعافية والسّلامة والمواشي إلى أنفسهم ، مدّعين أنهم جديرون بذلك ، مستحقّون للإكرام والإنعام ، لتفوّقهم وذكائهم ، وعملهم ومعرفتهم. أمّا الشّر من الجدب والقحط والمرض والضّر والبلاء فهو بسبب موسى وقومه وشؤمهم.

والحقّ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عزّ وجلّ بذنوبهم ، لا من عند موسى وقومه ، ولكنّهم قوم يجهلون هذا المعنى ، فطائرهم عند الله ، أي ما قدّر لهم وعليهم.

أمّا التّطيّر والتّشاؤم فجاء الإسلام بالنّهي عنه عند سماع صوت طائر ما كان ، وعلى أي حال كان ، لأن الواحد من أهل الجاهلية كان كثيرا إذا أراد الحاجة أتى الطّير في وكرها فنفّرها ، فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته ، وهذا هو السّائح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع ، وهذا هو البارح عندهم ، فنهي النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عن هذا بقوله فيما رواه أبو داود والحاكم عن أم كرز : «أقرّوا الطّير على مكناتها» أي بيضها أو على تمكنها فلا تنفّروها. وقال عكرمة : كنت عند ابن عباس ، فمرّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شرّ. وقال عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه أحمد ومسلم عن جابر : «لا طيرة ولا هام».

قال العلماء : وأما أقوال الطّير فلا تعلّق لها بما يجعل دلالة عليه ، ولا لها علم

بكائن ، فضلا عن مستقبل فتخبر به ، ولا في الناس من يعلم منطق الطّير ، إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان ﷺ من ذلك ، فالتحق الطّير بجملة الباطل [١].

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النّبي ﷺ قال : «الطّيرة شرك ـ ثلاثا ـ وما منّا إلا [٢] ، ولكن الله يذهبه بالتّوكل».

واشتدّ تمادى قوم فرعون في عنادهم ، فقالوا لموسى : مهما تأتنا من آية لتصرفنا عما نحن عليه ، فلن نصدق بك. ففي الآية الأولى : ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أسندوا حوادث هذا العالم ، لا إلى قضاء الله تعالى وقدره ، ثم وقعوا بجهالة وضلالة أخرى في الآية الثانية : ﴿وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ وهي أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السّحر ، وجعلوا جملة الآيات الدّالة على صدق موسى مثل انقلاب العصا حيّة من باب السّحر منهم ، وقالوا لموسى : إنّا لا نقبل شيئا منها البتة.

قال ابن عباس : إن القوم لما قالوا لموسى : مهما أتيتنا بآية من ربك ، فهي عندنا من باب السّحر ، ونحن لا نؤمن بها البتة ، وكان موسى عليه‌السلام رجلا حديدا ، فعند ذلك دعا عليهم ، فاستجاب الله له ، فأرسل عليهم الطّوفان الدّائم ليلا ونهارا ، سبتا إلى سبت ، ثم ذكر بقية الآيات الخمسة ، وهي : الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.

أمّا الطّوفان : فهو المطر الشّديد حتى عاموا فيه ، وأمّا الجراد فأكل النّبات ، وأما القمّل فلم يبق في أرضهم عودا أخضر. إلا أكلته ، وأما الضّفادع فخرج من

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٢٢٦.

(٢) قال ابن الأثير : هكذا جاء في الحديث مقطوعا ، ولم يذكر المستثنى ، أي إلا وقد يعتريه التّطيّر ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ، فحذف اختصارا واعتمادا على فهم السّامع. وقوله : «ولكن الله يذهبه بالتّوكل» : معناه أنه إذا خطر له عارض التّطيّر ، فتوكل على الله وسلّم إليه ، ولم يعمل بذلك الخاطر ، غفره الله له ولم يؤاخذه به.

البحر مثل الليل الدّامس ووقع في الثّياب والأطعمة ، فكان الرّجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضّفادع ، وأما الدّم فجرت أنهارهم دما ، فلم يقدروا على الماء العذب. وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطّيّب.

فاشتكوا إلى موسى وفرعون ، فقال فرعون لموسى : ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ..﴾ إلى آخر الآية الآتي بيانها.

وتلك الآيات البيّنات لا يخفي على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره. ومع ذلك استكبروا عن عباده الله وعن الإيمان به وكانوا قوما مجرمين أي مصرّين على الجرم والذّنب.

واختلف العلماء في قتل الجراد إذا حلّ بأرض فأفسد ، فقيل : لا يقتل ، وقال أكثر الفقهاء : يقتل.

احتجّ الأوّلون : بأنه خلق عظيم من خلق الله ، يأكل من رزق الله ولا يجري عليه القلم ، أي لا تبعة عليه ، وبما روى الطبراني والبيهقي عن أبي زهير ، وهو ضعيف : «لا تقتلوا الجراد فإنه من جند الله الأعظم».

واحتجّ الجمهور : بأن في ترك الجراد فساد الأموال ، وقد رخّص النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله ، فالجراد إذا أرادت فساد الأموال ، كانت أولى أن يجوز قتلها. وروى ابن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أنّ النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان إذ دعا على الجراد قال : «اللهم أهلك كباره ، واقتل صغاره ، وأفسد بيضه ، واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا ، إنك سميع الدعاء» ، قال رجل : يا رسول الله ، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ قال : «إن الجراد نثرة [1] الحوت في البحر».

---

(١) النّثرة : شبه العطسة.

وأما أكله فجائز في السّنّة ، ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، كنّا نأكل الجراد معه. وأكله جائز باتّفاق الأمة ، وأنه إذا أخذ حيّا وقطعت رأسه أنه حلال بالاتّفاق ، وذلك بمنزلة الذّكاة (الذّبح). واختلفوا هل يحتاج إلى اصطياد؟ فقال الجمهور : لا يحتاج إلى ذلك ، ويؤكل كيفما مات ، كالحيتان ، لما روى الدارقطني عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «أحلّ لنا ميتتان : الحوت والجراد ، ودمان : الكبد والطّحال».

وذهب مالك إلى أنه لا بدّ للجراد من سبب يموت به ، كقطع رؤوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك ، أو يطرح في النّار ، لأنه عنده من حيوان البرّ ، فميتته محرّمة.

وأما الضّفادع فلا تؤكل إلا في مذهب مالك.

اللجوء إلى موسى لرفع العذاب ونقض العهد وإغراق فرعون وقومه

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٣٦)﴾

الإعراب :

﴿بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ما : مصدرية ، والمعنى : بعهده عندك ، وهو النبوة ، والباء إما أن تتعلق بقوله : ﴿ادْعُ لَنا﴾ أي أسعفنا بالدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة ، وإما أن يكون قسما جوابه : ﴿لَنُؤْمِنَنَ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك لنؤمنن ﴿لَئِنْ﴾ اللام لام القسم.

﴿إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ﴾ : هم بالغوه : جملة اسمية في موضع جر صفة ﴿أَجَلٍ﴾.

﴿إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب ﴿فَلَمَّا كَشَفْنا﴾.

المفردات اللغوية :

﴿الرِّجْزُ﴾ العذاب الشديد الذي يضطرب له الناس في شؤونهم. ﴿بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي من كشف العذاب عنا إن آمنا ، والعهد : النبوة والرسالة ، وكشف العذاب من إكرام الله لنبيه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنا﴾ بدعاء موسى العذاب عنهم لأجل مؤقت. ﴿يَنْكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم. ﴿الْيَمِ﴾ البحر المالح. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿غافِلِينَ﴾ متجاهلين لها لا يتدبرونها.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل التاسع من فصول قصة موسى مع فرعون ، وهو أنه لما نزلت آيات العذاب المتقدمة على فرعون وجماعته الكافرين ، اضطربوا وتضايقوا ، وطلبوا من موسى عليه‌السلام أن يرفع الله عنهم العذاب ، وعاهدوه على الإيمان برسالته إن فعل ، فلما دعا موسى ربه ، فكشف عنهم ، نقضوا العهد ، كل مرة طلبوا فيها ذلك ، حتى استأصلهم الله بالإغراق في البحر.

والمعنى : ولما نزل العذاب الشديد بجماعة فرعون واضطربوا واشتد فزعهم ، طلبوا من موسى أن يدعو ربه بسبب ما عهد عنده من النبوة والرسالة والكرامة والمحبة أن يكشف عنهم ما نزل بهم ، وأقسموا له : ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا﴾ ذلك العذاب لنصدقن برسالتك ، ولنؤمننّ بما جئت به من عند ربك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل إلى أرض الميعاد : فلسطين ، كما طلبت منا ، ليعبدوا ربهم كما شاؤوا.

فلما رفع الله عنهم العقاب وكشف العذاب ، مرة بعد أخرى ، إلى أجل محدود منتهون إليه حتما ، فمعذبون فيه ، وهو الغرق ، إذا هم ينقضون العهد ويحنثون في كل مرة. أي أنا لم نزل عنهم العذاب مطلقا ، بل إنما أزلنا عنهم العذاب إلى أجل معين ، وعند حلول ذلك الأجل لا نرفع عنهم العذاب ، بل نهلكهم به. والدليل أنهم بادروا بعدئذ إلى النكث بالعهد.

وقد روي أنهم كانوا يمكثون في العذاب الواحد من الطوفان والجراد والقمل والضفادع ، وصيرورة مياههم دما فاسدا أسبوعا ، ثم يطلبون من موسى الدعاء برفعه ، ويعدونه بالإيمان بالله تعالى ، ثم ينقضون العهد.

ولما كشف عنهم العذاب من قبل مرات وكرات ، ولم يمتنعوا عن كفرهم وجهلهم ، ثم حان الأجل المؤقت ، انتقم الله منهم ، بأن أهلكهم بالغرق ، بسبب تكذيبهم بآيات الله التي نزلت عليهم كلها ، وكانوا غافلين عما يتبعها من العذاب في الدنيا والآخرة. والمراد بالغفلة هنا : الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها ، فهم أعرضوا عنها ، حتى صاروا كالغافلين عنها.

أغرق الله الكافرين منهم ونجّى المؤمنين الذين كانوا يكتمون إيمانهم ، أغرقهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى ، فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما أصبحوا في وسط البحر ، أطبقه الله عليهم ، فغرقوا عن آخرهم بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمور أربعة :

١ ـ اللجوء إلى موسى عند الشدة والضيق بدافع نداء الإيمان الفطري ، وهذا شأن الناس غالبا لا يجدون في وقت المحنة غير الله ملجأ وملاذا.

٢ ـ سمة جماعة فرعون : تكرار نقض العهود وخلف الوعود ، وتمرير المصالح إلى وقت محدود.

٣ ـ كان الجزاء المحتم لقوم فرعون هو عذاب الاستئصال بالإغراق في البحر.

٤ ـ الواجب في الآيات النظر فيها وتدبرها والتأمل بأسبابها ونتائجها ، ولذلك ذمهم بأن غفلوا عنها ، وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم.

وراثة بني إسرائيل أرض مصر والشام

بعد الفراعنة والعمالقة

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾

الإعراب :

﴿مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا﴾ : منصوب إما على أنه مفعول به لأورثنا ، أي جعلنا ملوك الشام ومصر ، وإما على الظرف ، والعامل : ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾. ﴿الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ : ﴿الَّتِي﴾ إما في موضع نصب على الوصف لمشارق الأرض ومغاربها ، وإما في موضع جر على الوصف للأرض.

والضمير في ﴿فِيها﴾ : إما أن يعود إلى ﴿مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَها﴾ ، وإما أن يعود إلى ﴿الْأَرْضِ﴾ وتقديره : مشارق الأرض التي باركنا فيها ومغاربها. ففصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف على المضاف إلى الموصوف ، وهذا جائز لغة ، كقولك : أكرمت صاحب زيد وجاريته العاقل.

﴿ما كانَ يَصْنَعُ﴾ اسم ﴿كانَ﴾ مضمر فيها ، وهو يعود على ﴿بِما﴾ : و ﴿يَصْنَعُ﴾ : خبرها ، والهاء منه محذوفة ، وتقديره : يصنعه ، وهو عائد على اسم ﴿كانَ﴾ الضمير العائد على :

﴿بِما﴾. وقيل : إن ﴿كانَ﴾ زائدة ، وتقديره : ودمّرنا ما يصنع فرعون ، وقد جاء زيادة : كان في كلامهم ، فقالوا : زيد كان قائم ، أي زيد قائم.

البلاغة :

﴿ما كانَ يَصْنَعُ﴾ و ﴿وَما كانُوا يَعْرِشُونَ﴾ : عدل فيهما عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ، والأصل : ما صنعوا وما عرشوا.

المفردات اللغوية :

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. ﴿مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا﴾ المراد جميع نواحيها أو جهاتها ، والمراد بالأرض : أرض مصر والشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية. ﴿بارَكْنا فِيها﴾ بالماء والشجر والخصب وسعة الأرزاق ، وهي صفة للأرض.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وصلت إلى آخر الحد ، والمعنى : مضت عليهم واستمرت ، من قولك : تم على الأمر : إذا مضى عليه ، وكلمة الله : هي وعده لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض ، في قوله تعالى : ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٩] وقوله : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص ٢٨ / ٥].

﴿بِما صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على أذى عدوهم. ﴿وَدَمَّرْنا﴾ أهلكنا وخربنا ﴿ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ : ما كانوا يعملون ويبنون من العمارات والقصور. ﴿وَما كانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره ، أو ما يرفعون من السقائف والمباني للنبات والشجر المتسلق ، كعرائش العنب ، ومنه : عرش الملك.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل العاشر من قصة موسى مع فرعون ، فبعد أن بيّن الله تعالى جزاء فرعون وملئه من أهل مصر على تكذيبهم بموسى ، بالرغم من توالي الآيات الدالة على صدقه ، وهو جزاء الظالمين ، أبان تعالى جزاء المؤمنين الصابرين من بني إسرائيل ، إذ أصبحوا ملوك مصر والشام بعد الفراعنة والعمالقة.

والمعنى : وأورثنا القوم المستضعفين من بني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم وتعذيبهم واستخدامهم وأخذ الجزية منهم ، أورثناهم أرض مصر والشام التي باركنا فيها بالخصب والنماء ، وسعة الأرزاق والخيرات ، ووفرة الأنهار ، تحقيقا لوعدنا السابق وهو : ﴿نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٥ ـ ٦]. ومشارق الأرض ومغاربها : جهات الشرق والغرب بها ، والمراد بالأرض : أرض مخصوصة ، وهي أرض الشام ومصر ؛ لأنها هي التي كانت تحت سلطة فرعون ، ولوصفها بالبركة ، وذلك لا يليق إلا بأرض الشام ، وقيل : المراد جنس الأرض ؛ لأن داود وسليمان من بني إسرائيل قد ملكا الأرض.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى ..﴾ أي مضت واستمرت ونفذت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل ، بسبب صبرهم على أذى فرعون وملئه ، وما كابدوه من الشدائد منهم ، كما أمرهم موسى : ﴿قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨] وهكذا فإن الصبر مفتاح الفرج. والحسنى : صفة للكلمة ، تأنيث الأحسن. وقيل : معنى تمام الكلمة الحسنى : إنجاز الوعد الذي تقدم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض ؛ لأنه إذا حصل الموعود به ، فقد تم لك الوعد وكمل.

تم وعد الله لهم حينما استقاموا ، ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ، ولم يصدر وعد آخر من الله بالعودة إلى الأراضي المقدسة مرة أخرى.

وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ، وما كانوا يقيمونه من العرائش والسقف في البساتين ، أو يبنونه من القصور الشاهقة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات واردة على سبيل المقارنة والموازنة بين المؤمنين والكافرين ، وجزاء كل منهم ، فلما بيّن الله تعالى إهلاك قوم فرعون معه بالغرق على وجه العقوبة ، بيّن ما فعله بالمؤمنين من الخيرات ، وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم.

لقد أنقذ الله موسى وهارون وبني إسرائيل من ظلم فرعون وقومه ، وكان عبورهم في البحر معجزة خارقة لموسى ، إذ أوحى الله إليه بأن يضرب بعصاه البحر : ﴿فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ، فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٦٣].

وذلك لصموده مع أخيه في وجه الطاغية فرعون ، أكبر ملك في أكبر دولة في الأرض ، استعبدت شعب مصر عدة قرون ، فما زالا يجادلانه بالحجج والبينات ، حتى نصرهما الله ، وهكذا فلا تستعظم قوة أي دولة كبري أمام قوة الحق ، ويفعل الإيمان القوي في القلب المليء باليقين ما لا تفعله قوى الشر المتكاثرة ، وهكذا يتصدى موسى وأخوه هارون لعدو الله ، وقومهما أذلة مستضعفون ، وفرعون مصر صاحب السلطة والمال والجند والأتباع ، ثم ينتصر الضعفاء ، ويتلاشى الأقوياء : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣] ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ٣٧].

جحود بني إسرائيل نعم الله عليهم

﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾

الإعراب :

﴿كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ما : اسم موصول بمعنى الذي ، و ﴿لَهُمْ﴾ : صلته ، والعائد الضمير في ﴿لَهُمْ﴾. و ﴿آلِهَةٌ﴾ : مرفوع إما على أنه بدل من الضمير المرفوع في ﴿لَهُمْ﴾ ، وإما على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : هي الهة ، وإما على أنه مرفوع ب ﴿لَهُمْ﴾ على تقدير : كما استقر لهم آلهة. ﴿ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ : ﴿كانُوا﴾ : صلة زائدة.

﴿أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً﴾ تقديره : أبغي لكم إلها غير الله ، و ﴿غَيْرَ اللهِ﴾ : منصوب على الحال : لأن صفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصب على الحال.

البلاغة :

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أتى بالمضارع بدل الماضي إشعارا بأن ذلك منهم بمثابة الطبع الملازم لهم ، لا يتخلون عنه ولو في المستقبل.

المفردات اللغوية :

﴿وَجاوَزْنا﴾ عبرنا ، يقال : جاز الشيء وجاوره وتجاوزه : انتقل عنه ﴿فَأَتَوْا﴾ فمروا. ﴿يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ﴾ يقيمون على عبادتها. والأصنام : جمع صنم ، وهو ما يصنع من خشب أو حجر أو معدن مثالا لشيء حقيقي أو خيالي ، بقصد تعظيمه تعظيم العبادة ، وهو شرك. أما

التمثال : فلا بد أن يكون مثالا لشيء حقيقي ، فإن عبد فهو صنم. وقد يتخذ التمثال للزينة كالمتخذ على جدران الأبنية أو في مداخل الجسور ، وقد يكون التمثال لتذكر سيرة بعض القادة بقصد التعظيم غير الديني ، كتماثيل بعض الزعماء والعلماء في الساحات العامة.

﴿اجْعَلْ لَنا إِلهاً﴾ صنما نعبده. ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ حيث قابلتم نعمة الله عليكم بما قلتموه. ﴿مُتَبَّرٌ﴾ هالك ، والتتبير : الإهلاك والتدمير. ﴿وَباطِلٌ﴾ زائل لا بقاء له. ﴿أَبْغِيكُمْ إِلهاً﴾ مثل أبتغيكم : أي أطلب لكم.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أنواع نعمه على بني إسرائيل ، بأن أهلك عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، أتبع ذلك بالنعمة العظمى : وهي أن الله جاوز بهم البحر مع السلامة. وهذا تكملة الفصل العاشر من قصة موسى مع فرعون.

ثم ارتدوا وجهلوا وطلبوا من موسى عبادة الأصنام. وفي هذا تسلية للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عما رآه من يهود المدينة ، فقد فعلوا ما هو أعظم مع نبيهم موسى عليه‌السلام. وفي بيان ذلك تذكير للمؤمنين أن يشكروا نعمة الله ، وألا يكونوا مثل بني إسرائيل.

التفسير والبيان :

أنقذ الله بني إسرائيل من كيد فرعون وملئه ، فعبروا البحر آمنين بالسير في أرضه دون سفن ، بعد أن أوحى الله لنبيه موسى بضرب البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، ثم أغرق الله فرعون وقومه حينما لحقوا بهم ، وفي وسط البحر أطبق عليهم الماء ، كما وصف تعالى هذا الحادث العجيب بقوله : ﴿فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٦٣ ـ ٦٧].

وبعد أن جاوز بنو إسرائيل البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ، وشاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده ، وخصهم بالنجاة والسلامة ، كانوا في غاية الجهالة والضلالة وجحود النعمة ، إذ طلبوا من موسى اتخاذ إله من الأصنام ، تأثرا بما رأوه من بعض العرب أو من غيرهم يعبدون الأصنام ويعظموها ويلازموها ويقبلون عليها ، وتشبها بالمصريين الذين كانوا يعبدون التماثيل. وكأنهم لم يدركوا معنى التوحيد الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام .

أما القوم الذين رأوهم فهم من الكنعانيين (وهم الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم) وقيل : كانوا من لخم. قال الطبري : وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعدئذ.

فقالوا : ﴿يا مُوسَى ، اجْعَلْ لَنا إِلٰهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ، أي اجعل لنا صنما نعكف عليه ونلازمه ، ﴿كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها ، والمراد أنهم طلبوا منه أن يعين لهم أصناما. وهذا يدل على تأثرهم بالبيئة المصرية وحنينهم لها ، وعلى نزعتهم المادية بتجسيد الإله في صورة معدن أو حجر.

فأجابهم موسى تعجبا من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى ، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع ، فإنهم جهلوا مقام التوحيد ، وما يجب من إفراد الله بالعبادة بلا واسطة من إنسان أو مادة ، جهلوا عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

واتخاذ الواسطة إلى الله بهذه الأصنام كفر ؛ فقد أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلها للعالم ، أو اعتقدوا أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى ؛ لأن العبادة نهاية التعظيم ،

ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام والإكرام (١).

وهذه طريقة السذّج والجهلة ، وقد حدث في عهد النبي ﷺ مثل ذلك ، روى أحمد والنسائي عن أبي واقد الليثي قال : «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة ، فقلت : يا رسول الله ، اجعل لنا هذه ذات أنواط (٢) ، كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ، ويعكفون حولها ، فقال : الله أكبر ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ، إنكم تركبون سنن من قبلكم».

وتتمة ردّ موسى : إن هؤلاء يعني عبدة تلك التماثيل مدمّر مكسّر ما هم فيه ، وزائل ما كانوا يعملون من عبادتها فيما سلف ، فكل ما عملوه مضمحل الأثر ، لا ينتفعون به ، بل يعاقبون عليه ، وإن كان في زعمهم تقربا إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٣].

وفي عبارة القرآن : ﴿إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ﴾ إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك ، وأن عملهم إلى زوال ، وهذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض.

ثم قال لهم موسى : أغير الله خالق السموات والأرض المنعم عليكم بهذه النعم أطلب لكم معبودا؟ وهو الذي ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ ، أي عالمي زمانهم بالتوحيد وهداية الدين وتجديد ملة إبراهيم عليه‌السلام .

ثمّ ذكّرهم موسى عليه‌السلام نعم الله العظمى عليهم ، من إنقاذهم من أسر

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٢٢٣.

(٢) كان للكفار سدرة أي شجرة السدر ، يعكفون عندها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط.

فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزّة والسيادة وخلافة الملك والسلطان ، والاشتفاء أو الانتقام من عدوهم والنظر إليه وقت هلاكه وغرقه ودماره ، بعد أن كان يسومكم سوء العذاب ، بتقتيل أبنائكم ، وترك نسائكم أحياء ، وتسخيركم للخدمة. وفي ذلكم المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله ، والإنعام عليكم بهذه النعم بلاء عظيم ، أي أن النعمة أو المحنة اختبار مهم جدا ، فأنتم أجدر الناس بعبادة ربكم الذي منحكم نعمة الحياة والإنقاذ والعزة ، وأولى من غيركم بشكر تلك النعم الجليلة ، وهل هناك عجب أشد من هذا العجب أن تطلبوا جعل آلهة مزيفة عاجزة خسيسة ضعيفة واسطة بينكم وبين الله الذي فضلكم عليها وعلى من يعبدونها.

والمراد بقوله : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ﴾ أي اذكروا ذلك الوقت ، والقصد ذكر ما حصل فيه ، حتى يشكروا الله عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى : ﴿وَجاوَزْنا﴾ على جهالة بني إسرائيل بحقيقة التوحيد الذي جاء موسى عليه‌السلام من أجل إرشادهم إليه ، فقد طلبوا منه أن يعين لهم أصناما وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، وهذا تماما مشابه لفعل عبدة الأوثان حيث قالوا : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ [الزمر ٣٩ / ٣]. قال قتادة : كان أولئك القوم من لخم ، وكانوا نزولا بالرّقة. وقيل : كانت أصنامهم تماثيل بقر ؛ ولهذا أخرج لهم السامري عجلا.

ونظيره قول جهال الأعراب في عصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى «ذات أنواط» [١] يعظمونها في كل سنة يوما : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام ـ كما

---

(١) ينوطون بها سلاحهم ، أي يعلقونه.

تقدم ـ : «الله أكبر ، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : ﴿اجْعَلْ لَنا إِلهاً ، كَما لَهُمْ آلِهَةٌ ، قالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ، لتركبنّ سنن من قبلكم حذو القذّة [1] بالقذّة ، حتى إنهم لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه» وكان هذا في مخرجه إلى حنين.

وإن طلب إله آخر هو في غاية الجهل ؛ لأن المعبود المستحق للعبادة والتعظيم هو القادر على خلق الأجساد والحياة والقدرة والعقل ، وخلق الأشياء المنتفع بها ، ولا يقدر على ذلك غير الله تعالى ، فلا تليق العبادة إلا به.

ودلت آية : ﴿إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ﴾ على أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك ، وأن عملهم إلى زوال ، وأن عهد الوثنية من الأرض سينتهي ، لمناقضته العقل والفطرة.

وقد ندد موسى عليه‌السلام بطلب بني إسرائيل من نواح أربع :

أولها ـ أنه حكم عليهم بالجهل ، فقال : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وثانيها ـ أنه قال : ﴿إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ﴾ أي سبب للخسران والهلاك.

وثالثها ـ أنه قال : ﴿وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هذا العمل الشاق لا يفيدهم نفعا في الدنيا والدين.

ورابعها ـ التعجب منهم على وجه يوجب الإنكار والتوبيخ فقال : ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ أي أن الإله ليس شيئا يطلب ويلتمس ويتخذ ، بل الإله هو الله الذي يكون قادرا على الإنعام بالإيجاد وإعطاء الحياة

---

(١) القذّة : ريش السهم ، قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.

وجميع النعم ، وهو المراد من قوله : ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم.

ومن المعروف أن بني إسرائيل يجحدون نعم الإله عليهم ، فالله أنعم عليهم بتفضيلهم على عالمي زمانهم ، وهي نعمة عظيمة ، فكيف يليق بهم الاشتغال بعبادة غير الله تعالى؟!

وأنعم عليهم بالعزة بعد الذلة ، وبالسلطان والحكم والخلافة في الأرض بعد العبودية والاستعمار والتبعة ، وبالنجاة من ظلم فرعون الذي كان يقتل أبناءهم ويبقي نساءهم أحياء. والخطاب وإن كان ليهود عصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فهو تذكير لهم بإنجاء أسلافهم.

مناجاة موسى لربه

أو مكالمة موسى ربه وطلبه رؤية الله وإنزال التوراة عليه

﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (١٤٥)﴾

الإعراب :

﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ أي تمام ثلاثين ليلة ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، وهو في موضع المفعول الثاني لواعدنا. ولا يجوز أن يكون ﴿ثَلاثِينَ﴾ منصوبا على الظرف ؛ لأن الوعد لم يكن في الثلاثين.

و ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ : حال ، كأنه قال : فتم ميقات ربه معدودا أربعين ليلة ، وليلة : تمييز.

و ﴿هارُونَ﴾ مجرور على البدل من ﴿لِأَخِيهِ﴾ أو على عطف البيان.

﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ إما منصوب على المصدر من : دككت الأرض دكّا ، إذا جعلتها مستوية.

وإما أن يكون منصوبا على المفعول ، وفيه حذف مضاف ؛ لأن الفعل الذي قبله ليس من لفظه وهو «جعل» وتقديره : فجعله ذا دكّ ، أي ذا استواء.

﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور قبله وهو ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

البلاغة :

﴿سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ﴾ فيه التفات من الغيبة أي (سأريهم) إلى الخطاب ، للمبالغة في الحض على انتهاج طريق الصالحين.

المفردات اللغوية :

﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدناه بأن نكلمه عند انتهائها ، وبعد أن يصومها ، وهي ذو القعدة ، فصامها ، فلما تمت أنكر خلوف ـ رائحة ـ فمه ، فاستاك ، فأمره الله بعشرة أخرى ، ليكلمه ، بسبب إزالة خلوف فمه ﴿وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة. ﴿فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ﴾ وقت وعده بكلامه إياه ، والميقات : ما قدر فيه عمل من الأعمال ، كمواقيت الصلاة والصوم والحج. أما

الوقت : فهو وقت للشيء قدر فيه عمل أو لم يقدر. ﴿وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ﴾ عند ذهابه للجبل للمناجاة ﴿اخْلُفْنِي﴾ كن خليفتي ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمرهم ﴿وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بموافقتهم على المعاصي.

﴿وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا﴾ أي للوقت الذي وعدناه للكلام فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة كلاما سمعه من كل جهة ﴿لَنْ تَرانِي﴾ لن تقدر على رؤيتي ، والتعبير به دون (لن أرى) يفيد إمكان رؤيته تعالى.

﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾ ثبت ﴿فَسَوْفَ تَرانِي﴾ أي تثبت لرؤيتي ، وإلا فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ انكشف وظهر نوره ، قدر نصف أنملة الخنصر ، كما في حديث صححه الحاكم ﴿دَكًّا﴾ مدكوكا مستويا بالأرض ﴿صَعِقاً﴾ مصعوقا مغشيا عليه لهول ما رأى ﴿أَفاقَ﴾ عاد إليه رشده وعقله وفهمه ﴿سُبْحانَكَ﴾ تنزيها لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤال ما لم أؤمر به ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في زماني.

﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أهل زمانك ﴿وَبِكَلامِي﴾ أي تكليمي إياك ﴿فَخُذْ ما آتَيْتُكَ﴾ من الفضل ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لأنعمي ﴿الْأَلْواحِ﴾ أي ألواح التوراة ، وكانت سبعة أو عشرة ، وهي من سدر الجنة ، أو زبرجد أو زمرّد ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ تبيينا ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد وعزيمة واجتهاد ﴿سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ﴾ فرعون وأتباعه ، وهي مصر ، لتعتبروا بها.

المناسبة :

بعد أن عدد الله تعالى طائفة من النعم على بني إسرائيل ، كإنجائهم من عبودية فرعون ، وجعلهم أمة مستقلة ، ذكر هنا كيفية نزول التوراة على موسى ، التي هي دستور حياتهم ، وتبيان شريعتهم والأحكام التي أمر ربهم بها.

وسبب الآيات : هو ما روي أن موسى عليه‌السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر : إن أهلك الله عدوهم ، أتاهم بكتاب من عند الله ، فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فهذه الآيات في بيان كيفية نزول التوراة [1].

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٢٢٦.

وموضوع الآيات : تحديد موعد لموسى لمكالمة ربه ، واستخلاف هارون على بني إسرائيل في غياب موسى ، وطلب موسى رؤية الله عَزَّوَجَلَّ ، وإنزال التوراة المتضمنة أصول الشريعة.

التفسير والبيان :

امتن الله على بني إسرائيل بما ظفروا به من الهداية ، بتكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم.

والمعنى : وعد الله تعالى موسى مكالمته ، في تمام ثلاثين ليلة ، وأمره بصومها ، فصامها ، وهي شهر ذي القعدة ، فلما تمت أنكر موسى رائحة فمه ، فاستاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل صيام عشرة أيام أخرى من ذي الحجة ، وأن يلقى الله صائما ، فأصبح موعد اللقاء في تمام أربعين ليلة ، ذكرت في سورة البقرة مجملة ، وفصلت هنا.

وإنما قال : ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إزالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين : لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين ، كأنه كان عشرين ، ثم أتمه بعشر ، فصار ثلاثين ، فأزال هذا الإيهام (١).

روي عن أبي العالية أنه قال في بيان زمان الموعد : يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة ، فمكث على الطور ليلة ، وأنزل عليه التوراة في الألواح ، فقرّبه الرب نجيا ، وكلمه وسمع صريف القلم.

قال ابن كثير : فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وفيه أكمل الله الدين لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، كما قال تعالى :

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٢٢٦ ، أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٤.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة ٥ / ٣] (١).

وقال موسى حين أراد الذهاب إلى الطور لميقات ربه لأخيه هارون الأكبر منه سنا : كن خليفتي في القوم مدة غيابي ، وأصلح أمر دينهم ، ولا تتبع سبيل أهل الفساد والضلال ، وهو يشمل مشاركتهم في أعمالهم الفاسدة. وهذا تنبيه وتذكير وتأكيد ، وإلا فهارون عليه‌السلام نبي شريف كريم على الله.

وكان هارون وزيرا لموسى بسؤاله ربه : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه ٢٠ / ٢٩ ـ ٣٢]. وكانت الرياسة في بني إسرائيل لموسى عليه‌السلام.

ولما جاء موسى لميقات الله تعالى المحدد له للكلام مع ربه وإعطائه الشريعة ، وكلمه ربه بلا واسطة كلاما سمعه من كل جهة وسمعه السبعون المختارون للميقات ، رغب في الجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية ، فقال : أرني ذاتك المقدسة ، وقوّني على النظر إليك ، فقال الله له : لن تراني الآن ولا في المستقبل في الدنيا ؛ إذ ليس لبشر القدرة على النظر إلى في الدنيا ، لقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فيما رواه مسلم : «حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ـ أنواره ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه».

ثم أبان له أنه لا يطيق الرؤية فقال مستدركا : ولكن انظر إلى الجبل ، فإن ثبت مكانه عند التجلي الأعظم عليه ، فسوف تراني. وإذا كان الجبل في قوته وثباته لم يستطع أن يثبت ، فكيف أنت يا موسى؟

فلما تجلى ربه للجبل ، وما تجلى منه إلا قدر الخنصر ، جعله ترابا مدكوكا ، وخرّ ـ سقط ـ موسى مغشيا عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٤٣.

فلما أفاق من إغماءته وغشيانه أو صعقته ، قال : سبحانك ، أي تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراك أحد في الدنيا إلا مات.

إني تبت إليك من طلب الرؤية أي أن أسألك الرؤية ، وأنا أول المؤمنين في زماني من بني إسرائيل بعظمتك وجلالك ، وفي رواية عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

ثم طيب الله خاطره وأبان له مكانته ، فقال له : يا موسى إني اخترتك على ناس زمانك وآثرتك عليهم بتكليمي إياك وبإعطائك رسالاتي المتنوعة ، فخذ ما أعطيتك من الشريعة وهي التوراة ، وكن من جماعة الشاكرين نعمي ، المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك.

﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الموعظة : تشمل كل ما يوجب الرغبة في الطاعة والنفرة من المعصية ، والتفصيل : بيان أقسام الأحكام ، أي وأعطيناه ألواحا كتبنا له فيها أنواع الهداية والمواعظ المؤثرة ، والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام وأصول العقيدة والآداب ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة ، وهي أول ما أوتيه من التشريع.

﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ﴾ أي فقلنا له : خذها عطفا على ﴿كَتَبْنا﴾ أي فخذها بقوة وجد وعزيمة ، أي وعزم على الطاعة ونية صادقة ، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها﴾ ، أي يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي ، ويتدبروا الأمثال والمواعظ. ومعنى ﴿بِأَحْسَنِها﴾ أي بحسنها وكلها حسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر ، فليأخذوا بما فيه الحسن والصواب ، كقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر ٣٩ / ٥٥].

﴿سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي ، وكيف يصير إلى الهلاك والدمار.

قيل : أراد بها مصر ، أي سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية منهم.

وقال قتادة : سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها ؛ يعني الشام وأهل الشام ، أي منازل عاد وثمود والشعوب التي أهلكها الله بسبب الفسق ، وتمرون عليها في أسفاركم. قال ابن كثير : وهذا هو الأولى ؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه.

وإذا كان المراد مصر فإن الله تعالى لما أغرق فرعون ، أوحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل ، ففعل ؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل ، فأراهم هلاك الفاسقين. وهذا رأي أكثر المفسرين.

قال ابن جرير الطبري : وإنما قال : ﴿سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غدا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري ، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. أي أن في آية ﴿سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ﴾ وجهين : إما التهديد الوعيد على مخالفة أمر الله تعالى ، وإما الاعتبار بمن أهلكهم الله ، وهم إما فرعون وجنوده ، وإما منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ تعظيما لشأن الميقات أو الموعد بتكليم الله أمر الله موسى أن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها ما يقربه إلى الله تعالى ، ثم أنزلت التوراة عليه في العشر البواقي في رأي ، أو أنه أزال خلوف فمه بنهاية صوم الثلاثين يوما وهو شهر ذي القعدة في رأي الكثيرين ، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة. فهذا هو فائدة تفصيل الأربعين إلى الثلاثين وإلى العشرة.

٢ ـ إنه تعالى كلّم موسى عليه السلام ، وكلام الله تعالى في قول أكثر أهل السنة والجماعة صفة أزلية قديمة ، مغايرة للحروف والأصوات ، فليس كلام الله حرفا ولا صوتا ، وقد سمع موسى عليه السلام تلك الصفة الحقيقية الأزلية التي ليست بحرف ولا صوت ، وإلا كان كلامه محدثا.

٣ ـ قد سمع السبعون المختارون للميقات أيضا كلام الله تعالى ؛ لأن الغرض بإحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك ، وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكلام ، ثم إن حادثة التكليم معجزة لموسى ، فلا بد من اطلاع غيره عليها.

٤ ـ أنزل الله تعالى على موسى في هذه المكالمة الألواح وفيها التوراة المشتملة على أصول العقيدة والأخلاق والآداب والشريعة والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام ، عن مقاتل : كتب في الألواح : «إني أنا الله الرحمن الرحيم ، لا تشركوا بي شيئا ، ولا تقطعوا السبيل ، ولا تحلفوا باسمي كاذبين ، فإن من حلف باسمي كاذبا ، فلا أزكيه ، ولا تقتلوا ، ولا تزنوا ، ولا تعقّوا الوالدين».

٥ ـ يجب تلقي الشريعة بحزم وجد وعزم على الطاعة وتنفيذ ما ورد فيها من الصلاح والإصلاح ومنع الفساد والإفساد ، وتكوين الأمة تكوينا جديدا. والأخذ بأحسن ما في التوراة وكل ما فيها حسن وهو الأخذ بالفرائض والنوافل ، دون المباح الذي لا حمد فيه ولا ثواب [1].

٦ ـ اعتز شعب إسرائيل حين أقام شريعته ، فلما غلب عليه الغرور ، وظن أنه شعب الله المختار ، وظلم وفسق ، سلط الله عليه البابليين ، فأزالوا ملكه ، ثم تاب فعاد إليه بعض ملكه ، ثم ظلم وأفسد ، فسلط عليه النصارى ، فهزموه وشتتوه.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٥.

وكذلك المسلمون لما عصوا كتاب ربهم وأهملوه ، سلط الله عليهم الأعداء من كل جانب ، فأفسدوا أفكارهم وعقيدتهم وأخلاقهم ، وأوقعوا الشقاق والنزاع بينهم.

والخلاصة : أن الأمة تكون عزيزة الجانب مرهوبة ما دامت متمسكة بدينها ، فإذا أهملته انهارت وضاعت ولا يغترن أحد بدول أوربا وأمريكا وروسيا واليهود ، فإن ذلك لأجل محدود ، ولحكمة يعلمها الله تعالى.

٧ ـ الآراء في رؤية الله عزّوجلّ : استدل المعتزلة بهذه الآية : ﴿لَنْ تَرانِي﴾ وبقوله تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٠٣] على نفي رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وما كان طلب موسى عليه‌السلام الرؤية إلا تبكيت السفهاء الذين طلبوا الرؤية ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله بامتناع ذلك.

وأثبت أهل السنة إمكان رؤية الله في الآخرة ، بقوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ [القيامة ٧٥ / ٢٢ ـ ٢٣] وبالأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، ومنها : ما أخرجه أحمد والشيخان وأصحاب السنن الأربعة عن جرير أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «إنكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ...» ومنها ما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» وهي المعبر عنها بقولهم : إنها رؤية بلا كيف.

أما الآية هنا : ﴿لَنْ تَرانِي﴾ فتدل على أنه تعالى جائز الرؤية ؛ لأنه تعالى لو كان مستحيل الرؤية لقال : لا أرى ؛ ولأنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز وهو استقرار الجبل ، وما علق على جائز الوجود فهو جائز ؛ ولأن موسى عليه

السلام سأل الرؤية ، ولا يسأل إلا الجائز ، فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها ، وحيث سألها ، علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى.

ثم إن التجلي في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ هو إما ظهور بالرؤية أو الدلالة ، وبما أن الرؤية غير مقدورة للإنسان ، فكان المراد ظهور آياته التي أحدثها لحاضري الجبل ، أي أن المقصود تقرير أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى ، بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى اندك وتفرقت أجزاؤه.

وفي نهاية الحادثة تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية ، وكأنه قال له : إن كنت قد منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا ، فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية. وهذا أيضا يدل على أن الرؤية جائزة على الله تعالى [١].

عقوبة التكبر والكفر بصرف المتكبرين عن فهم أدلة العظمة الإلهية

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٢٢٩ ـ ٢٣٥ ، أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٤ ـ ٣٥.

الإعراب :

﴿بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ فيه وجهان : أن يكون حالا ، بمعنى يتكبرون غير محقين ؛ لأن التكبر بالحق لله وحده ، وأن يكون صلة لفعل التكبر ، أي يتكبرون بما ليس بحق.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ ذلِكَ﴾ : في محل الرفع مبتدأ ، على معنى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو في محل النصب ، على معنى : صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

﴿وَلِقاءِ الْآخِرَةِ﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به ، أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ، أو من إضافة المصدر إلى الظرف ، بمعنى ولقاء ما وعد الله في الآخرة.

المفردات اللغوية :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم ، ومنعهم فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ، فلا يفكرون فيها ، ويتكبرون عن طاعتي. وآياتي : دلائل قدرتي من المصنوعات وغيرها ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي يتكبرون عن طاعتي ، ويتكبرون على الناس بغير حق. والتكبر : غمط الحق بعدم الخضوع له ، مع احتقار الناس غالبا. ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ﴾ طريق ﴿الرُّشْدِ﴾ الهدى الذي جاء من عند الله ، والصلاح والاستقامة ، وضده الغي والسفه ، والرّشد والرّشد في اللغة : أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضد الخيبة.

﴿الغَيِ﴾ الضلال ﴿ذلِكَ﴾ الصرف ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ أي الآيات المنزلة من عندنا المشتملة على الهدى وتزكية النفوس. فالآيات هنا غير الآيات الأولى التي هي الدلائل والبينات.

﴿وَلِقاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمالُهُمْ﴾ ما عملوه في الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة ، فلا ثواب لهم لانعدام شرط القبول وهو الإيمان.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما يجزون إلا جزاء عملهم من التكذيب والمعاصي.

المناسبة :

هذه الآيات تتحدث عن طبائع المتكبرين القدامى والمعاصرين ، فبعد أن بيّن الله تعالى ما لحق بفرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه ، ذكر أن امتناع قريش عن الإيمان إنما هو بسبب التكبر أيضا ، وهذا يدل على أن منشأ

الإعراض عن الإيمان والإصرار عن الكفر هو التكبر ، والكبر يصرف الإنسان عادة عن النظر في الحق ويؤدي إلى التكذيب به ، ويجعل المتكبر غافلا عن آيات الله الدالة عليه.

التفسير والبيان :

سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتي والمتكبرين على الناس بغير حق من فهم الدلائل الدالة على عظمتي وشريعتي ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف ٦١ / ٥]. والمراد بآياتي هنا : الأدلة والبينات.

وهذا خطاب شامل كل أمة وفرد ، مثل فرعون وقومه الذين منعهم الله من فهم آيات موسى ، وقد يفهمون بعض الآيات ويجحدونها غرورا وتعاليا وتكبرا مثل قوم فرعون الذين قال الله فيهم : ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ [النمل ٢٧ / ١٤] ومثل كفار قريش الذين حجبهم الكبر عن النظر في الآيات مع يقينهم بصدق محمد.

هؤلاء المتكبرون من صفاتهم أولا ـ أنهم لا يؤمنون بأي آية تدل على الحق وتثبته ؛ إذ لا تفيد الآيات إلا من كان مستعدا للفهم وقبول الحق ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٦ ـ ٩٧].

وثانيا ـ أنهم يبتعدون عن طريق الهدى والرشاد ، وهي الطريق الممهدة المؤدية إلى النجاة ، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يسلكها ويسلك غيرها ، وهذا عن تعمد وعناد ، وقد يكون بعضهم عن جهل ، وحكم الفريقين واحد.

وثالثا ـ أنهم إذا ظهر لهم سبيل الغي والضلال والفساد ، بادروا إليه مسرعين ، بما تزينه لهم أهواؤهم ونفوسهم الأمارة بالسوء ، وهذا سلوك شر مما سبقه.

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بعلة ثابتة وهي تكذيبهم بآيات الله المنزلة على رسله ، وغفلتهم عن النظر بما فيها ، وإعراضهم عن العمل بها.

ومجمل حال هؤلاء المتكبرين أن الله لم يخلقهم مطبوعين على الكفر والضلال ، ولم يجبرهم عليه ، بل حدث ذلك باختيارهم ؛ إذ أنهم كذبوا بالآيات ، وانغمسوا بأهوائهم وشهواتهم في بؤر الضلال والانحراف ، وحجبوا أفهامهم عن إدراك الحق والهدى وسلوك سبيل السعادة والنجاة ، فهم كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٩].

ثم أوضح الله تعالى مآل ما قد يعملونه من أعمال خيّرة في الدنيا : وهو إحباطها وإبطالها وتلاشي آثارها ، وعدم ترتيب الثواب عليها ، فقال : والذين كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا ، ولم يؤمنوا بها ، ولم يصدقوا بالآخرة والبعث وما فيه من جزاء على الأعمال ثوابا على الخير وعقابا على الشر ، واستمروا على وضعهم هذا إلى الممات ، بطلت أعمالهم ، وذهبت سدى ، لفقد شرط القبول وهو الإيمان ، ولأن من سنته تعالى جعل الجزاء في الآخرة بحسب أعمالهم التي أسلفوها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وكما تدين تدان.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه أحوال المتكبرين عن طاعة الله وعلى الناس ، الظانين أنهم أفضل الخلق ، وهو ظن باطل ، لقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فلا يتبعون نبيا ، ولا يصغون إليه لتكبرهم.

يصرفهم الله تعالى عن التفكير في آيات الله الدالة على عظمته وشريعته

وأحكامه ، بالطبع على قلوبهم ، وإلقاء الغفلة على نفوسهم ، وشغلهم بأهوائهم وشهواتهم ، وهم في تركهم تدبر الحق كالغافلين عنه.

إنهم يمنعون في معاداة الأنبياء ، ويكذبون بالآيات المنزلة على الرسل ، وينكرون وجود الآخرة ، ولا يصدقون بكل آية ، ويتركون طريق الرشاد ، ويتبعون سبيل الغي والضلال ، أي يتخذون الكفر دينا.

واحتج أهل السنة بآية ﴿سَأَصْرِفُ﴾ على أنه تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصد عنه.

وقالت المعتزلة : لا يمكن حمل الآية على ذلك ، فليس المراد منها صرفهم عن الإيمان بآيات الله ولا خلق الكفر فيهم ؛ لأن قوله : ﴿سَأَصْرِفُ﴾ يتناول المستقبل ، والكفر حدث منهم في الماضي ، مما يدل على أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر بالله ، وإنما المراد العقوبة على التكبر والكفر.

ولأنه لو صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه ، فكيف يمكن أن يقول مع ذلك : ﴿فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾؟ ﴿فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾؟ [الانشقاق ٨٤ / ٢٠ ، المدثر ٧٤ / ٤٩ ، الإسراء ١٧ / ٩٤] (١).

ودل قوله تعالى : ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على أن الجزاء من جنس العمل ، فمن آمن وعمل الصالحات فله الجنة ، ومن كفر وعمل السيئات فله النار.

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ٢٠٣.

قصة اتخاذ السامري العجل

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (١٤٩)﴾

الإعراب :

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بفعل ﴿وَاتَّخَذَ﴾ والحلي : جمع حلي ، وأصله حلوي على فعول ، نحو فلس وفلوس ، فاجتمعت الواو والياء ، والسابق منهما ساكن ، فقلبوا الواو ياء ، وجعلوهما ياء مشددة. ومفعول (اتخذ) الثاني محذوف أي إلها.

البلاغة :

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن شدة الندم ؛ لأن النادم يعض على يده عادة ألما وحزنا. قال في (تاج العروس) : هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب. وذكرت اليد ؛ لأن الندم يحدث في القلب ، وأثره يظهر فيها بالعضّ أو بالضرب بها على اليد الأخرى ، كما قال سبحانه في النادم : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها﴾ [الكهف ١٨ / ٤٢].

المفردات اللغوية :

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد ذهابه إلى جبل الطور للمناجاة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم لعرس فبقي عندهم ، والحلي : ما يتخذ للحلية من ذهب أو فضة ﴿عِجْلاً﴾ صنع لهم السامري عجلا من الحلي بعد إذابته ، والعجل : ولد البقرة كالمهر لولد الفرس ، والحوار لولد الناقة ﴿جَسَداً﴾ جسما ﴿لَهُ خُوارٌ﴾ صوت يسمع ، بوضع التراب الذي أخذه من حافر فرس جبريل في فمه. والخوار : صوت البقر كالرّغاء لصوت الإبل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلها ﴿وَكانُوا ظالِمِينَ﴾ باتخاذه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ندموا على عبادته ﴿وَرَأَوْا﴾ علموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بها بعد رجوع موسى.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة مناجاة موسى لربه وإنزال التوراة عليه ، ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه على يد السامري عجلا مصوغا من الحلي (الذهب والفضة) تقليدا للمصريين في عهد الفراعنة الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من شمس وغيرها ، ثم عبدوه من دون الله.

وهذا هو الفصل الأول من قصة عبادة العجل.

التفسير والبيان :

اتخذ بنو إسرائيل بعد خروج موسى إلى جبل الطور ، لمناجاة ربه ، على حسب الموعد الذي وعده الله به ، اتخذوا من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم ، ﴿عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ ، أي تمثالا بصورة العجل وصوته ، ثم عبدوه.

وكان بقاء حلي القبط في أيدي بني إسرائيل بعد أن أغرق الله القبط ، وأهلك قوم فرعون.

وقد جمع موسى السامري تلك الحلي ، وكان رجلا مطاعا فيهم ، وصاغ لهم عجلا ، واتخذوه إلها لهم ، ثم عبدوه. وإنما نسب إليهم جميعا ؛ لأنه عمل برأي جمهورهم ، ولم ينكر عليه أحد ، فصاروا مجمعين عليه ، مريدين لاتخاذه ، راضين به.

وكانوا قد سألوا موسى عليه‌السلام أن يجعل لهم إلها يعبدونه ، كما لغيرهم من المصريين والشعوب التي مروا بها في فلسطين آلهة.

واختلف المفسرون على قولين في هذا العجل ، هل صار لحما ودما له خوار ،

أو استمر على كونه من ذهب ، إلا أنه يدخل فيه الهواء ، فيصوت كالبقر [(١)]؟.

قال جماعة مثل قتادة والحسن البصري بالرأي الأول : وهو أن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر راكبا فرسا ، ما وطئ بها أرضا إلا حلّت فيها الحياة ، واخضرّ نباتها ، فأخذ كفا من أثرها ، فألقاها في جوف ذلك العجل ، فانقلب لحما ودما ، وظهر منه الخوار مرة واحدة ، فقال السامري : هذا إلهكم وإله موسى!.

وقال أكثر مفسري المعتزلة بالرأي الثاني : إنه كان قد جعل ذلك العجل مجوّفا ، ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص ، وكان قد وضع ذلك التمثال على مهب الرياح ، فكانت الريح تدخل في جوف الأنابيب ، ويظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل.

ورأى آخرون أن ذلك الخوار كان تمويها يشبه عمل السحرة (الحواة) وذاك أنه جعل التمثال أجوف ، وجعل تحته في الموضع الذي نصب فيه العجل من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به الناس ، فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا في النافورات التي تقذف المياه [(٢)].

ثم رد الله على اتخاذهم العجل إلها بقوله : ﴿أَلَمْ يَرَوْا ..﴾ أي ألم ينظروا أنه فاقد لمقومات الإله ، فلا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولا يهديهم سبيل السعادة ، فهو تعالى ينكر عليهم ضلالهم وذهولهم عن خالق السموات والأرض أن عبدوا معه عجلا فاقدا صفة الإله الحق ، وهي الكلام الذي يصدر عنه الهداية والإرشاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ [طه ٢٠ / ٨٩] ولكن الجهل والعمى حجبهم عن إدراك الحقيقة ، روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «حبّك

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٤٧.

(٢) تفسير الرازي : ١٥ / ٥ وما بعدها.

الشيء يعمي ويصمّ». لذا قال تعالى مؤكدا ضلالهم : ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي إنهم اتخذوه إلها بلا دليل ولا برهان ، بل عن جهل وتقليد لغيرهم ، كالمصريين الذين يعبدون العجل : «أبيس» والأقوام العاكفين على عبادة الأصنام في فلسطين ، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم ؛ إذ عبدوا ما لا ينفعهم ، وإنما يضرهم.

ولما عاد موسى من مناجاة ربه أو من الميقات ، وكان قد أخبره الله تعالى ، وهو على الطور ، باتخاذ قومه عبادة العجل كما قال تعالى : ﴿قالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه ٢٠ / ٨٥] لما عاد ، ندم بنو إسرائيل على ما فعلوا ، وهذا هو معنى قوله : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ورأوا أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا بعبادة العجل ، فتابوا واستغفروا ربهم ، وقالوا : إن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا ، ومغفرة ذنبنا ، لنكونن من الهالكين ، ومن الذين خسروا سعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد ، وخسروا سعادة الآخرة وهي الإقامة في جنات النعيم. وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عزّجلّ .

فقه الحياة أو الأحكام :

يتبين من الآية أن بني إسرائيل يصعب عليهم الاستقرار على حال واحدة ، وإن كانت هذه الحال من أسعد الأحوال ، فهم قوم متناقضون ، مترددون ، متحيرون لا يدرون ماذا يفعلون ، كثيرو الشكوى والضجر ، قليلو الحمد والشكر على النعمة ، نظرتهم أحيانا سطحية ساذجة ، وتفكيرهم بدائي متأثر بالتقليد ، والتقليد داء يسري في الأمة كما يسري في الفرد من حيث لا يشعر ، أرادوا تقليد المصريين الذين عاشوا معهم في عبادة الأصنام والأوثان ، وأكد حنينهم للوثنية ما وجدوه من عكوف على الأصنام عند الأقوام الذين سبقوهم في فلسطين.

ووجد موسى السامري رغبتهم باتخاذ العجل إلها ، فصاغه لهم بذكائه من الحلي ، ولكنهم لم يفكروا في جدارة العجل للألوهية ، وظلموا أنفسهم ؛ إذ إن هذا

العجل لا يمكنه أن يكلمهم ، ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب والرشد ، فهو إما جماد وإما حيوان عاجز ، وفي الحالين فإنه لا يصلح للألوهية.

ثم تابوا وندموا على سوء فعلهم ، واستغفروا ربهم ، وطلبوا منه قبول التوبة والمغفرة على ذنبهم العظيم ، وتأكدوا كونهم من الخاسرين إن لم يغفر الله لهم.

وهذا إقرار واضح بالعبودية ، واعتراف بألوهية الإله الحق ، وفي قراءة حمزة والكسائي : لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا معنى الاستغاثة والتضرع والابتهال في السؤال والدعاء. وفي ذلك أيضا دلالة على اعترافهم بعظيم الجرم الذي أقدموا عليه ، وأنه لا ملجأ من الله في إقالة عثرتهم إلا إليه.

واحتج أهل السنة بآية : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ...﴾ على أن من لا يكون متكلما ولا هاديا إلى السبيل ، لم يكن إلها ؛ لأن الإله هو الذي له الأمر والنهي ، وذلك لا يحصل إلا إذا كان متكلما ، فمن لا يكون متكلما لم يصح منه الأمر والنهي. وبما أن العجل عاجز عن الأمر والنهي لم يكن إلها.

وبمناسبة اتخاذ السامري العجل إلها لبني إسرائيل يذكر علماء التوحيد مقارنة لطيفة تدل على أن السعادة والشقاوة في علم الله من الأزل ، فموسى بن عمران عليه‌السلام ربّاه فرعون ، فكان مؤمنا بإلهام من الله تعالى ، وموسى السامري ربّاه جبريل وكان في النهاية كافرا ، وقال بعضهم :

إذا المرء لم يخلق سعيدا من الأزل ... فقد خاب من ربّى وخاب المؤمّل

فموسى الذي ربّاه جبريل كافر ... وموسى الذي رباه فرعون مرسل

وهذا لا يعني أن التربية والتوجيه لا أثر لهما ، وإنما للبيئة كما هو معروف في حديث «كلّ مولود يولد على الفطرة» (١) تأثير كبير ، وللتربية دور مهم جدا ،

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع.

فلو لا المربي ما عرفت ربي ، ولكن الإرادة الإلهية فوق كل شيء ، والله غالب على أمره ، ولله في خلقه شؤون ، وله الحكمة العليا ، وقد تجنح نفس الإنسان إلى السوء والفساد والانحراف ، بالرغم من حسن التربية ورقابة المربي ، كما نشاهد في بعض أولاد العلماء والصلحاء والأشراف.

غضب موسى وتعنيفه هارون لاتخاذ العجل إلها

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾

الإعراب :

﴿ابْنَ أُمَّ﴾ أمّ : تقرأ بكسر الميم وفتحها ، فمن كسر الميم فعلى الأصل ؛ لأن الأصل فيه : أمّي ، وتكون فتحة ﴿ابْنَ﴾ فتحة إعراب ؛ لأنه منادى مضاف.

ومن فتح الميم بنى ابن مع أم ، وجعلهما بمنزلة اسم واحد ، كخمسة عشر ، وتكون فتحة ﴿ابْنَ﴾ فتحة بناء ، وليست بإعراب.

المفردات اللغوية :

﴿غَضْبانَ﴾ بسبب فعل قومه ﴿أَسِفاً﴾ شديد الحزن ، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن قول يعقوب : ﴿وَقالَ : يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ [يوسف ١٢ / ٨٤] وقد يستعمل الأسف بمعنى الغضب مثل : ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٥] قال أبو الدرداء : الأسف : أشد الغضب.

﴿بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي﴾ أي بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خروجي إلى ميقات ربي لمناجاته. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ استعجلتم ، والعجلة : التقدم بالشيء قبل وقته أما السرعة فهي عمل الشيء في أول أوقاته ﴿وَأَلْقَى الْأَلْواحَ﴾ طرح ألواح التوراة غضبا لربه ، فتكسرت ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي بشعره بيمينه ، ولحيته بشماله ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ غضبا على وجه المعاتبة لا على وجه الإهانة ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم أعطف لقلبه ﴿وَكادُوا﴾ قاربوا ﴿فَلا تُشْمِتْ﴾ تفرح ، والشماتة : الفرح بالمصيبة ، ولا تشمت بي الأعداء : بإهانتك إياي. ﴿وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعبادة العجل في المؤاخذة.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة السامري باتخاذ العجل إلها لبني إسرائيل ، ذكر أثر ذلك ووقعة على موسى ؛ إذ أنه في حال رجعته ، كان غضبان أسفا ، واشتد أساه وحزنه حين رأى الواقع المؤلم من ضلال قومه وغيهم ، فبادر إلى تعنيف أخيه هارون بسبب عبادة قومه العجل ، ولامه على سكوته على قومه. وهذا هو الفصل الثاني من قصة عبادة العجل.

التفسير والبيان :

أخبر الله موسى بفعل بني إسرائيل ، وهو على الطور ، بقوله : ﴿قالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ، فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً ، قالَ : يا قَوْمِ : أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ، أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه ٢٠ / ٨٥ ـ ٨٦].

فكان موسى أثناء رجوعه من الميقات غضبان أسفا ، أي ساخطا شديد الحزن والأسى ، وقال لقومه : بئسما فعلتم من بعد غيبتي ، وبئست الخلافة التي خلفتموها من بعد ذهابي إلى جبل الطور لمناجاة ربي ، حيث عبدتم العجل واتبعتم السامري ، وتركتم عبادة الله وتوحيده ، وقد كنت أوضحت لكم عقيدة التوحيد ، وغرست في قلوبكم تلك العقيدة ، وطهرت نفوسكم من الشرك والوثنية ، وحذرتكم من ضلال القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من

تماثيل البقر. وكان موسى في ذلك كله شديد الشكيمة ، قوي العزيمة ، لقنهم التوحيد الخالص ، وأنكر عليهم حين طلبوا منه أن يجعل لهم إلها كغيرهم.

وقال موسى : أعجلتم أمر ربكم؟ أي استعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له ، وهو ما وعدكم من الأربعين ، وذلك لأنهم قدروا أنه لما لم يأت على رأس الثلاثين ، فقد مات [١] ، أي تعجلتم في الحكم علي. قال الزمخشري : المعنى : أعجلتم عن أمر ربكم ، وهو انتظار موسى حافظين لعهده ، وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدثتم أنفسكم بموتي ، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. وروي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل : ﴿هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى﴾ [طه ٢٠ / ٨٨] إن موسى لن يرجع وأنه قد مات [٢].

وطرح موسى الألواح من يده ، لما اعتراه من فرط الدهشة ، وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل ، غضبا لله ، وحمية لدينه ، وكان في نفسه حديدا (ذا حدة) شديد الغضب ، وكان هارون ألين منه جانبا ، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى.

وروي أن التوراة كانت سبعة أسباع ، فلما ألقى الألواح تكسرت ، فرفع منها ستة أسباعها ، وبقي منها سبع واحد ، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء ، وفيما بقي الهدى والرحمة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «يرحم الله موسى ، ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه عزوجل أن قومه فتنوا بعده ، فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

وأخذ بشعر رأس أخيه يجره إليه بذؤابته ، لشدة ما استفزه من الأمر ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١١.

(٢) تفسير الكشاف : ١ / ٥٧٨.

وذهب بفطنته ، وظنا بأخيه أنه قصر في خلافته ، وفرط في كفّ القوم عن عبادة العجل ، ومن حق الخليفة اتباع سيرة سلفه : ﴿قالَ : يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه ٢٠ / ٩٢] أي أن تتبعني إلى جبل الطور.

ولقد كان موسى عليه‌السلام معذورا فيما فعل فهو غضب للحق ، فقد كان نبينا عليه الصلاة والسّلام لا يغضب لنفسه ، فإذا انتهكت حرمات الله ، كان أشد ما يكون غضبا لله.

فأجابه هارون قائلا : يا ابن أمي ، لا تتعجل بلومي وتعنيفي واتهامي بالتقصير في واجبي نحو الله تعالى ، فإني أنكرت عليهم ، ونصحتهم ، ولكن القوم استضعفوني فوجدوني فردا واحدا ، ولم يلتفتوا إلى كلامي ، بل قاربوا أن يقتلوني.

يا ابن أمي ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ﴾ ، أي لا تفعل بي ما هو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إلي ، ولا تجعلني في حنقك علي ، وعقوبتك لي قرينا لهم وصاحبا ، أو ولا تعتقد أني واحد من زمرة الظالمين لأنفسهم ، يعني الذين عبدوا العجل ، مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

ولما اعتذر إليه أخوه واستعطف قلبه قال موسى : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما قد فرط مني من قول أو فعل فيهما غلظة وجفوة لأخي ، واغفر لأخي ما قد فرط أثناء خلافته عني ، من مؤاخذة القوم على ما ارتكبوه من جرم وإثم ، و ﴿أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة ، فأنت أرحم الراحمين ، أي اجعل رحمتك ملازمة لنا لا تفارقنا في الدنيا والآخرة.

دعا موسى بهذا الدعاء ليرضي أخاه ، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه ، فلا يشمتون به.

ودل ذلك على أن هارون كان دون موسى في شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم.

وأرشد اعتذار هارون أنه بريء من جريمة اتخاذ العجل إلها ، وأنه لم يقصر في نصحهم والإنكار عليهم ، وقد غفر الله له. وهذا مخالف لما في التوراة أن هارون هو الذي صنع العجل لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

تختلف أحوال الناس وطبائعهم في سياسة الآخرين والاحتكاك بهم ، فمنهم الحاد الطبع ، السريع الانفعال كموسى عليه السلام ، الذي غضب للحق ، وهو محق فيما فعل ، ومتوقع منه كل ما فعل ، ومنهم الهادي الطبع ، اللين العريكة ، الحليم مثل هارون عليه السلام الذي لم يأل جهده في الإنكار على قومه ، ولكنهم لم يرعووا لنصحه وهمّوا بقتله.

ولم يغضب موسى لخبر ربه غضبا مماثلا لما شاهده من الواقع المر ؛ لأنه ليس الخبر كالعيان ، والشاهد يتألم ويتأثر عادة أكثر مما يتأثر به الغائب ؛ لأن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

وكل هذه أحوال نفسية فطرية ، لا سلطان للإنسان عليها ، ومن المعروف أن الأمور الجبليّة من غضب وسرور ونحوهما لسنا مكلفين بها.

أما إلقاء موسى الألواح فكان بسبب دهشته واستفزازه ومن غير شعور منه تأثرا بما رأى ، ففعل ما فعل ، ولم يدر ما صنع. ولم يتعمد كسر الألواح ، بل كان في غيبة وانفعال شديد ، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه.

وأما أخذه برأس أخيه يجره إليه من شعره ولحيته فلا يتنافى مع عصمة الأنبياء ؛ لأنه لم يفعل ذلك على سبيل الإهانة والإذلال والاستخفاف ، وإنما على

سبيل الإكرام والتعظيم ، كما تفعل العرب عادة من قبض الرجل على لحية أخيه إكراما وتعظيما. ولكن هارون كره ذلك لئلا يظن بنو إسرائيل أنه إهانة. وكان هارون أكبر من موسى عليهما السلام بثلاث سنين ، وأحب إلى بني إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان ليّن الغضب. ثم إن موسى فعل ذلك بأخيه ؛ لظنه أو توهمه أن هارون مائل مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل ، ومثل هذا الميل لا يجوز على الأنبياء.

وزال الإشكال باعتذار هارون أن عبدة العجل استضعفوه ، وقاربوا يقتلونه ، فقبل موسى عذره ودعا له ولأخيه بالمغفرة وطلب الرحمة ، المغفرة له على ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح ، والمغفرة لأخيه لما ظنه أنه مقصّر في الإنكار عليهم ، وإن لم يقع منه تقصير ، أي اغفر لي طرح الألواح ، ولأخي إن قصر.

قال الحسن البصري : عبد كلهم العجل غير هارون ، إذ لو كان ثمّ مؤمن غير موسى وهارون ، لما اقتصر على قوله : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ ، ولدعا لذلك المؤمن أيضا.

وإنما أقام هارون ولم يتبع أخاه موسى إلى الطور ، خوفا على نفسه من القتل ، فدلت الآية على أن من خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر له أن يسكت.

قال ابن العربي : هذا دليل على أن الغضب لا يغير الأحكام ، كما زعم بعض الناس ، فإن موسى عليه السلام لم يغيّر غضبه شيئا من أفعاله ، بل اطّردت على مجراها من إلقاء لوح ، وعتاب أخ ، وصكّ ملك [1]. قال المهدوي : لأن غضبه كان لله عز وجل ، وسكوته عن بني إسرائيل خوفا أن يتحاربوا ويتفرقوا.

(١) أحكام القرآن : ٢ / ٧٨٣.

وكان موسى لشدة حدته فيما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة ، أنه لما أرسل ملك الموت إليه ، صكّه صكّة ، ففقأ بها عينه ، فرجع إلى ربه ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، فقال : ارجع إليه ، فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بكل شعرة سنة ، قال : أي رب ، ثم ماذا؟ قال : الموت ، قال : فالآن ... الحديث.

جزاء الظالمين باتخاذ العجل وقبول توبة التائبين

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)﴾

الإعراب :

﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ المفعول الثاني محذوف ، والتقدير : اتخذوا العجل إلها ومعبودا.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا ... وَالَّذِينَ﴾ : مبتدأ مرفوع ، والجملة من ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ باسمها وخبرها في موضع رفع ، خبر المبتدأ.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عذاب وهو ما أمروا به من قتل أنفسهم ، أي قتل بعضهم بعضا ، كما تقدم في سورة البقرة. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ شعور بهوانهم على الناس ، واحتقارهم لهم ، وخروجهم من ديارهم ﴿وَكَذلِكَ﴾ أي كما جزيناهم ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بالإشراك وغيره ﴿ثُمَّ تابُوا﴾ رجعوا عن السيئات ﴿وَآمَنُوا﴾ بالله ﴿مِنْ بَعْدِها﴾ أي التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

المناسبة :

الربط بين هذه الآيات وما قبلها واضح ، فبعد أن ذكر تعالى عتاب موسى لأخيه هارون عليهما السلام ، ثم استغفاره لنفسه ولأخيه ، ذكر جزاء الظالمين باتخاذ العجل إلها ومعبودا ، وقبول توبة التائبين. وهذا هو الفصل الثالث من قصة عبادة العجل.

التفسير والبيان :

إن الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل إلها ومعبودا بعد غيبة رسولهم موسى عليه السلام ، وبقوا على تأليهه واستمروا على عبادته كالسامري وأتباعه ، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم ، وهو المذكور في سورة البقرة ، وهو أن الله تعالى لن يقبل توبتهم حتى يقتتلوا ، ويقتل بعضهم بعضا : ﴿فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ ، فَتابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٢ / ٥٤].

وسينالهم أيضا ذلة وصغار في الحياة الدنيا ، بخروجهم من ديارهم وتشردهم ، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم ، وتهالكهم على حب الدنيا ، فهم الماديون المنبوذون المكروهون في كل أمة ، وتلك هي ذلة عظيمة المعنى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة ٢ / ٦١] والذلة بمعناها القريب والبعيد. وأما قيام دولتهم في فلسطين فهي محنة للمسلمين ، فربما أناس سلّط عليهم من هو شر لهم ، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن بقاء دولة الصهاينة في فلسطين شيء مستحيل ، ولا تؤيده الظروف والقرائن المشاهدة ، وقد بشرت الأحاديث النبوية بقتلهم وطردهم منها ، ولكل أجل كتاب.

ومثل ذلك الجزاء الذي نزل بالظالمين من بني إسرائيل في الدنيا نجزي القوم

المفترين على الله في كل زمان ، والمعنى : أن كل مفتر في دين الله جزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا.

ويشمل ذلك كل من افترى بدعة وخالف الرشاد ، وقال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغلات ، وطقطقت بهم البراذين (١).

وروى عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية : ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فقال : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل (٢).

ومن عادة القرآن مقابلة الأشياء بأضدادها ، فبعد أن ذكر جزاء الظالمين ، فتح باب الأمل أمام التائبين ، فنبه الله تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبتهم من أي ذنب كان ، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ...﴾ أي والذين ارتكبوا الأعمال السيئة والمعاصي المنكرة شرعا وعلى رأسها الكفر والشرك ، ثم تابوا أي رجعوا من بعدها إلى الله ، بأن آمن الكافر ، وأقلع العاصي عن عصيانه ، واستقام المؤمن على منهج ربه ، وآمنوا إيمانا خالصا من الشوائب ، وقرنوا الإيمان بالعمل الصالح ، إن ربك يا محمد من بعد تلك الفعلة لغفور لهم ، ستار لذنوبهم ، رحيم بهم يجزي بالحسنة عشر أمثالها ، ويكافئ على القليل بالجليل الكثير.

سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ، ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها ، وَآمَنُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٤٨.

(٢) المرجع والمكان السابق.

وهذا يفيد أن من عمل السيئات فلا بد وأن يتوب عنها أولا ، وذلك بأن يتركها ويرجع عنها ، ثم يؤمن بعد ذلك ، يؤمن بالله تعالى ، ويصدق بأنه لا إله غيره. وهذه الآية تدل على أن جميع السيئات قابلة للغفران بالتوبة ، وهذه بشارة عظمي للمذنبين.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيتان مبدأين مهمين : مبدأ العدل في العقاب ، ومبدأ الرحمة بالعصاة التائبين.

أما المبدأ الأول ـ وهو عدالة العقاب فهو ما قامت عليه شريعة الله ، فمن أشرك بالله إلها آخر ، كما فعل بنو إسرائيل في غيبة موسى عليه السلام ، فهو ظالم لنفسه ، يستحق غضب الإله عليه ، ومصاحبة الذلة والهوان له في الحياة الدنيا. ومن ابتدع شيئا ليس في دين الله فهو مفتر يناله من الجزاء مثل جزاء الظالمين الكافرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي المبتدعين ، قال الإمام مالك رحمه الله : ما من مبتدع إلا وتجد فوق رأسه ذلّة.

وينطبق ذلك على الناس كلهم في الماضي والحاضر والمستقبل ، فهو يشمل فعلة بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام ، وكل من رضي بفعلهم كاليهود في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي كل زمن على ممر الأجيال.

وأما المبدأ الثاني ـ مبدأ الرحمة بالعصاة التائبين فهو فضل عظيم من الله تعالى على هذه الأمة المسلمة وعلى الأمم كلها ، ففي الآية خبر قاطع وقرار حاسم وحكم دائم وهو أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره من المعاصي ؛ لأن قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ﴾ يشمل الكفر وسائر المعاصي. ورحمة الله سبقت غضبه ، ورحمته وسعت كل شيء ، فمن آمن بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن دستورا ، وتاب من كفره أو معصيته ، وعمل صالحا فإن الله من بعد توبته غفور له رحيم به.

نهاية قصة اتخاذ العجل إلها

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾

الإعراب :

﴿وَلَمَّا سَكَتَ لَمَّا﴾ : ظرف زمان ، ويفتقر إلى جواب ، وجوابها ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ وهو العامل فيها.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً﴾ مبتدأ وخبر في موضع نصب على الحال من ﴿الْأَلْوَاحَ﴾ والعامل فيه ﴿أَخَذَ﴾.

﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أدخل اللام على المفعول لتقدمه.

البلاغة :

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ استعارة مكنية ، شبه الغضب بإنسان ثائر يرعد بصوته ، طالبا الانتقام ، ثم حذف المشبه به ، وصرح بشيء من لوازمه وهو : ﴿سَكَتَ﴾ أي اختفى الصوت. وهو تشبيه لطيف رائع بليغ.

المفردات اللغوية :

﴿سَكَتَ﴾ سكن ، والسكون لغة : ترك الكلام ، نسب إلى الغضب على طريقة تصويره بصورة شخص ثائر يأمر وينهى. قال الزمخشري : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء.

﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي ما نسخ أو كتب فيها ﴿هُدىً﴾ بيان للحق من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالإرشاد إلى الخير والصلاح. ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون ، والرهبة : أشد الخوف.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى لنا ما كان من موسى حال الغضب ، وانقسام قومه قسمين : مصر على عبادة العجل ، وتائب إلى الله من ذلك ، بيّن في هذه الآية ما كان منه عند سكوت الغضب ، وسكون النفس وهدأة البال. وإذا كان موسى سريع الغضب حاد الطبع ، فهو أيضا سريع العودة إلى الحلم حينما يعود الحق إلى نصابه ، ويعدل الظالم عن ظلمه.

وهذا هو الفصل الرابع والأخير من قصة عبادة العجل.

التفسير والبيان :

ولما سكن غضب موسى على قومه ، وهدأت نفسه بتوبة أكثرهم ، أخذ الألواح التي كتبت فيها التوراة ، والتي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرة لله وغضبا له ، فوجد فيها هدى للحيارى ، ورحمة بالعصاة التائبين الذين يخافون من ربهم أشد الخوف على ما يصدر منهم من ذنوب ، ويخشون عذابه وحسابه. وقد ضمن الرهبة معنى الخضوع ، فعداها باللام.

ذكر ابن عباس : أنه لما تكسرت الألواح صام موسى أربعين يوما ، فردّت عليه ، وأعيدت له تلك الألواح في لوحين ، ولم يفقد منها شيئا. قال القشيري : فعلى هذا : ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً﴾ أي وفيما نسخ من الألواح المتكسرة ، ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة. وقال عطاء : وفيما بقي منها. وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها ، وذهب ستة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء.

فقه الحياة أو الأحكام :

الحلم سيد الأخلاق ، فحينما هدأت نفس موسى عليه السلام ، وعاد إلى أناته وحلمه ، أخذ يتدارس الألواح التي كتبت فيها التوراة ، فوجد فيها بيان الحق من الضلال ، والهدى من الانحراف ، والرحمة من العذاب ، ببيان وجه الرشاد وسلوك طريق الخير والصلاح ، لمن كان يخاف ربه ويخشى عقابه.

وفي ضوء ما وجد فيها من حدود وأحكام ، أخذ يرشد قومه إلى ما فيها ، ويحملهم على العمل بها ؛ لأنها شريعة الله لبني إسرائيل. وتلك هي فترة الاستقرار في حياة موسى على ما يظهر لنا ، بعد أن مرّ بتقلبات وأحوال شديدة التأثير ، كاد بها يخسر إيمان قومه برسالته إلى الأبد ، لولا عودته إلى النصح والإرشاد بما نزل في التوراة.

اختيار موسى سبعين رجلا لميقات الكلام والرؤية

ومناجاته ربه

﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (١٥٥)﴾

الإعراب :

﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ : ﴿قَوْمَهُ﴾ ، و ﴿سَبْعِينَ﴾ : منصوبان باختار ، إلا أنه تعدى إلى ﴿سَبْعِينَ﴾ من غير تقدير حذف حرف جر ، وتعدى إلى ﴿قَوْمَهُ﴾ بتقدير حذف حرف جر ، والتقدير فيه : واختار موسى من قومه سبعين رجلا ، فحذف حرف الجر ، فتعدي الفعل إليه.

البلاغة :

﴿تُضِلُّ﴾ و ﴿تَهْدِي﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ﴾ أي اصطفى من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ أي ممن لم يعبدوا العجل في رأي أكثر المفسرين ، اختارهم بأمره تعالى ﴿لِمِيقاتِنا﴾ للوقت الذي وعدناه بإتيانهم فيه ، ليعتذروا من عبادة أصحابهم العجل ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي فخرج بهم ، فلما أصابتهم الصاعقة أو الزلزلة الشديدة التي هزت القلوب والأبدان ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل خروجي بهم ، ليعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني.

﴿أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا﴾ استفهام استعطاف ، أي لا تعذبنا بذنب غيرنا.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هي أي الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك ﴿مَنْ تَشاءُ﴾ إضلاله ﴿مَنْ تَشاءُ﴾ هدايته ﴿أَنْتَ وَلِيُّنا﴾ متولي أمورنا.

المناسبة :

هذه الآية استمرار في بيان ما حدث لموسى عليه‌السلام أثناء مناجاة ربه ، فقد بدأ الله تعالى قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية بقوله : ﴿وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا﴾ [الآية : ١٤٣] ثم استطرد لبيان قصة عبادة العجل ، ثم عاد لإتمام ما حدث في ذلك الميقات ، فهو ميقات الكلام والرؤية نفسه ، وليس ميقاتا آخر ، كما رجح الرازي ؛ لأنه تعالى قال : ﴿وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا﴾ ثم قال : ﴿وَاخْتارَ مُوسى﴾ .. ﴿لِمِيقاتِنا﴾ فدل على أن المراد بهذا الميقات هو عين ذلك الميقات (١).

التفسير والبيان :

أوحى الله إلى موسى أن يختار معه لميقات الكلام والرؤية سبعين رجلا من

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٧ ـ ١٨.

قومه بني إسرائيل ، ففعل ، وأتى بهم للميقات الذي وقّته الله تعالى وهو مكان في جبل الطور: طور سيناء حيث ناجى ربه ، وقد أمرهم أن يصوموا ، ويتطهروا ، ويطهروا ثيابهم.

والظاهر من ترتيب سرد الآيات أن اختيار هذا العدد كان عند طلب موسى رؤية الله عزّ وجلّ قبل اتخاذ عبادة العجل ، وذلك ليكون سماعهم مناجاة موسى ربه دليلا على صدقه ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا : يا موسى ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فإنك قد كلمته فأرناه ، فأخذتهم رجفة الجبل وصعقوا حينما ألحوا في طلب الرؤية.

ولم تكن تلك الرجفة موتا ، ولكن القوم لما رأوا تلك الحالة المهيبة ، أخذتهم الرعدة ورجفوا ، وخاف موسى عليه السلام الموت ، فعند ذلك بكى ودعا ، فكشف الله عنهم تلك الرجفة. قال وهب : ما ماتوا ، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تبين مفاصلهم ، وخاف موسى عليهم الموت.

ولما أخذتهم الرجفة قال موسى : رب أتمنى لو كانت مشيئتك قد سبقت بإهلاكهم قبل هذا الوقت وقبل خروجهم معي إلى هذا المكان ، أي حين طلب الرؤية ، وأهلكتني معهم كذلك قبل أن أرى ما رأيت من رعدتهم ، كيلا أحرج مع قومي ، فيقولوا : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم.

ثم أردف موسى قائلا : ﴿أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا﴾ أي حيث طلبوا الرؤية لك جهارا لسماعهم كلامك ، وهو قولهم : ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ أي لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب.

وما هي إلا فتنتك أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك حين كلمتني ، فسمعوا كلامك وطلبوا الرؤية ، فليس الأمر إلا أمرك ، وما الحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تضل بالمحنة من تشاء من عبادك وهم الجاهلون غير المتثبتين في معرفتك ،

ولست بالظالم لهم أبدا في تقديرك ، بل هذا موافق لطبعهم وكسبهم واختيارهم ، وتهدي بالمحنة أيضا من تشاء من عبادك ، وهم المؤمنون المتثبتون في معرفتك ، ولست بالمحابي لهم في توفيقك للهداية ، بل هذا متفق مع طبعهم وكسبهم واختيارهم ، ولو ترك الفريقان وشأنهم لاختار كل منهم ما هو فيه وما قدر له. وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه ٢٠ / ٨٥] وجعل ذلك إضلالا من الله وهدى منه ؛ لأن محنته لما كانت سببا لأن ضلوا واهتدوا ، فكأنه أضلهم بها وهداهم ، على الاتساع في الكلام.

أنت ولينا ، أي المتولي أمورنا والمهيمن علينا ، فاغفر لنا أي استر ذنوبنا ولا تؤاخذنا بها ، وارحمنا وإن قصرنا وفرطنا ، وأنت خير الغافرين ، أي الساتر ذنوب العباد ، العافي عن السيئات ، ورحمتك وسعت كل شيء ، ومغفرتك ورحمتك بلا سبب ولا علة ولا لمصلحة ولا لعوض ، أما غيرك فإنما يغفر لأغراض عديدة كحب الثناء وطلب النفع أو لدفع الضرر ، وأنت تغفر لمحض الفضل والجود والكرم ، فهو حقا وقطعا خير الغافرين.

قال ابن كثير : والرحمة إذا قرنت مع الغفر ، يراد بها ألا يوقع العبد في مثل الذنب في المستقبل (١).

وقوله : ﴿أَنْتَ وَلِيُّنا﴾ يفيد الحصر ، ومعناه أنه لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت.

وقيل : في تفسير الآية وطلب موسى إهلاكهم وقوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ : أن الفتنة يراد بها عبادة العجل ، وأن طلب الإهلاك حينما عبدوا العجل ، وأن الذين عبدوه هم السفهاء وهم الأكثرون ، وأما عقلاء بني إسرائيل فلم يعبدوه.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٥٠

فقه الحياة أو الأحكام :

على المؤمن أن يلتزم الأدب مع الله وألا يسلك مسلك العناد ، فطلب القوم رؤية الله عزّوجلّ قياسا منهم على سماع كلامه ، أدى بهم إلى إنزال الصاعقة أي الزلزلة الشديدة في الجبل الذي كانوا عليه.

وإذا كان هذا سبب الرجفة ، فإن عبادة العجل تستحق عذابا أشد وأنكى.

والمراد بالإضلال في قوله : ﴿تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ﴾ ليس الإجبار أو الإكراه على الوقوع في الضلال كما تقول الجبرية ؛ لأنه لم يقل : تضل بها من تشاء من عبادك عن الدين ، ولأنه تعالى قال : ﴿تُضِلُّ بِها﴾ أي بالرجفة ، ومعلوم أن الرجفة لا يضل الله بها ، فوجب التأويل ، وتأويل ذلك أنك تعاقب من تشاء بشرط ألا يؤمن ، أو تهلك من تشاء بهذه الرجفة.

وكذلك الهداية في قوله : ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ﴾ يراد بها التوفيق والإرشاد إلى وجوه الهداية ومسالكها.

ولا شك أن خالق الداعية إلى الإيمان والكفر إنما هو الله تعالى ، والعبد بقدرته الصالحة للإيمان والكفر يرجح أحد الجانبين على الآخر لما خلق الله فيه ، وحينئذ تكون الهداية من الله تعالى ، والإضلال من الله تعالى [1] ، أي بالخلق والإيجاد ، لا بالكسب والتحصيل ، فالأول فعل الله والثاني فعل الإنسان.

فبنو إسرائيل هم الذين أظهروا العناد ، فطلبوا رؤية الله جهرة ، وهم الذين اخترعوا عبادة العجل.

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٩.

بقية دعاء موسى عند مشاهدة الرجفة

وربط الإيمان برسالته النبي ﷺ

﴿وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

البلاغة :

﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وكذا ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ فيهما ما يسمى بالمقابلة : وهي الإتيان بمعنيين فأكثر ، ثم الإتيان بما يقابلها بالترتيب.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ استعار الإصر والأغلال لتكاليفهم الثقيلة أو الشاقة ، فالإصر والأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة.

المفردات اللغوية :

﴿وَاكْتُبْ﴾ أوجب ﴿حَسَنَةً﴾ الحسنة في الدنيا : الصحة والغنى عن الناس ، والاستقلال ، والحسنة في الآخرة : الجنة ونيل الرضوان ﴿هُدْنا﴾ رجعنا وتبنا ، فهو هائد ، وقوم هود ﴿مَنْ

﴿أَشاءُ﴾ تعذيبه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عمت كل شيء في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُها﴾ أحكم بها في الآخرة ، أي سأوجب حصول رحمتي ، منّة مني وإحسانا إليهم ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام ٦ / ٥٤].

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد ﷺ ، وهم الذين يتقون الشرك والعظائم من الذنوب ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ أي يخرجون زكاة الأموال التي تتزكى بها نفوسهم.

﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَ﴾ النبي لغة مأخوذ من النبوة وهي الارتفاع ، ومن النبأ : وهو الخبر المهم العظيم الشأن ، وفي الشرع : هو من أوحى الله إليه بشرع ولم يأمره بتبليغه. والرسول : هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. ولا يشترط الاستقلال بالشرع أو بالكتاب ، بل قد يكون تابعا لشرع غيره كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة. والأمي : الذي لم يقرأ ولم يكتب ، ولقب العرب بالأميين كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [الجمعة ٦٢ / ٢] وحكى تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا : لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران ٣ / ٧٥] والنبي الأمي : هو محمد ﷺ.

﴿مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ باسمه ووصفه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما تعارفت العقول السليمة والفطر النقية على حسنه ، وذلك موافق لما ورد الأمر به في الشرع.

﴿الْمُنْكَرِ﴾ ما تنكره النفوس والشرائع لمصادمته للفطرة والمصلحة.

﴿الطَّيِّباتِ﴾ ما تستطيبه الأنفس والطباع السليمة من الأطعمة ، ومعنى قوله : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ﴾ أي مما حرم في شرعهم ﴿الْخَبائِثَ﴾ ما تستخبثه الطباع السليمة وتنفر منه كالميتة والدم المسفوح ، أو يكون سببا في الضرر البدني كالخنزير الذي يسبب أكله الدودة الوحيدة وغيرها من المضار ، أو الضرر الديني كالمذبوح الذي يتقرب به لغير الله. والخبيث من الأموال : ما يؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والسرقة والغصب ونحو ذلك من المكاسب الخبيثة.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصر : الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه من الحركة لثقله ، مثل اشتراط قتل الأنفس بالتقاتل في صحة توبتهم ﴿وَالْأَغْلالَ﴾ الشدائد أو التكاليف الشاقة ، والأغلال جمع غل : وهو القيد الذي تربط به يد الجاني إلى عنقه. والمراد هنا : ما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، مثل إيجاب القصاص في القتل مطلقا ، عمدا كان أو خطأ ، من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب ، وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق في اللحم ، وتحريم السبت أي تحريم العمل فيه.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ منهم ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي أعانوه ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو ،

أي

حاموا عنه ﴿النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي القرآن ، وإنما أنزل مع جبريل ، فالمراد : أنزل مع نبوته ، وصارت نبوته مصحوبة بالقرآن.

التفسير والبيان :

هذا من تتمة دعاء موسى عليه السلام عند مشاهدة الرجفة ، فأعلن أولا أنه لا ولي إلا الله بقوله : ﴿أَنْتَ وَلِيُّنا﴾ والمتوقع من الولي والناصر أمران : دفع الضرر ، وتحصيل النفع ، ولما كان دفع الضرر مقدما على تحصيل النفع ، بدأ بطلب دفع الضرر ، فقال : ﴿فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا﴾ ثم أتبعه بطلب تحصيل النفع بقوله : ﴿وَاكْتُبْ﴾.

أي أوجب لنا وأثبت لنا بفضلك ورحمتك حسنة ، أي حياة طيبة في الدنيا بتوفير نعمة الصحة والعافية ، وسعة الرزق ، والتوفيق في العمل ، والاستقلال في الأمور العامة ، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول جنتك والظفر برضوانك وفيض إحسانك ، وذلك كقوله تعالى : ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة ٢ / ٢٠١].

﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا وأبنا إليك ، أي ندمنا على ما طلبه قومنا من اتخاذ الآلهة وعبادة العجل ورؤية الله جهرة ونحو ذلك من فعل السفهاء ، ورجعنا إلى الإيمان المقرون بالعمل.

قال الله : ﴿عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ﴾ من الكفار والعصاة ، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين ، والعذاب مما يترتب على صفة العدل ، ولكن الرحمة أشمل ، ولو لا عموم الرحمة لهلك الكفار والعصاة عقب كفرهم وعصيانهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٥] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٨].

والمراد من آية العذاب هنا : أني أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. ثم قرن ذلك بما يطمئن العباد وهو أن الرحمة تسبق الغضب ، وهي أعم وأشمل منه ، فهذه آية عظيمة الشمول والعموم ، كقوله تعالى عن حملة العرش ومن حولهم أنهم يقولون : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر ٤٠ / ٧].

ثم وصف الله تعالى مستحقي الرحمة وذكر من تثبت لهم : وهم الذين يتصفون بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ وهي :

١ ـ الذين يتقون الشرك والمعاصي أو الذنوب.

٢ ـ والذين يؤتون الزكاة التي تتزكى بها نفوسهم ، وتشمل زكاة الأنفس وزكاة الأموال. وخصت الزكاة بالذكر لعلاج مرض الماديين النفعيين وهم اليهود وأمثالهم ، ولأن النفوس شحيحة بها غالبا.

٣ ـ والذين يؤمنون ، أي يصدّقون بآياتنا الدالة على توحيدنا ، وكفاية شريعتنا وسموها وصلاحيتها للعمل والتطبيق ، وصدق رسلنا.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الثلاث هم متبعو ملة محمد ﷺ ، وها هي صفاته في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثته ، وأمروهم بمتابعته ، وأوصافه عندهم سبعة وهي:

١ ـ الرسول النبي الأمي : أي الذي لم يقرأ ولم يكتب ، فالأمية آية من آيات نبوته ، وأن القرآن المعجز منزل عليه من عند الله ، فهو مع أميته أتى بأكمل العلوم وأجداها في العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والأعمال. واتباعه : باعتقاد نبوته والعمل برسالته. وهذه الصفة يمكن أن تتنوع إلى صفات ثلاث : هي الرسول : أي المرسل من الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف. والنبي وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى ، والأمي.

٢ . وهو الذي يجدون اسمه وصفته كتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، لذا آمن به بعض علماء اليهود مثل عبد الله بن سلام ، وبعض علماء النصارى مثل تميم الداري. فأما المستكبرون فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ، ويؤولونها. روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال : حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت ، كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : «أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا ، أي لا ، فقال ابنه : إي ، والذي أنزل التوراة ، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله فقال : «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفنه والصلاة عليه (١).

وجاء في الباب الثالث والثلاثين في التوراة من سفر تثنية الاشتراع : «جاء الرب من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلى من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار ، في يمينه قبس من نار» ومجيئه من سينا : إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير : إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه ، واستعلاؤه من جبال فاران : إنزاله القرآن ؛ لأن فاران من جبال مكة.

وجاء في الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا : «فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق ، فهو يشهد لي ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء» والفارقليط بالعبرية : معناه أحمد ، كما

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٥١) : هذا حديث جيد قوي ، له شاهد في الصحيح عن أنس.

قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف ٦١ / ٦].

٣ ، ٤ ـ إنه يأمر بالمعروف : وهو ما تعرفه العقول الرشيدة وتألفه الطباع السليمة ، وقد ورد به الشرع ، وهو ينهاهم عن المنكر : وهو ما تنكره النفوس الصافية. فهو عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقولها : يا أيها الذين آمنوا ، فأرعها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه.

ومن أهم ما أمر الله به : عبادة الله وحده لا شريك له ؛ ومن أهم ما نهى عنه : عبادة ما سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

٥ ، ٦ ـ وإنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث : أي يحل لهم ما تستطيبه الأنفس من الأطعمة : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٥٧ ، ١٧٢ ، والأعراف ٧ / ١٦٠ ، وطه ٢٠ / ٨١] ويحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم ما تأباه النفوس ، كالميتة والخنزير والدم المسفوح ، وما يؤخذ من الأموال بغير حق كالربا والرّشوة والغصب والخيانة. قال ابن عباس : الخبائث كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء : فكل ما أحل الله تعالى من المآكل ، فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين.

٧ ـ وإنه يضع عنهم الإصر والأغلال : أي يرفع عنهم التكاليف الشاقة ، كالقصاص في القتل ، العمد أو الخطأ ، من غير شرع الدية ، وقتل النفس عند التوبة ، أي التقاتل وإهدار الدماء ، وقطع الأعضاء المذنبة ، وقرض موضع

النجاسة من الجلد والثوب ، وتحريم السبت.

أي إنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد في الحديث الذي رواه الخطيب عن جابر : «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «بشّرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا».

ومن مظاهر التيسير : قوله ﷺ في الكتب الستة عن أبي هريرة : «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به ، وقوله فيما رواه الطبراني عن ثوبان : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ﴿**رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ، رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً ، كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا ، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا ، أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ**﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلت ، قد فعلت.

أما اليهود فقد شدد الله عليهم في الأحكام الشرعية في العبادة والمعاملة والعقوبة ، ثم خفف المسيح عليه السلام في بعض الأمور المادية ، وشدد في الأحكام الروحية.

فالذين آمنوا بالنبي الأمي وبرسالته ، وعزروه أي منعوه من الأعداء ، ونصروه أي عظموه ووقروه ، وأيدوه باللسان والسّنان ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلّغا إلى الناس ، أولئك هم المفلحون في الدنيا والآخرة ، الناجون الفائزون بالرحمة والرضوان ، دون من سواهم من حزب الشيطان الذين يخذلهم الله في الدنيا والآخرة. ويدخل في ذلك قوم موسى الذين يتحقق فيهم هذا الوصف العام.

فقه الحياة أو الأحكام :

بعد أن أقر موسى بأن لا إله إلا الله تعالى ، أعلن أن الله ولينا أي القائم بأمورنا والمتولي شؤوننا ، والولي يدفع الضر ويجلب النفع ، لذا طلب منه المغفرة والرحمة لدفع الضر ، المقدم على تحصيل النفع ، ثم طلب منه تحقيق النفع وهو سؤاله الحسنة في الدنيا والآخرة.

ويناسب هذه الأشياء اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع ، لذا قال موسى عليه السلام : ﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك.

فتحقق بهذا مجموع أمرين لا بد منهما : وهما تقرير عزة الربوبية ، أي كون الله تعالى إلها وربا ووليا ، والاعتراف بذل العبودية أي كون العباد له تائبين خاضعين خاشعين.

ثم أجاب الله موسى مبينا أن عذابي أعذب به من أشاء ، وليس لأحد على اعتراض ؛ لأن الكل ملكي ، ومن تصرف في خالص ملكه ، فليس لأحد أن يعترض عليه.

وأما رحمتي فهي عامة لا نهاية لها ، ولا حد لسعتها ، وسعت كل شيء ، حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : جاء أعرابي ، فأناخ راحلته ، ثم عقلها (ربطها بالحبل) ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلته ، فأطلق عقالها (حبلها) ، ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا تشرك في رحمتنا أحدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتقولون : هذا أضل أم بعيره ، ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا : بلى ، قال : «لقد حظّرت رحمة واسعة ، إن الله عزّ وجلّ خلق مائة

رحمة ، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها ، وأخّر عنده تسعا وتسعين رحمة ، أتقولون : هو أضل أم بعيره».

وروى مسلم عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال : «إن الله عز وجل مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة».

ثم ذكر الله تعالى أوصافا ثلاثة لمن يستحق رحمته ، وهم المتقون ، المؤتون الزكاة ، المؤمنون بآيات الله تعالى.

قال بعض المفسرين : طمع في هذه الآية ـ أي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كل شيء حتى إبليس ، فقال : أنا شيء ؛ فقال الله تعالى : ﴿فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون ؛ فقال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ﴾ الآية. فخرجت الآية عن العموم.

وهذه الأوصاف الثلاثة التي خصصت بها الآية شملت كل ما يصدر عن الإنسان وهو التروك والأفعال ، أما التروك فهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها ، والاحتراز عنها والاتقاء منها ، وأما الأفعال فهي إما متوجهة على مال الإنسان أو على نفسه ، الأول ـ الزكاة ، والثاني ـ الإيمان ، وهو يدخل فيه ما يجب على الإنسان علما وعملا ، أما العلم فالمعرفة بالله ، وأما العمل فبالإقرار باللسان والعمل بالأركان ، ويدخل فيها الصلاة.

وأما صفات محمد ﷺ المقررة في التوراة والإنجيل فهي :

١ ـ كونه رسولا نبيا أميا : والرسول أخص من النبي ، وقدم الرسول اهتماما بمعنى الرسالة ، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم ، وكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ؛ لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ ، وافترقا في أمر خاص وهي الرسالة.

وأميته لإبطال دعاوى اختلاق القرآن من عند نفسه ، فكانت من المعجزات ، كما قال تعالى : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٤٨] ومع أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يكتب وما كان يقرأ ، كان يتلو كتاب الله بتعليم الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ، فكان ذلك أيضا معجزة ، كما قال تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ [الأعلى ٨٧ / ٦].

وكانت أمة العرب أميّة ، روي في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «إنا أمة أميّة ، لا نكتب ولا نحسب».

٢ ـ صفاته موجودة في التوراة والإنجيل : وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل ؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوبا ، لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفّرات لليهود والنصارى عن قبول قوله ؛ لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات ، ويترفع عنه العاقل ، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

٣ ، ٤ ـ مهمته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : قال عطاء : ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد (الشركاء) ، ومكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام. ﴿وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عبادة الأصنام ، وقطع الأرحام.

ويجمع الأمر بالمعروف قوله عليه الصلاة والسلام : «التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله» والنهي عن المنكر يشمل النهي عن عبادة الأوثان ، والقول في صفات الله بغير علم ، والكفر بما أنزل الله على النبيين ، وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين.

٥ ـ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ﴾ : قيل : المراد بالطيبات : الأشياء التي حكم الله بحلها. ومذهب مالك : أن الطيبات هي المحلّلات ، فكأنه وصفها بالطيب ؛

إذ هي لفظة تتضمن مدحا وتشريفا. ورد الرازي على ذلك باستبعاد هذا القول ؛ لأنه يترتب عليه التكرار ، فتصير الآية : ويحل لهم المحللات ، وبه تخرج الآية عن الفائدة ؛ لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟

بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات : الأشياء المستطابة بحسب الطبع ، وذلك لأن تناولها يفيد اللذة ، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع السليم الحل ، إلا لدليل. وهذا مذهب الشافعي أن الطيبات هي من جهة الطعم.

واحتج بهذه الآية بعض العلماء الذين ذهبوا إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها. وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته.

٦ . ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ : أي يمنعهم من اقتراب المستخبثات وهي كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس ، ويكون تناوله سببا للألم ، والأصل في المضار الحرمة. ومقتضاه : أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل.

والخبائث في مذهب مالك هي المحرمات ، ويقتضي ذلك أنه أحل المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها. وقد عرفنا وجه الضعف في ذلك ، وأن مذهب الشافعي هو تحريم المحرمات والمتقذرات ، فتحرم العقارب والخنافس والوزغ ونحوها.

٧ . ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يرفع عن بني إسرائيل التكاليف والأحكام الشاقة التي كانت مقررة عليهم ، مثل تحريم الغنائم ، وتحريم مجالسة الحائض وقرض موضع النجاسة ، والقصاص من القاتل بلا دية ، وقتل النفس علامة للتوبة ، فكانوا إذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء

فأكلتها ، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها ، وإذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضة ، وروي : وجلد أحدهم ، فأحل النبي ﷺ الغنائم ، وأباح مجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها ، ورخص بغسل البول ، وشرع الدية ، وقيّد القصاص في القتل العمد ، وجعل التوبة باللسان والقلب مع الله. ودلت الآية على أن من آمن بالنبي ﷺ وأيده وحماه وعظمه واتبع القرآن فهو من المفلحين أي الفائزين بالمطلوب في الدنيا والآخرة.

عموم الرسالة الإسلامية

﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿قُلْ﴾ خطاب للنبي ﷺ. ﴿وَكَلِماتِهِ﴾ القرآن. ﴿تَهْتَدُونَ﴾ ترشدون.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى وجود صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ، وذكر أن من يتبعه ، فله سعادة الدنيا والآخرة ، أوضح مزية الرسالة الإسلامية وهي أنها عامة شاملة ، وأن بعثته ﷺ للناس كافة ، يدعوهم فيها إلى الإيمان به وبرسالته ، وأن كل من يتبعه تشمله تلك السعادة.

التفسير والبيان :

قل يا محمد لجميع البشر من عرب وغيرهم ، بيض أو سود : إني رسول الله إليكم جميعا ، لا إلى قومي العرب خاصة ، وإلى كل وقت وزمن إلى يوم القيامة ، وهذا يقتضي أن يكون مبعوثا إلى جميع الناس ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٧] وقال : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٨] وقال : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٩] أي وأنذر كل من بلغه. ومطلع سورة الفرقان يؤكد عالمية الرسالة.

وجاءت الأحاديث الثابتة مؤكدة عموم الرسالة النبوية ، مثل حديث الصحيحين والنسائي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحلّت لي الغناء ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة».

﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ﴾ الذي له الملك التام والتصرف الكامل في السموات وفي الأرضين جميعها ، وله القدرة التامة على الإحياء والإماتة.

وقد تضمنت هذه الآية عناصر العقيدة الثلاثة : وهي توحيد الربوبية بالإيمان ، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل ، أي بعبادة الله وحده ، ثم الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ ، ثم الإيمان بالبعث بعد الموت ، وذلك معنى الإحياء والإماتة.

ورتب على ما سبق الدعوة إلى الإيمان فقال : ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ ...﴾ أي فصدقوا أيها الناس قاطبة بالله الواحد الأحد الفرد الصمد في ربوبيته وألوهيته ، وآمنوا برسوله النبي الأمي الذي بعثه إلى الخلق أجمعين.

وهو النبي الذي يؤمن بوحدانية الله وكلماته التشريعية التي أنزلها الله لهداية البشر ، وكلماته التكوينية الدالة على قدرته وإرادته وحكمته ، ويصدق قوله عمله ، ويؤمن بما أنزل إليه من ربه. فالمراد من كلماته : ما تضمنته كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن من أحكام وإرشادات وأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته.

وهذا أمر بالإيمان أتبعه بالأمر بالإسلام ، أي اتبعوا منهج هذا النبي ، واسلكوا طريقه في كل ما جاء به ، لتهتدوا إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ، أو رجاء أن تهتدوا بالإيمان واتباع الشرع إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

والحق أنه لأهدي صحيحا ثابتا إلا في القرآن ، ولا خير إلا في الدين ، ولا سعادة إلا باتباع شريعة خاتم النبيين ، وبمقدار الالتزام بالشريعة يكون النجاح في الدنيا والآخرة.

روى مسلم عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أن محمد ﷺ مبعوث إلى جميع الخلق ، وأن رسالته عامة للناس أجمعين ، بل لكل العالمين من الإنس والجن.

والمراد بالناس : هم المكلفون أي البالغون العقلاء ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن علي وعمر : «رفع القلم عن ثلاث : عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق».

والمقصود بالناس أيضا كل من وصل إليه خبر وجوده وخبر معجزاته وشرائعه ، وقلّ أن تجد قوما لم يبلغهم خبر ظهور محمد عليه الصلاة والسلام.

ودلت الآية أيضا على ما يثبت كونه عليه الصلاة والسلام رسولا إلى الناس جميعا ، وهو أنه مرسل من خالق العالم المتصف بالحياة والعلم والقدرة والوحدانية ، المنزه عن الشريك والوالد والولد ، القادر على الحشر والنشر والبعث والقيامة ، مالك السموات والأرضين ، المتصرف في الكون كيفما يشاء ، وأن الخلق كلهم عبيده ، وهو المنعم عليهم بأعظم النعم ، وأنه المجازي لهم بعد موتهم ، مما يقتضي تكليف الخلق بما يريد.

وما على الخلق إلا الإيمان بوحدانية الله وبربوبيته ، واتباع كلماته أي تشريعاته ، وليس من التشريع أمور الدنيا العادية من تدبير شؤون الزراعة والصناعة والتجارة المباحة والعلوم النافعة ، فتلك متروكة لعقول الناس ومعارفهم وخبراتهم ، لما ورد في الحديث الصحيح عند الشيخين : «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

ومن كلمات الله : المعجزات الدالة على كونه نبيا حقا ؛ لأن كل شيء غريب يسمى كلمة ، والمعجزات نوعان :

معجزات ظهرت في ذاته عليه الصلاة والسلام ، وأشرفها وأهمها كونه رجلا أميا ، لم يتعلم من أستاذ ، ولم يطالع كتابا ، ولم يجالس أحدا من العلماء.

ومعجزات صدرت عنه مثل انشقاق القمر ، ونبوع الماء من بين أصابعه.

وبه يكون المراد بقوله : ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ﴾ أي يؤمن بالله وبجميع المعجزات التي أظهرها الله عليه ، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه.

اتباع الحق لدى بعض قوم موسى ونعم الله على بني إسرائيل في

صحراء التيه

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾

الإعراب :

﴿وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً﴾ : إنما أنث اثنتي عشرة على تقدير أمة ، وتقديره : اثنتا عشرة أمة. و ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ : حال. و ﴿أَسْباطاً﴾ : بدل منصوب من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿أَسْباطاً﴾ منصوبا على التمييز ؛ لأنه جمع ، والتمييز لما عدا العشرة إنما يكون مفردا. و ﴿أُمَماً﴾ : صفة لقوله : ﴿أَسْباطاً﴾ كما ذكر ابن الأنباري. وقال الزمخشري عن كلمة «أمما» : بدل من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ بمعنى : وقطعناهم أمما ؛ لأن كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد. وقال : ﴿أَسْباطاً﴾ تمييز ، ووجه كونه مجموعا أنه وضع ﴿أَسْباطاً﴾ موضع قبيلة ؛ وكل قبيلة أسباط لا سبط.

المفردات اللغوية :

﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة. ﴿يَهْدُونَ﴾ يرشدون الناس ويدلونهم. ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الحكم ، أي يحكمون بين الناس بالعدل. ﴿قَطَّعْناهُمُ﴾ فرقنا بني إسرائيل وصيرناهم فرقا وقطعا. ﴿أَسْباطاً﴾ قبائل ، والأسباط : أولاد الأولاد ، جمع سبط وهو عندهم كالقبيلة في ولد إسماعيل. وأسباط بني إسرائيل : سلائل أولاده العشرة ما عدا لاوى ، وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما إفرايم ومنس ؛ لأن سلائل لاوى قامت بخدمة الدين في جميع الأسباط.

﴿إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ﴾ طلبوا منه الماء للسقيا في التيه. ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ انفجرت. ﴿اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ بعدد الأسباط. ﴿كُلُّ أُناسٍ﴾ سبط منهم. ﴿وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ﴾ جعلنا الغمام يظلهم في التيه ، والغمام : سحاب رقيق أو أبيض أو السحاب مطلقا. ﴿الْمَنَ﴾ مادة بيضاء تنزل على ورق الشجر وغيره كالندى ، حلوة المذاق كالعسل. ﴿وَالسَّلْوى﴾ طير يشبه السّماني ، لكنه أكبر منه.

المناسبة :

بعد أن رغب الله سبحانه بني إسرائيل باتباع ملة محمد ﷺ عن طريق إنزال الرحمة عليهم ووصفهم بأنهم المفلحون ، ذكر ثلاثة أحوال لهم ، الحال الأولى : أن بعضهم اتبعوا موسى بحق واتبعوا أيضا محمدا ﷺ ، والتزموا الحق وقضوا به ، والحال الثانية : قسمتهم اثنتي عشرة فرقة بعدد أسباطهم الاثني عشر ، والحال الثالثة : انفجار الحجر اثنتي عشرة عينا بقدر عدد الأسباط لما طلبوا السقيا من موسى عليه السلام ، وتظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى عليهم.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى بأن طائفة من بني إسرائيل يتبعون الحق ويعدلون به ، وهم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل ، آمنوا بموسى عليه السلام ، وآمنوا بمحمد ﷺ ، فهم جماعة قوموا أنفسهم بالإيمان ، وأرشدوا الناس إليه ودلوهم عليه ، وهدوهم بالحق الذي جاءهم من عند الله ، ويعدلون بالحق بينهم في الحكم ، لا يجورون ، كما قال تعالى : ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ ، يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران ٣ / ١١٣] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ ...﴾ الآية [آل عمران ٣ / ١٩٩] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً﴾ [آل عمران ٣ / ٧٥].

والخلاصة : الخبر في هذه الآية متعلق بجماعة مؤمنة من بني إسرائيل في عصر موسى ، وبعد عصره ، وهم أصناف ثلاثة : صنف أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به ، وهم المشار إليهم في آية : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة ٢ / ١٢١]. وصنف آمنوا بموسى واتبعوا من بعده من الأنبياء ، وهم المذكورون في الآية هنا ، وصنف محتمل للقسمين ، كما في الآية المتقدمة : ﴿يَتْلُونَ آياتِ اللهِ ...﴾.

وهذه شهادة عظيمة من الله تعالى تثبت وجود أهل الحق والعدل في كل أمة ، وهذه هي الحال الأولى لبني إسرائيل.

والحال الثانية : أنه تعالى صيّر قوم موسى اثنتي عشرة فرقة أو قبيلة تسمى أسباطا ، أي أمما وجماعات ، تمتاز كل جماعة منهم بنظام خاص بها في المعيشة وممارسة شؤون الحياة.

والحال الثالثة : حال الأسباط إزاء نعم الله تعالى عليهم ، والنعمة الأولى : إغاثة الله لهم ، حينما طلبوا من موسى السقيا ، وقد عطشوا في التيه ، فأوحى الله إلى موسى : ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ﴾ ، فضربه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، كل سبط له عين خاصة به ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ﴾ أي سبط مشربهم منه. والفرق بين الانبجاس والانفجار أن الأول : خروج الماء بقلة ، والثاني : خروجه بكثرة.

والنعمة الثانية : تظليل الغمام ، فكانوا إذا اشتد عليهم الحر في الصحراء ، يسخر الله تعالى لهم الغمام أي السحاب ، يظلهم بظله الظليل ، رحمة من الله.

والنعمة الثالثة : إنزال المن والسلوى : فكان الطعام الشهي ينزل عليهم بسهولة ، دون عناء ولا مشقة ، وهو المن الذي كان يقوم مقام الخبز عندهم وهو

مادة حلوة الطعم يجتمع كالندى على ورق الشجر وغيره صباحا ، والسلوى : يقوم مقام سائر اللحوم ، وهو طير أكبر من السّمانى.

ثم قيل لهم : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ ، فهي نعم خصصناها بكم ، فما عليكم إلا شكر النعمة.

﴿وَما ظَلَمُونا﴾ بكفرهم بهذه النعم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ؛ لأن المكلف إذا أقدم على المعصية ، فهو ما أضر إلا نفسه ، حيث عرّض نفسه للعقاب الشديد ، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ ..﴾ على أن الإسلام لا عصبية فيه. وأن الله تعالى يعلمنا طريق الحكم على الناس والأشياء ، وهو طريق الحق والعدل ، فهو الحكم الموضوعي المجرد ، وهو الحكم الأبقى والأخلد. إنها شهادة عظيمة من الله تعالى لجماعة من بني إسرائيل أنهم التزموا الحق والعدل في أنفسهم ومع غيرهم ، فآمنوا بالنبي موسى عليه‌السلام وبمن بعده من الأنبياء ، وقضوا بين الناس بالعدل ، ودعوا الناس إلى الهداية بالحق.

وهذه المزية أيضا قائمة في أمة النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، فقد أنزل الله على نبيه محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم ليلة الإسراء بعد رجوعه إلى الدنيا : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨١] يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فالله يعلمه أن الذي أعطيت موسى في قومه أعطيتك في أمتك.

ودلت آية ﴿وَقَطَّعْناهُمُ﴾ على قسمة بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة ؛ لأنهم كانوا من اثني عشر رجلا من أولاد يعقوب ، فميزهم وفعل بهم ذلك ، لئلا يتحاسدوا ، فيقع بينهم الهرج والمرج. ولا شك أن القسمة تريح من عناء

الاختلاف والنزاع في استيفاء المنافع ، وليكون أمر كل سبط معروفا من جهة رئيسهم ، فيخف الأمر على موسى.

وأرشد قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى ...﴾ إلى النعم العظمى التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، وهي : أولا ـ الشرب في التيه من ينابيع تفجرت اثنتي عشرة عينا بعدد الأسباط ، بضرب موسى الحجر ، وهذه معجزة خارقة له ، كمعجزة العصا واليد وفلق البحر لإنجائهم من فرعون وقومه. وثانيا ـ تظليل الغمام. وثالثا ـ إنزال المن والسلوى ، وقد أباح الله لهم تلك الطيبات ، وسهل لهم الطعام والشراب.

ولكن بني إسرائيل لم يشكروا تلك النعم العظيمة ، وجحدوا بها ، وظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي ، وكانوا فاسقين لخروجهم عن طاعة الله تعالى.

أمر بني إسرائيل بسكنى القرية (بيت المقدس)

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾

الإعراب :

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ﴾ هذا مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ومن قرأ يغفر وتغفر ، رفع خطيئاتكم على أنه نائب فاعل. ومن قرأ يغفر بالياء بالتذكير فلوجود الفصل ب ﴿لَكُمْ﴾. ومن قرأ بالتاء بالتأنيث فعلى الأصل ، ولم يعتبر الفصل.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ واذكر إذ قيل ﴿الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿حِطَّةٌ﴾ أي أمرنا حطة أي حط عنا أوزارنا وخطايانا ﴿الْبَابَ﴾ أي باب القرية ﴿سُجَّداً﴾ سجود انحناء ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة ثوابا ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ...﴾ فقالوا : حبة في شعرة ، ودخلوا يزحفون على أستاههم ﴿رِجْزاً﴾ عذابا.

المناسبة :

بعد أن عدد الله تعالى أحوال بني إسرائيل وأصناف النعم التي أنعم بها عليهم ، وجحودهم لها وظلمهم أنفسهم ، ناسب أن يذكر نوعا آخر من أنواع العصيان أو الظلم ومخالفة أمر الله ، وهو دخول القرية بقول معين (حطة) وهيئة معينة (ساجدين) فالمناسبة بين الآيات واضحة وهي تبيان أحوال الظلم من هؤلاء القوم ، لذا ختمت الآيتان بإثبات صفة الظلم فيهم.

التفسير والبيان :

سبق بيان هذه القصة في سورة البقرة في الآيتين (٥٨ ، ٥٩) مع اختلاف في الألفاظ فقط ، ليتناسب ذلك مع بلاغة القرآن وكمال الإعجاز ؛ لأن تكرار اللفظ نفسه غير بليغ ، والبلاغة تقتضي إبراز المعنى الواحد بأساليب مختلفة وألفاظ متنوعة.

وقد ذكر الرازي ثمانية وجوه للمخالفة في الألفاظ بين السورتين [1] ، وهي ما يأتي ، علما بأنه لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ، ولا تناقض فيهما :

١ ـ هنا قال : ﴿اسْكُنُوا﴾ وهناك قال ﴿ادْخُلُوا﴾ والفائدة هنا أتم ؛

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ٣٤ وما بعدها.

لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس ، فمن يسكن يدخل قطعا ، وليس العكس.

٢ ـ قال هنا : ﴿وَكُلُوا﴾ وهناك قال : ﴿فَكُلُوا﴾ لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول ، فيحسن ذكر فاء التعقيب بعده. وأما الواو فيدل على أن الأكل حاصل مع السكنى لا بعده.

٣ ـ وصف الأكل هناك بقوله : ﴿رَغَداً﴾ أي واسعا هنيئا ، ولم يذكر الوصف هنا ؛ لأن الأكل للقادم في أول الدخول يكون ألذ وأمتع ، وتهفو النفس إليه عادة ، أما بعد طول المقام والانتظار فلا يحدث إلا عند الحاجة الشديدة وتكامل اللذة ، فترك قوله : ﴿رَغَداً﴾ فيه.

٤ ـ قدم هنا قول ﴿حِطَّةٌ﴾ على الدخول ، وعكس الأمر هناك ، ولا فرق بين التعبيرين ؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، فسواء دعوا أولا ثم أظهروا الخضوع بالسجود أي تنكيس الرؤوس ، أو أعلنوا التواضع والخضوع أولا ثم دعوا بقولهم : ﴿حِطَّةٌ﴾ ؛ لأن المقصود تعظيم الله تعالى ، وإظهار الخضوع والخشوع.

٥ ـ قال هنا : ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ﴾ وقال هناك : ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ﴾ وكلا الجمعين سواء ، وفيهما إشارة إلى أن مغفرة الذنوب تشمل القليل والكثير.

٦ ـ قال هنا : ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بدون واو ، وهناك ذكر الواو : ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعطف ، والمعنى واحد ، لكن ترك الواو الذي يفيد الاستئناف أدل على أن زيادة الإحسان مستقلة عن المغفرة بعد الدعاء ، تفضلا من الله تعالى ، وأن الموعود به شيئان : المغفرة وزيادة الحسنة.

٧ ـ قال هنا : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً﴾ وقال هناك في سورة البقرة

﴿فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والإنزال لا يشعر بالكثرة ، والإرسال يشعر بها ، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ، ثم جعله كثيرا.

٨ ـ قال هنا : ﴿بِما كانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وقال هناك : ﴿بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾ إشارة إلى حصول الوصفين منهم ، فهم ظالمو أنفسهم ، وهم فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى ، ثم إن الظلم فيه معنى الاعتداء على الغير ، والفسق فيه معنى الخروج عن الدين.

وزيد هنا كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ولم تذكر هناك ، وزيادتها تأكيد في البيان. ومعنى التبديل أنهم تجرؤوا على المخالفة التامة بالقول والفعل ، دون اجتهاد ولا تأويل.

والمعنى العام للآية : أن الله تعالى يذكّر بني إسرائيل المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم بما حصل من أسلافهم ، وهم ملومون مثلهم لرضاهم بأفعال الأسلاف ، فقد أمرهم الله بأن يدخلوا القرية وهي بيت المقدس أو قرية غيرها ، والعرب تسمي المدينة قرية ، داعين الله أن يغفر ذنوبهم ، ومظهرين الخضوع والخشوع لله تعالى ، وقد وعدهم الله بشيئين : الغفران وزيادة الإحسان. ولكن طبيعة اليهود التي يغلب عليها العصيان والتمرد أبت عليهم إلا تحدي الأمر الإلهي ، والتنكر له ، والتجرؤ على المخالفة بالقول والفعل ، فقالوا : حبّة في شعرة ، بدل حطة وزحفوا على أستاههم ، بدل تنكيس رؤوسهم وخشوعهم وتواضعهم لله ، شكرا له على نعمه عند دخول القرية ، والتنعم بخيراتها من طعام وفاكهة وشراب.

وماذا كانت النتيجة المنتظرة؟ النتيجة أن الله تعالى صب عليهم عذابا من السماء صبا ، بسبب ظلمهم أنفسهم وغيرهم ، وفسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى إلى طاعة أهوائهم وشياطينهم ، ولسخريتهم من أوامر الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن العبرة واضحة من هذه الواقعة أو القضية ، وهي أن الله تعالى يعاقب الناس على ذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة ، فما عليهم إلا الابتعاد عن الظلم والفسق ؛ فقد عاقب الله بني إسرائيل على ظلمهم وفسقهم ، بالرغم من فضائلهم ، ككثرة الأنبياء فيهم ، وتفضيلهم على العالمين ، أي عالمي زمانهم.

حيلة اليهود على صيد الأسماك يوم السبت

وعقاب المخالفين

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (١٦٦)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتعلق بسأل ، وتقديره : سلهم عن وقت عدوهم في السبت ، وهو مجرور بدل من القرية ، و ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ : بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى ، ويجوز نصبه بيعدون ، و ﴿شُرَّعاً﴾ : منصوب على الحال من ﴿حِيتانُهُمْ﴾ ، والعامل فيه : ﴿تَأْتِيهِمْ﴾.

﴿مَعْذِرَةً﴾ مفعول لأجله ، فكأنهم لما قالوا : لم تعظون؟ ﴿قالُوا : مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ﴾ أي لمعذرة إلى ربكم. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : موعظتنا معذرة.

﴿بِعَذابٍ بَئِيسٍ﴾ على وزن فعيل ، مصدر «بيس» وتقديره : بعذاب ذي بيس ، أي : ذي بوس ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

المفردات اللغوية :

﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ يا محمد توبيخا عما وقع لأهل القرية ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ هي أيلة ، وخليج أيلات معروف اليوم وقيل : مدين ، وقيل : طبرية ، والمراد بالقرية : أهلها ، والعرب تسمى المدينة قرية ، وعن أبي عمرو بن العلاء : ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعني رجلين من أهل المدن ﴿حاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة مجاورة للبحر الأحمر (بحر القلزم) على شاطئه ، وهي أيلة ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يعتدون ويتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم في يوم السبت ، وقد نهوا عنه. و ﴿السَّبْتِ﴾ : مصدر سبتت اليهود : إذا عظمت سبتها بترك الصيد وغيره من الأعمال ، والاشتغال بالعبادة ، والمعنى : يعدون في تعظيم السبت. وكذلك قوله : ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت.

﴿حِيتانُهُمْ﴾ سمكهم ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة ﴿شُرَّعاً﴾ ظاهرة على الماء ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ﴾ لا يعظمون السبت أي سائر الأيام ﴿لا تَأْتِيهِمْ﴾ ابتلاء من الله ﴿كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم ، ومعنى ﴿نَبْلُوهُمْ﴾ نختبرهم. ولما صادوا السمك يوم السبت بحيلة حجزه وراء حواجز يوم الجمعة ، افترقت القرية أثلاثا : ثلث صادوا معهم ، وثلث نهوهم ، وثلث أمسكوا عن الصيد والنهي.

﴿وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ﴾ معطوف على ﴿إِذْ﴾ قبله ، والأمة منهم : الجماعة منهم وهي التي لم تصد ولم تنه كمن نهى ﴿قالُوا : مَعْذِرَةً﴾ أي موعظتنا معذرة نعتذر بها إلى الله ، لئلا ننسب إلى تقصير في ترك النهي ، أي قيامنا بعذر أنفسنا عند ربنا بقصد التنصل من الذنب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الصيد.

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا ﴿ما ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وعظوا به ، أي تركوه ترك الناس ، وأعرضوا عنه إعراضا تاما ، فلم يرجعوا عن المخالفة ﴿السُّوءِ﴾ العمل الذي تسوء عاقبته ﴿بَئِيسٍ﴾ شديد ، مأخوذ من البأس وهو الشدة ، أو من البؤس وهو المكروه ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يخرجون عن الطاعة.

﴿عَتَوْا﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿خاسِئِينَ﴾ صاغرين. أما الفرقة الساكتة فقال ابن عباس : ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة. وقال عكرمة : لم تهلك ؛ لأنها كرهت ما فعلوه ، وقالت : ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾؟ وروى الحاكم عن ابن عباس : أنه رجع إلى قول عكرمة وأعجبه.

المناسبة :

تذكر الآيات نوعا آخر من مخالفات اليهود وعصيانهم ، فبعد أن ذكرت قصتهم في دخول القرية ، ذكرت قصة احتيالهم على صيد الأسماك. وقد ذكرت

هذه القصة في سورة البقرة إجمالا في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [٦٥] وأشير إليها في سورة النساء أيضا في الآيتين [٤٧ ، ١٥٤]. وذكرت قبل ذلك هنا في سورة الأعراف التي نزلت بمكة قبل ملاقاة النبي ﷺ أحدا من اليهود ، للدلالة على الإعجاز ؛ لأن النبي ﷺ كان رجلا أميا ، لم يتعلم علما ، ولم يطالع كتابا ، فإخباره بالقصة معجز ، ودليل على أن ذلك من إخبار الله وكلامه.

وهناك فائدة أخرى من إيراد القصة : وهو التنبيه على أن الكفر بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس شيئا جديدا حادثا في هذا الزمان ، وإنما كان الكفر والإصرار حاصلا في أسلافهم من الزمان القديم.

أضواء من التاريخ على القصة :

روي أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه ، واختاروا يوم السبت ، فابتلوا به ، وحرّم عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرّعا بيضا سمانا ، كأنها المخاض ، لا يرى الماء من كثرتها ، ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس ، فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا حياضا تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ، فلا تقدر على الخروج منها ، وتأخذونها يوم الأحد. وأخذ رجل منهم حوتا ، وربط في ذنبه خيطا إلى خشبة في الساحل ، ثم شواه يوم الأحد ، فوجد جاره ريح السمك ، فتطلع في تنوره ، فقال له : إني أرى الله سيعذبك ، فلما لم يره عذب ، أخذ في السبت القادم حوتين ، فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم ، صادوا وأكلوا ، وملّحوا ، وباعوا ، وكانوا نحوا من سبعين ألفا.

فصار أهل القرية أثلاثا : ثلث نهوا وكانوا نحوا من اثني عشر ألفا ، وثلث قالوا : لم تعظون قوما؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة.

فلما لما ينتهوا ، قال المسلمون : إنا لا نساكنكم ، فقسموا القرية بجدار ، للمسلمين باب ، وللمعتدين باب ، ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس شأنا ، فنظروا ، فإذا هم قردة ، ففتحوا الباب ، ودخلوا عليهم ، فعرفت القرود أنسباءهم من الإنس ، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود ، فجعل القرد يأتي نسيبه ، فيشم ثيابه ويبكي ، فيقول : ألم ننهك؟ فيقول برأسه : بلى. وقيل : صار الشباب قردة والشيوخ خنازير.

وعن الحسن البصري : أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها ، أثقلها خزيا في الدنيا ، وأطولها عذابا في الآخرة ، هاه ، وايم الله ، ما حوت أخذه قوم فأكلوه ، أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ، ولكن الله جعل موعدا ، ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ﴾[1].

التفسير والبيان :

واسأل يا محمد يهود عصرك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، والسؤال للتوبيخ والتقريع ، وبيان أن كفر المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس جديدا ، بل هو موروث ، فإن أسلافهم ارتكبوا الذنب العظيم ، وخالفوا أوامر الله تعالى.

وحذرهم من مخالفتك لئلا يحل بهم ما حل بسلفهم.

اسألهم عن أهل المدينة التي كانت قريبة من البحر على شاطئه ، وهي أيلة على شاطئ البحر الأحمر ، بين مدين والطور ، حين اعتدوا حدود الله ، وتجاوزوها يوم السبت الذي يعظمونه ، بترك العمل فيه ، وتخصيصه للعبادة ،

---

(١) انظر القصة في الكشاف : ٢ / ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

فخالفوا أمر الله فيه بالوصية لهم به إذ ذاك ، واصطادوا السمك فيه ، وقد نهوا عنه.

فكان السمك يأتيهم كثيرا على سطح الماء يوم تعظيم السبت ، ولا يحتاج صيده إلى عناء.

ويوم لا يسبتون ، في سائر الأيام غير السبت ، تختفي الأسماك ولا تظهر ، ولا تأتيهم كما كانت تأتيهم يوم السبت.

فاحتالوا على صيدها بإقامة الأحواض حيث يأتي المد بالسمك ثم إذا انحسر الماء بالجزر ، تبقى الأسماك في الأحواض ، فيأخذونها يوم الأحد.

مثل ذلك البلاء بظهور السمك يوم السبت المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم في الأيام التي يحل لهم صيده ، نبلو أي نختبر السابقين والمعاصرين ، ونعاملهم معاملة من يختبر حالهم ، ليجازى كل واحد على عمله ، بسبب فسقهم المستمر وخروجهم عن طاعة الله ؛ لأن من سنة الله أن من أطاعه ، سهل له أمور الدنيا ، وأثابه في الآخرة ، ومن عصاه ، ابتلاه بأنواع المحن والمصائب.

وحين ظهور المعصية فيهم ، انقسم أهل تلك القرية فرقا ثلاثا ، هي فرقة المؤيدين ، وفرقة المعارضين الواعظين ، وفرقة المحايدين الذين لم يجدوا فائدة من الوعظ ولاموا الواعظين قائلين لهم : لم تعظون قوما قد قضى الله بإهلاكهم وإفنائهم ، وقد علمتم أن الله سيهلكهم ويعاقبهم في الدنيا والآخرة.

فأجابهم الواعظون : نعظهم لنبرئ أنفسنا من السكوت عن المنكر ، ونعتذر إلى ربكم بأننا أدينا واجبنا في الإنكار عليهم ، ونحن لا نيأس من صلاحهم وعودتهم إلى الحق ، ولعلهم بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ، أنجينا الناهين عن السوء وهم فريق الواعظين وفريق اللائمين ، إلا أن الفريق الأول كانوا أحزم وأقوى ؛ لأنهم أنكروا بالقول والفعل ، لذا صرح القرآن بنجاة الناهين ، والفريق الثاني أنكر بالقلب فقط ، لذا سكت القرآن عن الساكتين ، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ، ولا ارتكبوا ذنبا ، فيذموا.

وعذبنا الظالمين الذين ارتكبوا المعصية بعذاب شديد.

وذلك العذاب أنهم لما عتوا أي تمردوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ، وأبوا سماع نصيحة الواعظين ، جعلهم الله قردة صاغرين أذلاء منبوذين مبعدين عن الناس. هذا عذاب الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

والظاهر وهو رأي الجمهور أنهم مسخوا قردة على الحقيقة ؛ لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان ، لا لمجرد اصطياد الحيتان. وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا وانقطع نسلهم؟ لا دلالة في الآية عليه.

وقال مجاهد : أصبحوا كالقردة في سوء الطباع والطيش والشر والإفساد ، بسبب جناياتهم.

والراجح رأي العلماء الذين قالوا : إن الساكتين كانوا من الناجين ؛ لرجوع ابن عباس إلى رأي عكرمة في نجاة الساكتين ، وقد رجح ابن كثير هذا الاتجاه ، قائلا : وهذا أولى من القول بأنهم من الهالكين ؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات في هذه القصة على ما يأتي :

١ ـ الإخبار بالقصة علامة لصدق النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم. وكانوا يقولون : ﴿نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة ٥ / ١٨] ؛ لأنا

من سبط خليله إبراهيم ، ومن سبط إسرائيل ، ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزيز ، فنحن من أولادهم ، فقال الله عَزَّجَلَّ لنبيه : سلهم يا محمد عن هذه القرية : أما عذبتهم بذنوبهم؟

٢ . إبطال الحيل الممنوعة المؤدية لتعطيل شرع الله ، وهدم مبادئه ، وتجاوز أحكامه ، ومخالفة أوامره.

٣ . القول بسدّ الذرائع ، أي تحريم كل وسيلة تؤدي إلى الممنوع أو المحظور شرعا ، فما أدى إلى الحرام فهو حرام.

٤ . إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتزال أهل الفساد ومجانبتهم ، وأن من جالسهم ، كان مثلهم.

٥ . دل قوله : ﴿كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ على أن من أطاع الله تعالى ، خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة ، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن. وهذا يعني أن المعاصي سبب النقمة.

٦ . واحتج أهل السنة بالآية على أنه تعالى لا يجب عليه رعاية الصلاح والأصلح ، لا في الدين ولا في الدنيا ؛ لأنه تعالى علم أن تكثير الحيتان يوم السبت ، ربما يحملهم على المعصية والكفر ، فلو وجب عليه رعاية الصلاح والأصلح ، لوجب أن لا يكثر هذه الحيتان في ذلك اليوم ، صونا لهم عن ذلك الكفر والمعصية.

٧ . الفرقة التي عصت أوامر الله ، وتمادت في معصية الله ، كانت هالكة ، والفرقة التي أنكرت العصيان ووعظت العصاة ، كانت ناجية. وأما الفرقة الساكتة فكانت على الراجح من الناجين ، لإنكارها بالقلب ، ويأسها من الإصلاح.

٨ . قد لا يأتي العذاب الشديد فجأة ، وإنما بالتدريج ، فقد عاقب الله بني إسرائيل أولا بتنكيل البابليين ، ثم النصارى بهم ، وسلبوا ملكهم. ومن ألوان عذاب الدنيا : المسخ قردة وخنازير بسبب التمادي في العصيان ، ثم يأتي عذاب الآخرة.

رفع الجبل فوق اليهود وإذلالهم إلى يوم القيامة وتفريقهم في الأرض واستثناء الصالحين

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾

الإعراب :

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ﴾ دون : صفة لموصوف محذوف ، وتقديره : ومنهم جماعة دون ذلك ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، وهو منصوب على الظرف. ﴿أُمَماً﴾ مفعول ثان أو حال ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ صفة أو بدل منه.

﴿وَرِثُوا الْكِتابَ﴾ : جملة فعلية في موضع رفع ؛ لأنها صفة ﴿فَخَلَفَ﴾.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من واو ﴿وَرِثُوا﴾.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ الجملة حال من ﴿وَيَقُولُونَ ..﴾.

﴿وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنا﴾ معطوف على ﴿يَأْخُذُونَ﴾.

﴿وَدَرَسُوا﴾ معطوف على ﴿وَرِثُوا الْكِتابَ﴾.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَ﴾ اعتراض وقع بين : ورثوا ودرسوا. ﴿أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَ﴾ عطف بيان لميثاق الكتاب.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ﴾ في موضع رفع لأنه مبتدأ ، وخبره : ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وتقديره : إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم ، ليعود من الخبر إلى المبتدأ عائد. ويجوز أن يكون ذكر ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾ من قبيل وضع المظهر موضع المضمر أي أجرهم ، تنبيها على أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ وإذ : في موضع نصب بتقدير فعل ، وتقديره : واذكر إذ نتقنا.

﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿الْجَبَلَ﴾. وقيل : في موضع رفع بتقدير مبتدأ محذوف.

البلاغة :

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، لزيادة لتوبيخ.

المفردات اللغوية :

﴿تَأَذَّنَ﴾ مثل أذّن : أي أعلم ونادى للإعلام ﴿لَيَبْعَثَنَ﴾ ليسلطن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود ﴿يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ﴾ يذيقهم سوء العذاب بالذل وأخذ الجزية ، فبعث عليهم سليمان ، وبعده البابليين المجوس بقيادة بختنصر ، فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية ، ثم النصارى ، ثم

المسلمين ، ثم الألمان في العصر الحديث ﴿لَسَرِيعُ الْعِقابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

﴿وَقَطَّعْناهُمْ﴾ فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَماً﴾ أي جماعات وفرقا ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ﴾ أي ناس منحطون عنهم وهم الكفار والفساق ﴿وَبَلَوْناهُمْ﴾ اختبرناهم ﴿بِالْحَسَناتِ﴾ بالنّعم ﴿وَالسَّيِّئاتِ﴾ النقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن فسقهم. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ بسكون اللام : من يخلف غيره في الشر ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ ...﴾ [مريم ١٩ / ٥٩] وبفتح اللام : من يخلف غيره بالخير ، والخلف : مصدر نعت به ، ولذلك يقع على الواحد والجمع ، وقيل : جمع ﴿وَرِثُوا الْكِتابَ﴾ التوراة عن آبائهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى﴾ العرض : متاع الدنيا وحطامها ، والأدنى : الشيء الدني وهو الدنيا ، والمراد يأخذون المال أو هذا الشيء الدنيء من حلال وحرام.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ الجملة حال ، أي يرجون المغفرة ، وهم عائدون إلى ما فعلوه ، مصرون عليه ، وليس في التوراة وعد المغفرة مع الإصرار ، وإنما غفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة ، والمصرّ لا غفران له.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ استفهام تقرير ﴿مِيثاقُ الْكِتابِ﴾ الإضافة بمعنى في ، وهو قوله في التوراة : من ارتكب ذنبا عظيما ، فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة. ﴿وَدَرَسُوا ما فِيهِ﴾ عطف على : ﴿يُؤْخَذْ﴾ أي قرءوه وفهموه ، فهم عارفون الحكم ذاكرون له. فلم كذبوا عليه بنسبة المغفرة مع الإصرار ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الحرام. ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أو بالياء : أنها خير ، فتؤثروها على الدنيا. ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد والتخفيف أي يتمسكون به ويعملون ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ واذكر إذ رفعنا الجبل من أصله ﴿ظُلَّةٌ﴾ أي مظلة وهي كل ما أظلك من سقف أو سماء أو جناح طائر ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم ، بإنذار الله لهم بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة ، وكانوا أبوها لثقلها ، فقبلوا. ﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ﴾ أي قلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد. ﴿وَاذْكُرُوا ما فِيهِ﴾ بالعمل به.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى بعض قبائح اليهود وعقابهم عليها بالمسخ قردة ، ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة ، عقابا على

أفعالهم ، ثم ذكر أنه فرقهم جماعات مشردين في الأرض ، وأن خلفهم جماعة ماديون تهمهم الدنيا فقط ، وأن أسلافهم قبلوا الأخذ بالتوراة بعد إنذارهم بإسقاط الجبل عليهم. وهذا كله للعبرة ، فكل أمة تفسق عن أمر الله وتخالف أحكام الدين مهددة بمثل هذا العقاب.

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد حين أعلم ربك أسلاف اليهود على لسان أنبيائهم أنه قضى عليهم في علمه وأوجب على نفسه ، ليسلطنّ عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم العقاب الشديد ، ويلحق بهم الذل والصغار ، ويفرض عليهم الجزية ، ويبدد ملكهم ، ويفرق شملهم ، حتى يصبحوا أذلة مشردين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ﴾ لمن عصاه وخالف شرعه ، وإنه لغفور لمن تاب إليه وأناب ، ورحيم بأهل الطاعة والإنابة.

وقد تحقق مدلول الآية ، فكان موسى عليه السلام أول من فرض الخراج عليهم ، وألزمهم به ، ثم قهرهم اليونانيون والكشدانيون والكلدانيون والبابليون ، ثم الروم النصارى ، أخذوا منهم الجزية والخراج ، ثم المسلمون الذين أخذوا منهم الجزية والخراج ، ثم الألمان بقيادة هتلر في العصر الحديث ، الذي قتلهم وشردهم في البلاد.

والآية بمعنى قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ إلى أن قال : ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا﴾ [الإسراء ١٧ / ٤ ـ ٨] أي وإن عدتم إلى الإفساد بعد المرة الآخرة ، عدنا إلى التعذيب والإذلال.

وأما وجود اليهود في فلسطين الآن فهو أمر عارض مؤقت زائل بإذن الله ، لثقتنا بوعد الله وكلامه.

هذا هو العقاب الأول على معاصي اليهود المتكررة وتمردهم على أحكام الله ، وهو تسليط الأمم عليهم لإذلالهم وتعذيبهم.

والعقاب الثاني : هو تفريقهم وتمزيقهم جماعات وطوائف وفرقا في أنحاء الأرض ، فلا يخلو منهم قطر من الأقطار ، فيهم الصالح وغير ذلك.

فمنهم الصالحون المحسنون الذين يؤمنون بالأنبياء بعد موسى ، ويؤمنون بمحمد ﷺ ، ويؤثرون الآخرة على الدنيا ، مثل أولئك الذين نهوا عن الاعتداء في السبت ، ومثل عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا.

ومنهم من هو دون غيره في الصلاح ، ومنهم الفسقة الفجرة الكفرة الذين كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ومنهم السماعون للكذب الأكّالون للسّحت كالرشا والربا لتبديل الأحكام والقضاء بغير ما أنزل الله. وفي الجملة : معنى ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ﴾ أي منحطون عن الصلاح ، وهم كفرتهم وفسقتهم.

والله يعامل الفريقين كما يعامل غيرهم ، فيختبرهم بالحسنات أي بالنعم وبالسيئات أي بالنقم ، لعلهم يرجعون عن ذنبهم ، ويشكروا النعمة ، ويصبروا على النقمة.

ثم ظهر من الصالحين ومن دونهم خلف ورثوا التوراة عن أسلافهم ، أي تلقفوا ما فيها من الأحكام وقرءوها واطلعوا على ما فيها. وهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ ، ولكنهم هجروها وآثروا الدنيا ومتاعها وزينتها وتفانوا في جمع حطامها ، لا يبالون ، حلالا كان أو حراما أي من غير طريق شرعي ، كالسحت والرشوة والمحاباة في الحكم والاتجار في الدين وتحريف الكلم عن مواضعه ، وزعموا أن الله سيغفر لهم ولا يؤاخذهم على أفعالهم وسيئاتهم ، قائلين : إننا أبناء الله وأحباؤه ، وسلائل أنبيائه ، وهم مقيمون على المعاصي ، مصرون على الذنوب ، لا يتورعون عن ضم الحرام إلى غيره ، فإن يأتهم عرض آخر من عروض الدنيا مثل

الذي أخذوه أولا بالباطل ، يأخذوه بلهف دون تعفف ، وهم يعلمون أن وعد الله بالمغفرة مخصوص بالتائبين الذين يقلعون عن ذنوبهم.

فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ ...﴾ أي أن الله تعالى ينكر عليهم صنيعهم هذا ؛ لأنه قد أخذ عليهم العهد والميثاق ألا يقولوا على الله غير الحق ، فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي يصرون عليها ولا يتوبون منها ، وهذا هو المذكور في التوراة : من ارتكب ذنبا عظيما فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ، ومن جملة الميثاق أن يبينوا للناس الحق ولا يكتمونه ، وألا يحرفوا الكلم ولا يغيروا الشرائع لأجل أخذ الرشوة ، وهم قد درسوا الكتاب (التوراة) وفهموا ما فيه ، من تحريم أكل مال الغير بالباطل والكذب على الله.

ثم رغبهم الله في جزيل ثوابه ، وحذرهم من وبيل عقابه ، فقال :

ألم يعلموا أن الدار الآخرة وما فيها من نعيم خالد خير للذين يتقون المعاصي ومحارم الله ، ويتركون هوى نفوسهم ، ويقبلون على طاعة ربهم ، إنها خير من حطام الدنيا الفاني الذي يؤخذ بطريق الحرام كالرّشا والسحت وغير ذلك ، أفلا تعقلون؟ أي أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي من ثواب عقل يردعهم عماهم فيه من السفه والتبذير؟!

والخلاصة : أن الدار الآخرة خير من ذلك العرض الخسيس.

وفي هذا إيماء إلى أن الطمع في متاع الدنيا هو الذي أفسد بني إسرائيل ، وفي هذا عبرة للمسلمين الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

ثم أثنى الله تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ ...﴾ أي والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الإلهي ، ويعتصمون به ، ويقتدون بمنهجه ، ويتركون زواجره ، وأقاموا الصلاة ، وخصها بالذكر مع أن الكتاب يشتمل على كل عبادة ،

ومنها إقامة الصلاة ؛ إظهارا لعلو مرتبتها ، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان ، وأنها عماد الدين ، والفارقة بين الكفر والإيمان.

﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع أجرهم ؛ لأن المصلحين في معنى ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٣٠].

وبعد أن بيّن الله تعالى مخالفة بني إسرائيل لأحكام دينهم ذكّر ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم ، فقال : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ...﴾ أي واذكر أيها النبي إذ رفعنا فوقهم جبل الطور لقوله : ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة ٢ / ٦٣ ـ ٩٣] ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء ٤ / ١٥٤] ، وأصبح كأنه سقيفة ، لما أبوا أن يقبلوا التوراة لثقلها ، وعلموا وأيقنوا أنه ساقط عليهم ؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو ، ولأنهم كانوا يوعدون به ، وقلنا لهم : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بجد واجتهاد ، وحزم وعزم على احتمال المشاق والتكاليف.

واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهي ، ولا تنسوه ، أو : واذكروا ما فيه من الإعداد للثواب والعقاب ، فترغبوا في الثواب العظيم ، وترهبوا من العقاب الشديد ، رجاء أن تتحقق التقوى في قلوبكم ، فتصبح أعمالكم متفقة مع الدين ، وفي ذلك الفلاح لكم ، أو لتتقوا ما أنتم عليه ، فإن قوة العزيمة في إقامة الدين تزكي النفوس وتهذيب الأخلاق ، كما أن التهاون في احترام الدين يغري النفوس على اتباع الشهوات ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ [الشمس ٩١ / ٩ ـ ١٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات واردة في حق اليهود الذين بقوا على الكفر واليهودية ، فأما الذين آمنوا بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فخارجون عن هذا الحكم.

وقد دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ إعلام اليهود الأسلاف ومن باب أولى الخلف أنهم إن غيروا نصوص التوراة ، ولم يؤمنوا بالنبي الأمي ، بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة.

وهذا تنصيص على أن ذلك العذاب مستمر إلى يوم القيامة ، وهو يقتضي أن العذاب إنما يحصل في الدنيا. وللعذاب ألوان ومظاهر ، فهو إما أخذ الجزية ، وإما الاستخفاف والإهانة والإذلال لقوله تعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا﴾ [آل عمران ٣ / ١١٢] وإما الإخراج والإبعاد من الوطن. وقد أذاقهم العذاب أمم كثيرة في الماضي من عهد بختنصّر ، إلى العهد الإسلامي ، وإلى العصر الحديث. وأما دولة إسرائيل فلا يحسد موقفها فهي تبع لإمريكا والغرب ، وتعيش في قلق واضطراب ومخاوف ، فلا تنعم بالأمن والاستقرار ، ولا تهدأ ساحتها ، لا في الداخل ولا في الخارج ، وزوالها محقق مع الزمن ، كما يثبت أهل العلم ، فإن مرور الزمان ليس في صالحهم إطلاقا.

٢ ـ اليهود أمة مشتتة ممزقة مفرقة في أنحاء الأرض ، لا يخلو منهم قطر ، منهم الصلحاء ومنهم الكفرة الفسقة الفجرة ، وقد اختبرهم الله بأنواع عديدة من الاختبارات ، أو عاملهم معاملة المختبر ، فأمدهم بالحسنات أي بالخصب والعافية ، والسيئات ، أي الجدب والشدائد ، ليرجعوا عن كفرهم ويتوبوا من فسقهم. قال أهل المعاني : وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة ، أما النعم فلأجل الترغيب ، وأما النقم فلأجل الترهيب.

٣ ـ أولاد الذين فرّقهم الله في الأرض ، ورثوا التوراة كتاب الله ، فقرءوه وعلموه ، وكانوا خلف سوء ، خالفوا أحكامه وارتكبوا محارمه ، مع دراستهم له ، فاستحقوا التوبيخ والتقريع من الله تعالى.

ومن قبائحهم : ماديتهم الطاغية ، وربما هم الذين علّموا أوربا وأمريكا

النزعة المادية الشديدة ، فهم كانوا يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا من حلال أو حرام ، لشدة حرصهم ونهمهم : ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى﴾ ويزعمون أنه سيغفر لهم مع بقائهم على المعاصي ، بل إنهم لا يتوبون ، وقد ذمهم الله على اغترارهم بقولهم : ﴿سَيُغْفَرُ لَنا﴾ مع أنهم مصرون على الذنوب.

وإن جاءتهم عروض أخرى دنيوية وهي الرّشا والمكاسب الخبيثة ، أخذوها أيضا. وفي هذا دلالة على أن الطمع في الدنيا هو سبب فساد اليهود. قال الحسن البصري : هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا ، وأنهم لا يستمتعون منها [١].

وقال القرطبي : وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا ، أسند الدارمي أبو محمد عن معاذ بن جبل قال : «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما سيبلى الثوب فيتهافت ، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصّروا قالوا : سنبلغ ، وإن أساؤوا قالوا : سيغفر لنا ، إنا لا نشرك بالله شيئا» [٢].

٤ ـ أخذ الله العهد والميثاق على بني إسرائيل في التوراة وفي جميع الشرائع على اتباع قول الحق في الشرع والأحكام ، وألا يميل الحكام بالرّشا إلى الباطل. وهذا عهد أيضا على المسلمين في كتاب ربنا وسنة نبينا.

ثم خالف اليهود الميثاق ، مع أنهم قرءوا التوراة ، وهم قريبو عهد بها. قال ابن زيد : كان يأتيهم المحقّ برشوة ، فيخرجون له كتاب الله ، فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة ، وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم ، وحكموا له.

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٤

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ٣١١ ـ ٣١٢

٥ ـ المتمسكون بكتاب الله ، والمقيمو الصلاة ، لهم أجرهم الجزيل عند ربهم ، لا يضيع من حسناتهم شيء.

٦ ـ من قبائح اليهود أنهم رفضوا الأخذ بالتوراة لغلظها وثقلها ، ولم يعودوا للعمل بما فيها إلا بتهديدهم بإسقاط جبل الطور عليهم. وقد سبق بيان قصة الجبل في سورة البقرة (٦٣ ، ٩٣) وفي سورة النساء (١٥٤).

الميثاق العام المأخوذ على بني آدم

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾

الإعراب :

﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ إذ : في موضع نصب ؛ لأنه يتعلق بقولهم : ﴿قالُوا : بَلى﴾ وقيل : بتقدير : اذكر. و ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ : بدل من ﴿بَنِي آدَمَ﴾ بإعادة الجار ، وهو بدل بعض من كل ، وتقديره : وإذ أخذ ربك من ظهورهم من بني آدم ذرياتهم.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب على المفعول له أي لأجله ، وتقديره : لئلا يقولوا ، أو كراهة أن تقولوا.

البلاغة :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب ، والأصل : وإذ أخذنا ، والمقصود تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له. والإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبُّكَ﴾ فيها تكريم وتشريف.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ : واذكر حين أخذ أي أخرج ، وإنما عبّر به ، لما فيه من الاصطفاء والانتقاء ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ جمع ظهر : وهو ما فيه العمود الفقري للإنسان ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ سلالتهم ذكورا وإناثا ، بأن أخرج بعضهم من صلب بعض ، من صلب آدم ، نسلا بعد نسل ، كنحو ما يتوالدون كالذر ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ أخذ منهم شهادة على أنفسهم ، والشهادة: إما قولية ، كما قال : ﴿شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٠] أو حالية ، كما قال : ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ ، شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة ٩ / ١٧] أي حالهم شاهدة عليهم بذلك ، لا قائلين.

﴿بَلى شَهِدْنا﴾ أي بلى أنت ربنا ، شهدنا بذلك ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي أن الإشهاد لئلا تقولوا أيها الكفار ﴿عَنْ هذا﴾ التوحيد ﴿غافِلِينَ﴾ لا نعرفه.

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي فاقتدينا بهم ؛ لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذرا ﴿أَفَتُهْلِكُنا﴾ تعذبنا ﴿بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا بتأسيس الشرك. المعنى : لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد. والتذكير به على لسان النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قائم مقام ذكره في النفوس.

﴿وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ مثل ذلك البيان للميثاق نبينها ، ليتدبروها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم أو عن التقليد واتباع الباطل.

المناسبة :

لما شرح الله تعالى قصة موسى عليه‌السلام مع توابعها ، ذكر في هذه الآية ما هو حجة على جميع المكلفين. وبعد أن ذكر الميثاق الخاص على اليهود بقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة ٢ / ٦٣] وقوله : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ ذكر هنا الميثاق العام الذي أخذه على بني آدم جميعا وهم في صلب آدم.

والمقصود من هذا الكلام هاهنا إلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم ، والاحتجاج عليهم بالحجج النقلية والعقلية ، ومنعهم عن التقليد ، وحملهم على النظر والاستدلال.

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد للناس جميعا ما أخذه الله على البشر كافة من ميثاق يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا الله ، وذلك حين أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم كما تثبت الآية ، ومن آدم نفسه كما ثبت في الخبر (١) ، أي استخرج من بني آدم ذريتهم أو سلالتهم ، وخلقهم على فطرة التوحيد والإسلام.

وأشهد كل واحد على نفسه من هؤلاء الذرية قائلا لهم قول إرادة وتكوين ، لا قول وحي وتبليغ : ألست بربكم؟ فقالوا بلسان الحال ، لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة.

وسبب هذا الإشهاد هو ألا يعتذروا يوم القيامة إذا أشركوا : إنا كنا عن التوحيد غافلين ، أي لم ينبهنا إليه أحد ، فلا عذر لكم بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله ، ووجود العقل ، وتكوين الفطرة.

وخلق الناس على فطرة التوحيد مقرر في آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٣٠] وفي الصحيحين ما يؤيد ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «كل مولود يولد على الفطرة» وفي رواية : «على هذه الملة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». والجمعاء : السليمة الخلقة ، والجدعاء : المقطوعة بعض الأعضاء.

---

(١) وهو ما رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «لما خلق الله آدم مسح ظهره. فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ...».

وقد اختلف العلماء في هذه الآية آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ...﴾ على رأيين : رأي السلف ، ورأي الخلف. أما السلف من المفسرين فقالوا : إن الله خلق آدم وأخرج من ظهره ذريته كالذر ، وأحياهم وجعل لهم عقلا وإدراكا ، وألهمهم ذلك الحديث وتلك الإجابة ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم ، فأقروا بذلك ، وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة لا يخلو بعضها من ضعف وانقطاع ، وقال به جماعة من الصحابة (١).

وأما الخلف فقالوا : هذا من قبيل التمثيل والتصوير ، والمجاز والاستعارة فلا سؤال ولا جواب ، وإنما أقام الله الأدلة الكونية على وحدانيته وربوبيته للكون كله ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه قال للخلق : أقروا بأني ربكم ، ولا إله غيري ، وكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وقال لهم : ألست بربكم؟ فقالوا : بلى (٢). وهذا ما اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود والبيضاوي. وقال عنه الرازي : لا طعن فيه البتة.

وحدد ابن كثير دلالة الأحاديث ، فقال : هذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلا في حديث ابن عباس ، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، وهما موقوفان لا مرفوعان ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد ، إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ، وقد فسر الحسن الآية بذلك.

قالوا : ولهذا قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل : من آدم ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ٤٦ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦١ ـ ٢٦٤.

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال : «لو قالوا : نعم ، لكفروا» لأن «نعم» تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب ، فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم ، بخلاف «بلى» فإنها حرف جواب ، وتختص بالنفي وتفيد إبطاله ، والمعنى : بلى أنت ربنا ، ولو قالوا : نعم ، لصار المعنى : نعم لست ربنا.

﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل : من ظهره ذرياتهم أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن. ثم قال : ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا : بَلى﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا ، والشهادة تكون بالقول ، كقوله : ﴿قالُوا : شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا﴾ الآية ، وتارة تكون حالا ، كقوله تعالى : ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ ، شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة ٩ / ١٧] أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات ١٠٠ / ٧].

فالمراد من الآية أن الله تعالى جعل الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد حجة مستقلة عليهم ، ولهذا قال : ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة : ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا﴾ أي التوحيد ﴿غافِلِينَ﴾ أي لم ننبه إليه ﴿أَوْ تَقُولُوا : إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا﴾ الآية.

وإني لميّال لهذا الرأي ، وهو أولى الآراء بالصواب.

﴿أَوْ تَقُولُوا : إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا ...﴾ أي إن سبب الإشهاد لمنع اعتذارهم يوم القيامة بغفلتهم عن التوحيد ، أو بادعائهم التقليد ، وقولهم : إن آباءنا أشركوا من قبلنا ، ونحن خلف لهم ، نجهل بطلان شركهم ، وقد قلدناهم في أعمالهم واعتقادهم ، مع حسن الظن بهم ، ولم نهتد إلى التوحيد.

أفتهلكنا بالعذاب وتؤاخذنا بما فعله المبطلون من آبائنا؟! ولكن الله لا يقبل عذرهم أبدا ؛ لأن التقليد في الاعتقاد وأصول الدين لا يجوز.

ومثل ذلك التفصيل البليغ الواضح للميثاق ، نفصل للناس الآيات البينات ، ليتدبروها بعقل وبصيرة ، ولعلهم يرجعون بها عن شركهم ، وجهلهم ، وتقليدهم الآباء والأجداد.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ خلق الله البشر على فطرة التوحيد أي الإقرار بأن الله ربهم وأنه واحد لا شريك له.

٢ ـ لا يعذر الإنسان بالجهل بخالقه ، لما يرى من الدلائل ، فمن لم تبلغه دعوة رسول لا يعذر يوم القيامة في الشرك بالله ، ولا بفعل الفواحش التي تنفر منها الطباع السليمة وتدرك ضررها العقول الرشيدة.

٣ ـ إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأول ، ومن بلغ عاقلا لم يغنه الميثاق الأول ، وبناء عليه : أطفال المشركين في الجنة.

٤ ـ إبطال حجة المشركين يوم القيامة بأنه لم يأتهم رسول ينبههم إلى التوحيد ، وإبطال التقليد للآباء والأجداد في أصول العقيدة والدين ، فكما لا يقبل الاعتذار بالجهل لقيام الأدلة على التوحيد ، لا يقبل الاعتذار بالتقليد ، بعد قيام الأدلة الفطرية والعقلية على معرفة الله ووحدانيته.

٥ ـ في كتاب الله تعالى وهو القرآن تفصيل كل شيء ، فكما فصل الله في الآية بناء الإنسان على فطرة التوحيد ، بيّن سائر الآيات ليتدبرها الناس ، فيرجعوا إلى الحق ، ويعرضوا عن الباطل.

قصة بلعم بن باعوراء وأمثاله الضالين المكذبين

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾

الإعراب :

﴿يَلْهَثْ﴾ في الموضعين ، حال ، أي لاهثا ذليلا بكل حال.

﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ : فاعل ﴿ساءَ﴾ مقدر فيها ، وتقديره : ساء المثل مثلا. و ﴿الْقَوْمُ﴾ : أي مثل القوم ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وارتفع بما كان يرتفع به «مثل». وهو يرتفع إما لأنه مبتدأ وما قبله خبره ، وإما لأنه خبر مبتدأ محذوف ، كقولهم : بئس رجلا زيد ، أي هو زيد ، و ﴿مَثَلاً﴾ : منصوب على التمييز.

﴿وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾ إما معطوف على قوله ﴿كَذَّبُوا﴾ فيصير المعنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم ، وإما كلام منقطع بمعنى : وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب.

البلاغة :

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ تشبيه تمثيلي ، شبه حاله التي هي مثل في السوء كحال أخس الحيوانات ، وهي حالة الكلب في دوام لهثه ، سواء في حالة التعب أو الراحة ، والتشبيه التمثيلي : هو حالة انتزاع الصورة من متعدد.

﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

﴿وَاتْلُ﴾ اقرأ ﴿نَبَأَ﴾ خبر مهم ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ خرج من الآيات بكفره ، كما تخرج الحية من جلدها ، وهو بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل ، الذي دعا على موسى مقابل هدية من اليهود. وعبر بالانسلاخ للدلالة على كمال مباينته للآيات ، بعد أن كان بينهما كمال الاتصال ، كما قال أبو السعود.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ﴾ أدركه ولحقه فصار قرينه ﴿الْغاوِينَ﴾ الراسخين في الغواية والضلالة ، بعد أن كان من المهتدين ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها﴾ لو شئنا لرفعناه إلى منازل العلماء ، بأن نوفقه للعمل ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ركن إلى الدنيا ومال إليها ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ في دعائه إليها ، فأصبح من الحقيرين ﴿فَمَثَلُهُ﴾ صفته ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ تشد عليه بالطرد والزجر ﴿يَلْهَثْ﴾ للهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان. والقصد : التشبيه في الخسة والحقارة.

﴿ذلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ بعد أخذ الميثاق عليهم وعلى الناس ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ على اليهود ﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ أي بئس وقبح ، والمثل : الصفة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بالتكذيب.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أخذ الميثاق على الناس قاطبة ، وإقرارهم بأن الله ربهم ، ضرب المثل للمكذبين بآياته المنزلة على رسوله ، ومضمون هذا المثل أن العالم بآيات الله غير العامل بها كالحية تنسلخ من جلدها وتتركه على الأرض.

قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رضي الله عنهم : نزلت هذه الآية في بلعم بن باعوراء.

التفسير والبيان :

واقرأ أيها الرسول على اليهود خبر الذي علمناه آياتنا ، ولكنه لم يعمل بها ، وتركها وراءه ، وتجرد منها إلى الأبد ، فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له ، وتمكن من الوسوسة له ، فأصغى إليه ، فصار من الظالمين الكافرين ، لميله إلى الدنيا واتباع الهوى والشيطان.

وهو عالم من علماء بني إسرائيل ، وقيل : من الكنعانيين ، وروي عن ابن عباس أنه رجل من اليمن ، اسمه بلعم بن باعوراء ، أوتي علم بعض كتب الله ، فانسلخ منها ، وكفر بآيات الله ، ونبذها وراء ظهره.

وذلك أن موسى عليه السلام قصد بلده الذي هو فيه ، وغزا أهله وكانوا كفارا ، فطلبوا منه أن يدعو على موسى عليه السلام وقومه ، وكان مجاب الدعوة ، وعنده اسم الله الأعظم ، فامتنع منه ، فما زالوا يطلبونه منه ، حتى دعا عليه ، فاستجيب له ، ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه [١]. وقال مالك بن دينار : كان من علماء بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه في الشدائد ، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين ، يدعوه إلى الله ، فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه ، وترك دين موسى عليه السلام [٢].

﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ﴾ بالآيات ، وجعلنا له منزلة عظيمة من منازل العلماء الأبرار ، بأن نوفقه للهداية والعمل بالآيات.

ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها ورغب فيها واهتم بلذائذها ، واتبع هواه ، فلم يوجه همّه إلى نعيم الآخرة ، ولم يهتد بآياتنا ، ولم ترق نفسه إلى سلّم الكمال الروحي ، ولم يحترم نعمة الله عليه باستعمالها في مرضاته.

وأصبح مثله أو صفته في الذلة والحقارة ، والخسة والدناءة كمثل الكلب أو صفته في أخس أحوالها وأذلها ، وهي حال دوام اللهث به ، سواء حمل عليه أي شد عليه وطرد ، أو ترك دون طرد.

وهذه الصفة هي أقبح حالات الكلب وأخسها ، وقد شبّه بها حال عجيبة غريبة ، هي حال ذلك الذي تجرد من معرفة آيات الله تعالى.

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٤.

ذلك المثل الغريب هو مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله ، واستكبروا عنها ، ولم تنفعهم الموعظة ، وهم اليهود بعد ما قرءوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة ، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ، وكانوا يستنصرون أو يستفتحون به ، وجاء القرآن المعجز كاشفا هذه الحقيقة التي أنكرها اليهود بعد بعثة النبي ﷺ .

فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل الذي تشبه حاله حال المكذبين بآياتنا ، لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعم وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته ، بسبب استعماله نعمة الله في تعليمه الاسم الأعظم . الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب . في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، لعلهم يتفكرون فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن الله أعلمهم بصفة محمد ﷺ ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته.

ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، أي قبحت أشد القبح صفة المعرضين عن النظر في آيات الله أن شبهوا بالكلاب التي لا هم لها إلا تحصيل أكلة أو شهوة ، وهم بهذا الإعراض كانوا ظالمين لأنفسهم بالتكذيب ، فما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى.

وقد ذكر سوء هذا المثل في السنة ، فقد ثبت في الصحيح وفي الكتب الستة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

فقه الحياة أو الأحكام :

الهدف من هذه القصة ضرب مثل لجميع الكفار ، المعرضين عن الإيمان بالله والرسول بعد ما عرفوا الحق ، فمن آتاه الله العلم والدين ، فمال إلى الدنيا ، و ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ، كان مشبّها بأخس الحيوانات ، وهو الكلب اللاهث ، حيث واظب على العمل الخسيس والفعل القبيح ، لا لحاجة أو ضرورة.

وشبّه حال كل كافر بحال رجل عرف آيات الله ، ثم تركها وراء ظهره ، وهذا ينطبق على بلعم بن باعوراء أو غيره ممن اتصف بهذه الصفة ، فلم تعين الآية اسم من ضرب به المثل ، وحينئذ لا يهم سواء أكان ذلك مطابقا لبعض الروايات بأنه رجل من بني إسرائيل أم الكنعانيين أم أهل اليمن ، أم من غيرهم.

وتكون الآية تحذيرا للناس عن اتباع أهوائهم ، وركونهم إلى الدنيا وشهواتها ، واتباع الأغراض الدنيئة ، وترك ما أرشدتهم إليه آيات الله من الإيمان بالله وبرسوله وبالآخرة.

والآية واضحة الدلالة على أن المعرض عن آيات الله ، واقع في الضلالة والغواية ، بسبب سوء فعله ، واختياره العمل بما هو قبيح شرعا ومروءة.

وعلى الإنسان الاعتبار بهذه القصة ، والتأمل والتفكر في آيات الله بعين البصيرة والعقل ، لا بالهوى والحقد والعداوة. وفي إيراد هذا المثل والتشبيه بالصورة الواقعية إشارة إلى أن للأمثال تأثيرا قويا في إقناع السامعين ، وأنها أقوى أثرا من إيراد الحجج والبراهين.

وفيها إشارة أيضا إلى أهمية التفكر ، وأنه مبدأ الوصول إلى الحقيقة والعلم والمعرفة الصحيحة ، كما قال تعالى في مناسبات كثيرة في كتابه ، مثل : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٤٢] ومثل : ﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٢٤].

وهذه الآية ـ كما قال الرازي ـ من أشد الآيات على أصحاب العلم ، فإن العالم إذا لم يعمل بعمله ، حرم بركة العلم ، وكان بعده عن الله أعظم ، كما نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال فيما رواه الديلمي في الفردوس عن علي رضي الله عنه : «من ازداد علما ، ولم يزدد زهدا ، لم يزدد من الله إلا بعدا» أو كما قال.

أسباب الهداية والضلالة

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٧٩)﴾

الإعراب :

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ حمل على اللفظ ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ حمل على المعنى ، والقصد من الإفراد في الأول والجمع في الثاني : هو التنبيه على أن المهتدين كواحد ؛ لاتحاد طريقهم ، بخلاف الضالين.

البلاغة :

﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا﴾ خلقنا وأوجدنا ﴿الْجِنِ﴾ مخلوقات خفية لا تدرك بالحواس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ أي لا يفهمون بها الحق ، والقلب هنا هو الذي يسمونه أحيانا (الضمير) ويراد به هنا العقل أو الوجدان أي محل الحكم على الأشياء المدركة ، وسبب هذا الاستعمال أن آثار الأحداث من خوف أو سرور تنعكس عليه ، فيحدث الانقباض أو الانشراح. وكثيرا ما يستعمل في القرآن بمعنى دقة الفهم والتعمق في العلم.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها﴾ دلائل قدرة الله ، بصر عظة واعتبار ﴿وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾ الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ﴾ في عدم الفهم والبصر والاعتبار ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُ﴾ من الأنعام ؛ لأنها تحرص على ما ينفعها ، وتهرب مما يضرها ، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ﴿الْغافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

المناسبة :

بعد أن ضرب الله المثل للمنسلخ من الدين الخارج منه ، ليتعظ أولئك الضالون ، ويتركوا ضلالهم ، ويعودوا إلى الحق ، بيّن أسباب الهدى والضلال ، من استعمال العقل والحواس ، واستخدام هداية الفطرة في سلوك أحد السبيلين : الخير والشر ،كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٩٠ / ١٠].

التفسير والبيان :

من يوفقه الله للإيمان والخير واتباع الشرع والقرآن باستعمال عقله وحواسه ، فهو المهتدي حقا لا سواه ، ومن يخذله ولا يوفقه ، ولا يهديه إلى الخير واتباع القرآن ، بسبب تعطيل عقله وحواسه في فهم آياته الكونية والشرعية ، فهو الخاسر البعيد عن الهدى ، الذي خسر الدنيا والآخرة.

وبما أن الهداية الإلهية نوع واحد والضلالة أنواع متعددة ، أفرد الله المهتدي ، وجمع الخاسرين ، فقال : ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ ثم قال : ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾.

ثم أوضح تعالى ما أجمله بالنسبة لأهل الضلالة فقال : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا﴾ أي أن الله تعالى يقسم بأنه خلق أو أوجد خلقا ﴿كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ مستعدين لعمل يستحق دخول جهنم ، وخلق أيضا خلقا آخرين مستعدين لعمل يدخلهم الجنة ،كما قال في بيان مآل الفريقين : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى ٤٢ / ٧] وقال في بيان مصيرهم يوم القيامة : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود ١١ / ١٠٥].

وأسباب استحقاق أهل النار دخول جهنم : هي أنهم لا يستعملون عقولهم استعمالا صحيحا للوصول إلى حقيقة الإيمان ، وإدراك لذة السعادة الدنيوية

والأخروية ، وأن الخير فيما أمر الله به ، وأن الشر فيما نهى عنه الله ، وإنما نظرتهم ظاهرية ، كما قال تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٧] فهم بمنزلة من لا يفقه ؛ لأنهم لا ينتفعون بقلوبهم الواعية ، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا.

وهم أيضا لا ينظرون بأعينهم نظر تبصر واعتبار وإمعان في آيات الله الكونية وآياته القرآنية التي ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم.

ولا يسمعون بآذانهم سماع تدبر وإصغاء آيات الله المنزلة على أنبيائه ، ولا يسمعون أخبار التاريخ والأمم الغابرة ، وكيف كان مصيرهم بسبب إعراضهم عن هداية الله وإرشاد الرسل. وليس الغرض من نفي السمع والبصر نفي الإدراكات عن حواسهم ، وإنما المقصود بيان حجبها عن إبصار الهدى وسماع المواعظ.

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ ، أَفَلا يَسْمَعُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ، فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة ٣٢ / ٢٦ ـ ٢٧].

أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم وحواسهم هم كالأنعام (البقر والإبل والغنم) لا همّ لهم إلا الأكل والشرب والتمتع بلذات الحياة والدنيا ، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ منها ؛ لأن الأنعام تحرص على ما ينفعها ، وتنفر مما يضرها ، ولا تسرف في أكلها وشربها ، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ، وهم مسرفون في جميع اللذات ، ولا يهتدون إلى ثواب ، ولا قدرة للحيوانات على تحصيل الفضائل ، وأما الإنسان فأعطي القدرة على تحصيلها.

أولئك هم كاملو الغفلة عن آيات الله وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم فيما

خلقت من أجله ، وهو الاستفادة من المسموعات ، والانتفاع من المبصرات ، وهم الأغبياء الجاهلون الذين لا ينظرون إلى المستقبل ، وإنما انصرفوا إلى الحياة الدنيا ، وتركوا الاشتغال بما يؤهلهم للخلود في نعيم الحياة الآخرة. وعلى هذا تكون غفلتهم بمعنى ترك التدبر ، والإعراض عن الجنة والنار.

أما العقلاء الفطنون فهم الذين عملوا للآخرة ، ولم يهملوا ما تتطلبه الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

يرى المعتزلة أن الهداية والضلالة باختيار الإنسان ، وأما هذه الآية : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ﴾ فهي في المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم ، ونظرا لإيغالهم في الكفر وإصرارهم عليه ، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار ، جعلهم الله مخلوقين للنار ، فالآية تدل على توغلهم في موجبات النار ، وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخولها (١).

ويرى أهل السنة أن الآية تدل على أن الهداية من الله ، وأن الضلال من الله تعالى ، فمن هداه الله ، فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم : «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده

---

(١) الكشاف : ١ / ٥٨٨.

لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» [١].

قال البيضاوي عن قوله تعالى : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ : تصريح بأن الهدى والضلال من الله ، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض [٢].

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا﴾ فيدل في رأي أهل السنة على أن الله تعالى خلق الأفعال أو الأعمال ، فإن أولئك الكفار استعملوا عقولهم وحواسهم في مصالح الدنيا ، ولم يستخدموها في مصالح الدين ، فما كانوا يفقهون بقلوبهم ما يحقق مصالح الدين ، وما كانوا يبصرون ويسمعون ما يرجع إلى مصالح الدين. والمعنى أن الله خلق في المؤمن القدرة على الإيمان ، وخلق في الكافر القدرة على الكفر [٣] ، والعبد وجّه تلك القدرة إما إلى الإيمان وإما إلى الكفر ، ولم يجبره تعالى على اختيار أحد الأمرين ، وإلا لما كان عدلا حسابه وعقابه.

قال ابن كثير في تفسير آية : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا﴾ أي خلقنا وهيأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء».

والخلاصة : يرى المعتزلة أن الإنسان يخلق أفعال نفسه ، وأن الإنسان مخيّر مطلقا ، ويرى أهل السنة والجماعة أن الله تعالى هو الذي يخلق أفعال العبد ، وأن

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٧.

(٢) تفسير البيضاوي : ص ٢٢٩.

(٣) تفسير الرازي : ١٥ / ٦٠ ـ ٦٣.

للإنسان تخييرا وكسبا في أمور ما عدا الحياة والموت والعز والذل والرزق ونحوها من الأصول ؛ وذلك لأن الله هو خالق الخلق ومتصف بالعدل ، فيخلق أفعال الإنسان ، ومن الظلم أن يحاسبه على فعل أكره عليه أو قهر عليه ، والهداية من الله لها مفهومان : الدلالة ، والتمكين من الوصول إلى الغاية ، أي أن تعالى أرشد الإنسان ودلّه على طرق الخير : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٩٠ / ١٠] ثم وفقه لهدفه ومكنه من الوصول إليه بهداية أخرى ، فمن سأل شرطيا عن طريق فدله عليه ، فتلك الهداية الأولى ، وإذا ركب معه في سيارته ، وأوصله إلى المكان المطلوب فذلك هو التمكين من الهداية الثانية ، والإنسان هو الذي يوجّه ما خلق الله فيه من قدرات في الخير والشر إلى كل منهما ، وبهذا التوجيه يحاسب وعليه يعاقب.

واستدل العلماء بقوله تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٩] على أن محل العلم هو القلب ؛ لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم ، مما يدل على أن محل الفهم والفقه هو القلب.

أسماء الله الحسنى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾

المفردات اللغوية :

﴿الْأَسْماءُ﴾ جمع اسم : وهو ما يدل على الذات أو هو كل لفظ جعل للدلالة على المعنى إن لم يكن مشتقا ، فإن كان مشتقا فهو صفة ﴿الْحُسْنى﴾ مؤنث الأحسن ﴿فَادْعُوهُ بِها﴾ سمّوه ونادوه بها للثناء عليه أو لطلب الحاجات منه ﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ﴾ يميلون عن الحق ، حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم ، كاللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة : من المنان.

صل الإلحاد في كلام العرب : العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف. ومنه اللحد في القبر انحرافه إلى جهة القبلة ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ سيلقون في الآخرة جزاء أعمالهم.

المناسبة :

لما وصف الله تعالى المخلوقين لجهنم بأنهم هم الغافلون ، لتعطيل عقولهم ومشاعرهم في فهم آيات الله وتزكية نفوسهم بالإيمان والعلم النافع ، أمر بعده بذكر لله تعالى ، فهو الدواء لتلك الغفلة ، فقال : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾ وهو كالتنبيه على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله تعالى ، والمخلّص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى.

وقد ذكرت أسماء الله تعالى الحسنى في سور أربعة : أولها : هذه السورة ، وثانيها : في آخر سورة الإسراء (بني إسرائيل) في قوله : ﴿قُلِ : ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ، أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [الإسراء ١٧ / ١١٠] ، وثالثها : في أول طه ، وهو قوله : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [طه ٢٠ / ٨] ، ورابعها : في آخر الحشر ، وهو قوله : ﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٤].

سبب النزول :

روي أن بعض المسلمين دعا الله أو الرحيم في صلاته ، ودعا الرحمن مرة أخرى فقال المشركون : محمد وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربا واحدا ، فما بال هذا يدعو اثنين ، فأنزل الله عزوجل هذه الآية ، أي أن هذه الأسماء إله واحد ، وليست بآلهة متعددة.

التفسير والبيان :

لله دون غيره جميع الأسماء المشتملة على أحسن المعاني ، فنادوه بها إما للثناء عليه ، مثل : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٥] ومثل : ﴿هُوَ

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٢] وإما للسؤال وطلب الحاجات.

وأسماء الله الحسنى تسع وتسعون ، جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن لله تسعا وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر» ومعنى «أحصاها» عدها وحفظها وتفكر في مدلولها. وقد ذكر الترمذي والحاكم هذه الأسماء من طريق الوليد بن مسلم عن شعيب ، فقال بعد قوله : «يحب الوتر» :

«هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصوّر ، الغفار ، القهار ، الوهّاب ، الرزّاق ، الفتّاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعزّ ، المذلّ ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدّم ، المؤخّر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البرّ ، التواب ، المنتقم ، العفوّ ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المانع (١) ، الضارّ ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور» (٢).

---

(١) وفي رواية : المغني.

(٢) قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة. والراجح لدى المحدثين أن سرد هذه الأسماء مدرج من الراوي ، كما حقق الحافظ ابن حجر.

والمراد من الأسماء في الآية والحديث : التسميات بلا خلاف ، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى ، منها ما يستحقه لنفسه ، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به ، ومنها صفات لذاته ، ومنها صفات أفعال.

وهذه الأسماء عند العلماء توقيفية ، فلا يسمى باسم لم يرد في القرآن والسنة كالرفيق والسخي والعاقل.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي اتركوا أولئك الذين يلحدون في أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن الحق ، إلى سبل أخرى من تحريف أو تأويل ، أو شرك ، أو تكذيب ، أو زيادة أو نقصان ، أو ما ينافي وصفها بالحسنى.

والإلحاد يكون بثلاثة أوجه :

أحدها ـ بالتغيير فيها كما فعله المشركون ، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه ، فسمّوا بها أوثانهم ، فاشتقوا اللّات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان.

الثاني ـ بالزيادة فيها ، أي التشبيه ، فالمشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه.

الثالث ـ بالنقصان منها أي التعطيل ، فالمعطلة سلبوه ما اتصف به ، كما يفعل الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه ، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله ، إلى غير ذلك مما لا يليق به.

والسبب في تركهم أنهم سيلقون جزاء عملهم ، ويعاقبون في الدنيا قبل الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١ ـ الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى ؛ لأن قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يفيد الحصر.

٢ ـ أسماء الله ليست إلا لله ، والصفات الحسنى ليست إلا لله ، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال ، وهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال وجلال ، فإنه لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه.

والأسماء : ألفاظ دالة على المعاني ، فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها ، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال ، وهي محصورة في نوعين : عدم افتقاره إلى غيره ، وثبوت افتقار غيره إليه.

وأسماء الله تعالى يجوز إطلاقها كلها على غير الله تعالى ، ما عدا اسمي : الله والرحمن.

وهذه الأسماء منها ما يمكن ذكره وحده ، مثل : يا الله ، يا رحمن ، يا حكيم. ومنها ما لا يجوز إفراده بالذكر ، بل يجب أن يقال : يا محيي يا مميت ، يا ضار يا نافع.

ولا يجوز إطلاق اسم على الله غير وارد في القرآن والسنة ، فهي أسماء توقيفية ، ولا تنحصر في تسع وتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد ، وأبو حاتم بن حبان البستي في صحيحة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «ما أصاب أحدا قط همّ ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته

أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدل مكانه فرجا» فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها؟ فقال : «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها».

وقد أورد ابن العربي مائة وستة وأربعين اسما من أسماء الله للتضرع والابتهال ، وذكر في موضع آخر زيادة ثلاثين اسما [1]. فصار المجموع مائة وستة وسبعين ، مثل الطيّب والمعلّم والجميل : وهو الذي لا يشبهه شيء.

٣ ـ لله أسماء حسنة ، يجب على الإنسان أن يدعو الله بها ، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية ، كما تبين ، فيجوز أن يقال : يا جواد ، ولا يجوز أن يقال : يا سخي ، يا عاقل ، يا طبيب ، يا فقيه.

٤ ـ الاسم غير المسمى ؛ لأن أسماء الله كثيرة ، ولا شك أن الله واحد منها ، فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى.

لذا قال جماعة من العلماء : المراد بهذه الأسماء التسميات ؛ لأنه سبحانه واحد ، والأسماء جمع. ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعا من المتأولين لا يجوز غيره.

فمعنى قوله : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ أي التسميات الحسنى التي يدعى بها لا بغيرها. وقيل : ولله الصفات. والاسم هو المسمى ، أو صفة له تتعلق به ، وهو غير التسمية.

٥ ـ سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى ؛ لأنها حسنة في الأسماع والقلوب ؛ فإنها تدل على توحيده وجوده ورحمته وإفضاله.

---

(١) أحكام القرآن : ٢ / ٧٩٨ ـ ٨٠٥.

٦ ـ ليس للإنسان أن يدعو ربه إلا بتلك الأسماء الحسنى ، وهذه الدعوة تتطلب فهم معاني تلك الأسماء. وقد ذكر ابن العربي في أحكام القرآن (١) وغيره تلك المعاني ، فيطلب بكل اسم ما يليق به ، يقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رزاق ارزقني ، يا هادي اهدني. وإن دعا باسم عام قال : يا مالك ارحمني ، يا عزيز احكم لي ، يا لطيف ارزقني ، وإن دعا بالاسم الأعظم قال : يا الله ، فهو متضمن لكل اسم ، قال ابن العربي : وهكذا ، رتّب دعاءك تكن من المخلصين.

٧ ـ يجب تنزيه الله تعالى عن الإلحاد في أسمائه ، وذلك على ثلاثة أوجه :

الأول ـ إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله ، كتسمية الكفار الأوثان آلهة ، وتسمية أصنام لهم باللات والعزى ومناة ، من الإله ، والعزيز ، والمنان. وكان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن.

والثاني ـ أن يسمى الله بما لا يجوز تسميته به ، مثل تسميته أبا للمسيح ، وقول النصارى : الأب ، والابن ، وروح القدس.

والثالث ـ أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ، ولا يتصور مسماه ، فإنه ربما كان مسماه أمرا غير لائق بجلال الله تعالى.

وقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو تهديد ووعيد لمن ألحد في أسماء الله تعالى.

قالت المعتزلة : الآية قد دلت على إثبات العمل للعبد ، وعلى أن الجزاء مفرع على عمله وفعله.

---

(١) المرجع والمكان السابق.

والدعاء مشروع وعبادة ، قال تعالى : ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة ٢ / ١٨٦].

ولا يكون الدعاء لغير الله تعالى من أي مخلوق حي أو ميت ، فالله وحده هو الذي يقصد في الدعاء ، فهو الصمد أي الذي لا يقصد في المطالب غيره ، وقال : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ ، أَإِلهٌ مَعَ اللهِ﴾ [النمل ٢٧ / ٦٢] أي لا يجيب المضطر إلا هو ، فهو المستحق وحده للعبادة ، المقصود بالدعاء.

وفوائد الأمر بذكر الله في الآية : ﴿فَادْعُوهُ بِها﴾ كثيرة : منها ترسيخ معالم الإيمان وتنميته ، وتحقيق مراقبة الله والخشوع له ، والرغبة فيما عنده ، وتهوين شأن الدنيا ولذاتها ، روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي : «من نزل به غم أو كرب أو أمر مهمّ ، فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم».

وروى الحاكم في المستدرك عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لفاطمة : «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت ، وإذا أمسيت : يا حيّ ، يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

المهتدون والمكذبون من أمة الدعوة الإسلامية

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾

الإعراب :

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالرفع على تقدير مبتدأ ، وتقديره : هو يذرهم. ويقرأ بالجزم بالعطف على موضع الفاء في ﴿فَلا هادِيَ لَهُ﴾ وموضعه الجزم على جواب الشرط ، أي أن الرفع على سبيل الاستئناف ، والجزم عطف على محل ما بعد الفاء.

﴿وَأَنْ عَسى﴾ أي في أنه عسى ، وأن : مخففة من الثقيلة ، والأصل : وأنه عسى ، على أن الضمير ضمير الشأن ، والمعنى : أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث ، عسى أن يكون أجلهم قرب ، ولعلهم يموتون عما قريب ، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق قبل مفاجأة الموت والعقاب. وقوله : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ متعلق بقوله : ﴿وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ هم أمة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما في الحديث المتواتر «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ...». ويهدون : يرشدون الناس إلى الحق والخير ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبالحق يحكمون وكما عند الشيخين عن المغيرة بالعدل دون ميل لأحد الجانبين المتخاصمين.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ القرآن ، من أهل مكة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنأخذهم قليلا قليلا ،

ونتزلهم درجة بعد درجة إلى دركات العذاب ، وندنيهم من الهلاك شيئا فشيئا ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ نمهلهم ونؤخرهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن تدبيري الخفي شديد قوي لا يطاق.

﴿ما بِصاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيّن الإنذار ، والإنذار : التعليم والإرشاد مع التخويف ﴿مَلَكُوتِ﴾ ملك ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لما ، فيستدلوا به على قدرة صانعه ووحدانيته ﴿قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ قرب أجلهم ، فيموتوا كفارا ، فيصيروا إلى النار ، فيبادروا إلى الإيمان ﴿مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مجموع العالم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ الحديث : كلام الله ، وهو القرآن ، وبعده : بعد القرآن ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ يتركهم ﴿فِي طُغْيانِهِمْ﴾ الطغيان : تجاوز الحد في الكفر والشر والظلم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيرا.

سبب النزول :

نزول الآية (١٨٤) :

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن قتادة بن دعامة قال : ذكر لنا أن النبي ﷺ قام على «صفا» فدعا قريشا ، فجعل يدعوهم فخذا فخذا ، يا بني فلان ، يحذرهم بأس الله ووقائعه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوت (١) إلى الصباح ، أو حتى أصبح ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

المناسبة :

أخبر الله تعالى في الآيات السابقة أنه خلق لجهنم كثيرا من الخلق ؛ لأنهم أهملوا طاقات المعرفة لديهم من العقل والحواس ، ثم أرشد إلى ما يصلح الناس ويقوي إيمانهم من الدعاء بأسمائه الحسنى ، ثم ذكر هنا انقسام أمة الدعوة المحمدية فريقين : فريق المهتدين الذين يقضون بالحق والعدل ، وفريق المكذبين الضالين. ولفت النظر إلى وجوب التفكر والنظر في عالم السموات والأرض ، للتوصل إلى فهم الأمور الدالة على وحدانية الله وصدق الرسول ﷺ.

---

(١) وفي رواية : «يهوّت».

التفسير والبيان :

من بعض الأمم أمة قائمة بالحق قولا وعملا ، يرشدون الناس ويدعونهم إليه ، ويعملون بالحق ، ويقضون بالعدل ، دون ميل ولا جور ، وهم أمة محمد ﷺ ، بدليل ما جاء في الأحاديث الكثيرة التي منها : ما رواه الشيخان في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية «حتى يأتي أمر الله ، وهم على ذلك».

ومنها :ما قاله الربيع بن أنس في قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ ...﴾ قال رسول الله ﷺ : «إن من أمتي قوما على الحق ، حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل».

ومنها : ما أخرجه ابن جرير الطّبري وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حيان عن ابن جريج في قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِ﴾ قال : ذكر لنا النّبي ﷺ قال : «هذه أمّتي بالحقّ يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون».

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال في هذه الآية : بلغنا أنّ النّبي ﷺ كان يقول إذا قرأها : وهذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان عن علي بن أبي طالب قال : لتفترقنّ هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النّار إلا فرقة ، يقول الله : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمّة.

والخلاصة : لما ذكر تعالى في قصّة موسى قوله : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ثم أعاد الله تعالى هذا الكلام ، حمله أكثر المفسّرين

على أنّ المراد منه أمّة محمد ﷺ ، بدليل ما روي عن ابن عباس وقتادة وابن جريج وغيرهم.

هذا هو الفريق الأوّل من أمّة الدّعوة المحمّدية ، ثمّ ذكر تعالى الفريق الثّاني بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ...﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن وهم أهل مكة نتركهم في ضلالهم ، ونستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون ما يراد بهم ، ونقرّبهم إلى ما يهلكهم ، بإمدادهم بالنّعم ، وفتح أبواب الرّزق والخير ، وتيسير سبل المعاش ، كلّما ارتكبوا ذنبا أو فعلوا جرما ، فيزدادون بطرا وانغماسا في الفساد ، وتماديا في الغي ، وتدرّجا في المعاصي ، بسبب متابعة تلك النّعم والخيرات ، كما قال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٥٥ ـ ٥٦] ، وقال تعالى أيضا : ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٤٤ ـ ٤٥] ، وروى الشيخان عن أبي موسى : «إنّ الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته».

وقد تحقّق ذلك بكفار قريش الذين هزموا في بدر والخندق وفتح مكة وغيرها من المعارك ، وأظهر الله رسوله عليهم.

قال عمر لما حملت إليه كنوز كسرى : «اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا ، فإني سمعتك تقول : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾».

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ ، أي سأملي وأطوّل لهم ما هم فيه وأمهل هؤلاء المكذّبين المستدرجين ، إنّ مكري أو تدبيري الخفي شديد قوي.

والخلاصة : إنّ الإمداد بالنّعم والخيرات والأرزاق ليس دليلا على صلاح الإنسان ، وإنما قد يكون استدراجا كما يستدرج العدو إلى مكان للقضاء عليه ،

فالظالم إذا لم يعاقب فورا ، عليه ألا ينخدع بذلك ، فقد يكون تركه طعما للتعرّف على المزيد من بغيه وجوره ، كما تفعل أجهزة الأمن اليوم في كثير من حالات مراقبة تحرّكات المشبوهين ، ثم يقع ذلك الظالم في قبضة الحكام لعقابه الدّنيا ، أو تنزل به المصائب والدّواهي ، ثم يعاقبه الله بالعذاب الشديد الآخرة. والاستدراج : هو الإدناء قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم.

وبعد أن هدّد الله المعرضين عن آياته ، عاد إلى الجواب عن شبهاتهم ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ...﴾ أي أولم يتفكّر هؤلاء المكذّبون بآياتنا ما بصاحبهم يعني محمدا ﷺ من جنون ، فقد كانوا يقولون : شاعر مجنون ، مع أنهم يعرفون حاله من بدء نشأته ، ويعلمون حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، فهو رسول الله حقّا ، دعا إلى حقّ. والتّعبير : ﴿بِصاحِبِهِمْ﴾ للتّذكير بأنهم يعرفون سيرته معرفة كاملة في سنّ الصّبا وعهد الشّباب والكهولة وبعد النّبوة.

إنهم إن تفكّروا في شأنه ، وتجرّدوا عن عصبيّتهم وأهوائهم ، عرفوا الحقّ ، وأدركوا صدقه ، وأنه ليس مجنونا ولا شاعرا ، كما حكى القرآن افتراءهم : ﴿وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير ٨١ / ٢٢] ، ﴿قُلْ : إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ ، بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ ٣٤ / ٤٦] ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ : بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٧٠] ، ﴿وَقالُوا : يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ : إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر ١٥ / ٦] ، ﴿وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصّافات ٣٧ / ٣٦].

إنه ليس بمجنون ، بل هو منذر ناصح ، ومبلّغ أمين ، فهو ينذركم ما يحلّ بكم من عذاب الدّنيا والآخرة إذا لم تؤمنوا بدعوته.

وبعد أن حكى الله عن هؤلاء المكذّبين موقفهم ، فذكر : أكذّبوا الرّسول ، ولم

يتفكّروا في شأنه وشأن دعوته؟ لفت نظرهم إلى ما يدعوهم إلى الإيمان بوحدانية الله ، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ أي أكذّبوا الرّسول ، ولم ينظروا في عالم السموات والأرض ، ففي ملكوت السماء والأرض دلائل على وجود الصانع الحكيم القديم ، والملكوت : من صيغ المبالغة ومعناه : الملك العظيم ، فإذا نظر هؤلاء المكذّبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه ونظامه البديع في السموات والأرض ، وفي كل ما خلق الله من كبير وصغير ، لأداهم النّظر الصحيح إلى وجود الله تعالى ووحدانيته ، وألم ينظروا في احتمال مجيء الموت فربّما يموتون عمّا قريب ، فليسارعوا إلى النّظر وطلب الحقّ قبل مفاجأة الأجل وحلول العقاب ، وليؤمنوا برسول الله ، وينيبوا إلى طاعته.

وقوله : ﴿وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ تنبيه على أن دلائل التوحيد غير مقصورة على السّموات والأرض ، بل كلّ ذرة من ذرأت الأجسام والأرواح التي خلقها الله برهان قاهر على التّوحيد.

وقوله : ﴿وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معناه : أو لم ينظروا في أن الشّأن والحديث عسى أن يموتوا عما قريب أي لينظروا في آجالهم التي ربّما اقتربت ، وهذا ترغيب شديد في الإتيان بهذا النّظر والتّفكر ، وتحذير لهم أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. والخلاصة : لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل فوات الأوان. قال ابن عباس : أراد باقتراب الأجل يوم بدر ، ويوم أحد.

فبأي كلام أو حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به؟ وبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في كتابه ، يصدّقون إن لم يصدّقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم من عند الله عزّ وجلّ ؟ وبأي حديث أحقّ من القرآن أن يؤمنوا به؟

ثم قال تعالى : ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ ...﴾ مقرّرا لما سبق ، ومعلّلا له ، وهو أنّ من يضلّه الله فلا هادي له ، أي أنّ من فقد الاستعداد للإيمان بالنّبي ﷺ والعمل بالقرآن ، فإن الله يتركه متردّدا في ضلاله ، حائرا في سبيله ، بسبب تجاوزه الحدّ في الظّلم والطّغيان والفجور ، ولن يجد لنفسه هاديا أو مرشدا آخر غير الله.

وليس معنى إضلال الله لهم أنه أجبرهم على الضّلال ، بل المقصود أنهم لما تأصّل الكفر في قلوبهم ، وأسرفوا في طغيانهم ، فقدوا باختيارهم ما يدعوهم إلى الهدى والإيمان ، وأصبحت نفوسهم غير متهيّئة لدعوة الحقّ ، وخلقهم الله على هذا النحو الذي علمه منهم قبل إيجادهم فكانوا هم الضّالين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أمة الدّعوة المحمّديّة ، وجعلهم كغيرهم من أقوام الأنبياء فريقين : فريق المؤمنين المهتدين ، وفريق الضّالين المكذّبين.

أما المهتدون فوصفهم الله بأنهم يرشدون الناس إلى الحق ، ويقضون بالحق والعدل ، وهذا كما وصف بعض قوم موسى بالوصفين ذاتهما ، وفي ذلك غاية التّجرّد والموضوعيّة والحياد وإنصاف الحقائق.

ودلّت الآية ـ كما ذكر القرطبي ـ على أنّ الله عزّوجلّ لا يخلّي الدّنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحقّ.

وأما المكذّبون بآيات الله وقرآنه وهم أهل مكة : فقد أخبر تعالى أنه سيستدرجهم بإدنائهم وتقريبهم إلى ما يهلكهم ، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم ، عن طريق إمدادهم بالنّعم والخيرات والأرزاق ، كلما أتوا بجرم ، أو أقدموا على ذنب.

وأنه سيطيل لهم المدّة ، ويمهلهم مع إصرارهم على الكفر ، ولا يعاجلهم

بالعقوبة ، وإنما يؤخّر عقوبتهم ، لإعطائهم فرصة للعودة إلى الحقّ ، والاستجابة لدعوة الإيمان ، وتصديق النّبي المصطفى عليه الصّلاة والسّلام. وفي فترة إمهالهم أنذرهم أنهم إن داموا على المعصية والكفر ، فإن كيد الله ، أي تدبيره شديد قوي محكم. قيل : نزلت في المستهزئين من قريش ، قتلهم الله في ليلة واحدة ، بعد أن أمهلهم مدة ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام ٦ / ٤٤].

وتضمّنت آية ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ دعوة المكذّبين إلى إصدار الأحكام بالاعتماد على العقل والتّفكير والموازنة والنّظر إلى واقع النّبي ﷺ وسيرته ، فهو ليس كما تقوّلت ألسنتهم بمجنون ، وإنما هو داعية حقّ ، ونذير خير ، وناصح أمة ، ومرشد قوم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

ثم دعاهم الله تعالى إلى إعمال فكرهم وتسديد نظرهم في ملكوت السموات والأرض ، وفي المخلوقات والأشياء العديدة ، وفي آجالهم التي عسى أن تكون قد قربت ، للتّوصّل إلى معرفة الإله الحقّ ، والإيمان بوجود الصانع الحكيم القدير القديم ، الذي لا ندّ له ولا شريك ولا نظير ، ومعرفة كمال قدرته. وإذا لم يؤمنوا بالقرآن ، فبأي قرآن غير ما جاء به محمد ﷺ يصدّقون؟! وفي هذا دلالة على أن القرآن هو مصدر الهداية.

وقد استدلّ العلماء بآية ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأمثالها الكثيرة في القرآن الكريم (١) ، على وجوب النظر في آيات الله ، والاعتبار بمخلوقاته. وقد ذمّ الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم ، فقال : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ...﴾ الآية [الأعراف ٧ / ١٧٩] ، قال الجصاص : في

---

(١) نحو قوله تعالى : قُلِ : انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها﴾، وقوله : ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ، وقوله : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾.

قوله : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ حثّ على النّظر والاستدلال والتّفكر في خلق الله وصنعه وتدبيره ، فإنه يدلّ عليه وعلى حكمته وجوده وعدله [١]. وذلك يدلّ على أنّ التّقليد في العقائد غير جائز ، ولا بدّ من النّظر والاستدلال.

واتّجه أكثر العلماء إلى أن النّظر والاستدلال أوّل الواجبات على الإنسان. وذهب بعضهم إلى أنّ أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به ، والإيمان : هو التّصديق الحاصل في القلب ، الذي ليس من شرط صحته المعرفة ، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى ، فيتقدّم وجوب الإيمان بالله تعالى على المعرفة بالله. وقالوا - ومنهم القرطبي [٢] - : هذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق ؛ لأن أكثرهم ومنهم العامة والمقلّدون لا يعرفون حقيقة المعرفة والنّظر والاستدلال. ولأن النّبي ﷺ في الحديث المتواتر الذي رواه أصحاب الكتب الستّة عن أبي هريرة قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها ، وحسابهم على الله».

ومن الطّريف أن العلماء قالوا : لا يكون النّظر والاعتبار في الوجوه الحسان من المرد والنّسوان ، فذلك متابعة الهوى ، ومخادعة العقل ، ومخالفة العلم ، ولم يحلّ الله النّظر إلا على صورة لا ميل للنّفس إليها ، ولا حظّ للهوى فيها.

وإنما النظر يكون في المخلوقات والجمادات ، أما المخلوقات فكثيرة ، ينظر في السموات كيف بنيت وزيّنت من غير شقوق ، ورفعت بغير عمد ، وفي الأرض كيف وضعت فراشا ، ووطئت مهادا ، وفي أصناف المخلوقات والحيوانات في البر والبحر ، وفي البحار التي هي أعظم المخلوقات عبرة. وأما الجمادات فينظر في أصنافها واختلاف أنواعها وأجناسها.

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ٣٦.

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٣١ - ٣٣٣.

وهل التّفكّر أفضل أو الصّلاة؟

يرى الصّوفيّة : أنّ الفكرة أفضل ، فإنها تثمر المعرفة ، وهي أفضل المقامات الشّرعيّة.

ويرى الفقهاء : أن الصّلاة والذّكر أفضل ، لما روي في ذلك من الحثّ والدّعاء إليها ، والتّرغيب فيها.

وتوسّط ابن العربي ، فرأى أن التّفكر أفضل للعالم المفكّر القوي النّظر ، القادر على الاستدلال ، وأما غيره فالأعمال أقوى لنفسه ، وأثبت لشأنه (١).

ودلّ قوله تعالى : ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ ...﴾ على أن الهدى والضّلال من الله ، بمعنى أن الله هو الخالق لأفعال العباد ، سواء في حال الخير أو في حال الشّر ، وأنه جعل القرآن أعظم أسباب الهداية للمتّقين ، لا للجاحدين المعاندين. وفي ذلك ردّ على القدريّة الذين يقولون : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه ، والمعاصي لا يريدها الله. وهي ردّ أيضا على المعتزلة أيضا الذين يقولون : إنّ العبد خالق لأفعاله ، ولكنهم نزّهوا الله عن العجز ، فقالوا : إن هذا بقدرة أودعه الله إياها وخلقها.

ولا إجبار من الله على الضّلال ، وإنما نسب الضّلال إلى الله في الآية من قبيل النّسبة إلى النّظام الذي وضعه والسّنّة التي قضى بها في خلق الإنسان ، وربط أعماله بأسباب تترتّب عليها مسبباتها ، فإذا اختار العبد الضّلالة ، فلن يجد غير الله هاديا له ، ولا يهديه أحد سوى الله. ومن سنّته تعالى أنه يترك هؤلاء الضّالّين يتردّدون حيرة في متاهات ضلالهم ، ولا يجدون سبيلا للخروج مما هم فيه. فكما أن من اختار أصل الهداية يزيده الله هدى ويوفّقه لمتابعة طريق الهدى ، ويمكّنه

---

(١) أحكام القرآن : ٢ / ٨٠٧.

من الوصول إلى هدفه ، كذلك من اختار طريق الضّلالة ، يتركه الله في ضلاله ، ويزيده ضلالا ، ويحجب عنه النّور الذي يؤدّي به إلى الخير ، ويلقي على قلبه حجابا كثيفا يمنع نفاذ الخير إليه ، فلا يهتدي إلى الحقّ والخير أبدا ، كما قال : ﴿كَلَّا ، بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١٤].

علم السّاعة عند الله

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾

الإعراب :

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾ : الكاف في الفعل في موضع نصب ؛ لأنه المفعول الأوّل. و ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ : في موضع المفعول الثاني. و ﴿أَيَّانَ مُرْساها﴾ مبتدأ وخبر ، ﴿مُرْساها﴾ مبتدأ ، و ﴿أَيَّانَ﴾ خبره ، وهو ظرف مبني بمعنى متى ؛ لأنه تضمّن معنى حرف الاستفهام ، وبني على حركة لالتقاء الساكنين ، وكان الفتح أولى ؛ لأنه أخفّ الحركات ، وموضع الجملة من المبتدأ والخبر : نصب ؛ لأنه يتعلق بمدلول السؤال ، والتّقدير : قائلين أيّان مرساها.

﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً بَغْتَةً﴾ : منصوب على المصدر في موضع الحال.

البلاغة :

﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها﴾ تشبيه مرسل مجمل ، لذكر أداة التّشبيه وهي الكاف ، وحذف وجه الشّبه.

المفردات اللغوية :

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ أي أهل مكّة. ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ القيامة ، وهو الوقت الذي ينتهي فيه العالم

ويموت أهل الأرض جميعا عند النفخة الأولى للصوّر. وهذا اصطلاح شرعي ، ويستعمل عادة بأل ، فإذا ذكر بدون «أل» في القرآن فمعناه الساعة الزّمانية ، وهو لغة : جزء قليل غير معيّن من الزّمن. وعند الفلكيين : جزء من أربع وعشرين جزءا متساوية من اليوم.

﴿أَيَّانَ مُرْساها﴾ متى زمن إرسائها واستقرارها وحصولها ، ومنه : إرساء السّفينة أي إيقافها بالمرساة التي تلقى في البحر ، فتمنعها من الجريان.

﴿لا يُجَلِّيها﴾ لا يظهرها ولا يكشفها. ﴿لِوَقْتِها﴾ اللام بمعني في ، أي في وقتها ، كما يقال : كتبت هذا لغرّة المحرّم أي في غرّته. ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظمت. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة ، من غير توقّع ولا انتظار ، كما قال عليه الصّلاة والسّلام فيما ذكر قتادة : «إنّ الساعة تهيج بالناس ، والرّجل يصلح حوضه ، والرّجل يسقي ماشيته ، والرّجل يقيم سلعته في السّوق ، ويخفض ميزانه ويرفعه» (١).

﴿حَفِيٌّ عَنْها﴾ عالم بها أو مبالغ في السؤال عنها ، من حفي عن الشيء : إذا سأل عنه ، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه ، استحكم علمه به ، ولذلك عدي بعن. والحفيّ : المستقصي في السؤال عن الشيء المعتني بأمره ، قال الأعشى :

فإن تسألي عنّي ، فيا ربّ سائل   حفيّ عن الأعشى به حيث أصعدا

والإحفاء : الاستقصاء ، ومنه : إحفاء الشّارب. وحفي عن الشيء : إذا بحث للتعرّف عن حاله.

سبب النزول :

كانت اليهود تقول للنّبي ﷺ : «إن كنت نبيّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟». وأخرج ابن جرير الطّبري عن قتادة أن المشركين قالوا ذلك ، لفرط الإنكار (٢). وأخرج الطّبري أيضا وغيره عن ابن عباس قال : قال حمل بن قشير وسموءل بن زيد لرسول الله ﷺ : أخبرنا متى الساعة ، إن كنت نبيّا كما تقول ، فإنّا نعلم ما هي ، فأنزل الله : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾.

ورجّح ابن كثير أنها نزلت في قريش ؛ لأن الآية مكّية ، وكانوا يسألون عن

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧١.

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٣٥.

وقت السّاعة ، استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها [(١)] ، كما قال تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى ٤٢ / ١٨].

المناسبة :

لما تكلّم الله تعالى في التّوحيد والنّبوة والقضاء والقدر ، أتبعه بالكلام عن المعاد. وكذلك لما قال تعالى في الآية المتقدّمة عن أجل الإنسان : ﴿وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ بقصد الحثّ على التوبة والإصلاح ، وهو الساعة الخاصة ، قال بعده : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ للإرشاد إلى النظر والتّفكر في أمر الساعة العامة التي تنتهي بها الدّنيا كلّها ، ويموت بها جميع النّاس ، ولبيان أن وقت السّاعة مكتوم عن الخلق.

التفسير والبيان :

يسألونك يا محمد عن وقت الساعة ، متى يكون؟ ومتى يحصل ويستقرّ؟ كما قال تعالى : ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦٣]. وفي التعبير بالإرساء الدّال على الاستقرار إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء لحركة العالم ، وانقضاء عمر الأرض.

قل لهم : إن علم الساعة مقصور على الله وحده ، فلا يطّلع عليه أحد من الخلق ، فإنه هو الذي يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التّحديد ، ولا يظهرها في وقتها المحدود إلا الله ، ولا يعلم بها أحد حتى ولو كان ملكا مقرّبا أو نبيّا مرسلا ، كما قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها﴾

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧١.

[فصلت ٤١ / ٤٧] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ...﴾ [لقمان ٣١ / ٣٤]. فكلّ من الساعة العامة (القيامة) ، والساعة الخاصّة (أجل الإنسان) من الغيبيات التي اختص الله بعلمها ، لتكون فترة الاختبار صحيحة وعامة غير متأثرة بدافع العلم بها أو بقصد النّفعية ، ولا مختصّة بزمن معيّن يطلع عليه الخلق ، ولتبقى رهبتها مهيمنة على النّفوس.

وفي التّعبير بقوله : ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ إشارة إلى أن ما هو شأن الرّب لا يكون للمخلوق ، وأنّ مهمة النّبي الإنذار بوقوعها ، لا بتحديد زمنها ، حتى لا يضطرب شأن العالم ، فلو علمت لاضطرب الناس واختلّ العمران.

لذا قال تعالى : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خفي علمها على أهل السّموات والأرض ، ولم يعلم أحد من الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين متى يكون حدوثها ووقوعها ، وكلّ ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. وقيل عن الحسن وغيره : كبر مجيئها على أهل السّموات والأرض ، وعظم أمرها ، فهم لا يدرون متى تفاجئهم ، ويتوقعون دائما وقوعها ، ويخافون منها لشدّة وقعها وعظم أهوالها.

وقضى الله أنها لا تأتي إلا بغتة أي فجأة على غفلة ، والناس مشغولون في شأن الدّنيا ومصالحها. وهذا تأكيد لما تقدّم وتقرير لعنصر المفاجأة في إتيانها.

روى البخاري عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشّمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيرا. ولتقومنّ الساعة ، وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة ، وقد انصرف الرّجل بلبن لقحته [1] فلا يطعمه ، ولتقومنّ

---

(١) اللقحة : الشاة الحلوب أو الحامل.

السّاعة والرّجل يليط [١] حوضه ، فلا يسقي فيه ، ولتقومنّ السّاعة ، والرّجل قد رفع أكلته إلى فيه ، فلا يطعمها».

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ عن السّاعة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ مبالغ في السؤال عنها ، ومهتم بشأن زمنها ، وعالم بها. قل لهم : لست أعلمها ، ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ الذي يعلم الغيب في السّموات والأرض. و ﴿أَيَّانَ﴾ معناه الاستفهام عن زمان المجيء ، بمعنى متى.

وتكرار هذا الجواب : ﴿عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ بعد تكرار السؤال مبالغة في التأكيد ، بل ليس هذا تكريرا ، ولكن أحد العلمين لوقوعها ، وهو الجواب الأول عن سؤالهم عن وقت قيام السّاعة ، والآخر لكنهها ، وهو الجواب الثاني عن سؤالهم عن كنه ثقل السّاعة وشدّتها ومهابتها. فالسؤال الأوّل عن وقت قيام السّاعة ، والثاني عن مقدار شدّتها ومهابتها.

وعبّر هنا بلفظ الجلالة الله إشارة إلى استئثار الله بعلمها لذاته ، كما عبّر هناك بلفظ ربي للتّنبيه على أنّ السّاعة من شؤون ربوبيّته.

ونقل عن ابن عباس تفسير ﴿حَفِيٌّ عَنْها﴾ بأنه حفيّ ببرّهم وفرح بسؤالهم ، وكأن بينك وبينهم مودّة ، وكأنك صديق لهم ؛ لأنهم قالوا : بيننا وبينك قرابة ، فأسرّ إلينا بوقت السّاعة.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنه العالم بها ، وأنه المختصّ بالعلم بها ، وسرّ إخفائها ، أو سبب عدم معرفة الخلق وقتها المعيّن ، وحكمة ذلك ، وإنما يعلم ذلك القليلون ، وهم المؤمنون بالقرآن وبما أخبر به النّبي صلّى الله عليه وسلّم فيما رواه الشيخان عن عمر رضي الله عنه حينما سأله جبريل عن السّاعة ، فقال : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي أنا وأنت سواء في جهل هذا الأمر. ولكن النّبي صلّى الله عليه وسلّم أخبر عن قرب

---

(١) يليط : يطلي حوضه أو حجارته بجصّ ونحوه ليمسك الماء.

وقوع الساعة ، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعا : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه : السبابة والتي تليها.

قال الرّازي : السبب في إخفاء الساعة عن العباد : هو أن يكونوا على حذر منها ، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية (١).

وقال الألوسي : وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التّشريعية ذلك ، فإنه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك(٢).

وهذا هو السّر أيضا في إخفاء ليلة القدر وساعة الإجابة ، لينشط الناس في طلبها والعمل لها في وقت أطول ، وليظلّ الإنسان ملازما حال الاستقامة والدّعاء والعبادة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية على أحكام عديدة مستنبطة من كلّ جملة فيها ، وهي ما يأتي :

١ ـ لا يعلم وقت قيام الساعة ، ولا مقدار شدّتها ومهابتها ، ولا يعرف كنهها وحقيقتها إلا الله عزوجل ، لقوله سبحانه : (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) [لقمان ٣١ / ٣٤] ، وهي محققة المجيء والحدوث ؛ لقوله تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها) [غافر ٤٠ / ٥٩] ، وقريبة الوقوع ؛ لقوله تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها) [طه ٢٠ / ١٥] ، وتقع كلمح البصر أو أقرب ؛ لقوله سبحانه : (وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) [النحل ١٦ / ٧٧].

٢ ـ إنّ يوم السّاعة عظيم الثّقل على القلوب ، بسبب أنّ الخلق يصيرون

---

(١) تفسير الرّازي : ١٥ / ٨٠.

(٢) تفسير الألوسي : ٩ / ١٣٤.

بعدها إلى البعث والحساب والسؤال ، ولكون الخوف من الله في ذلك اليوم شديدا على الخلائق.

٣ ـ لا تجيء الساعة إلا بغتة فجأة ، على حين غفلة من الخلق ، روى الحسن البصري عن النّبي ﷺ أنه قال : «والذي نفس محمد بيده لتقومنّ الساعة ، وإنّ الرّجل ليرفع اللقمة إلى فيه ، حتى تحول الساعة بينه وبين ذلك». وسمّيت القيامة بالسّاعة لوقوعها بغتة ، أو لأن حساب الخلق يقضى فيها في ساعة واحدة ، أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

٤ ـ لم يكن النّبي ﷺ عالما بالسّاعة ولا كثير السؤال عنها.

٥ ـ الحكمة التّشريعية في كون وقت السّاعة مكتوما عن الخلق : هو حمل المكلّفين على المسارعة إلى التوبة ، وأداء الواجبات ، وسداد الحقوق إلى أصحابها.

وللسّاعة أشراط أو علامات ثلاث :

١) ـ ما وقع بالفعل منذ زمان مثل قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية.

٢) ـ ما حدث بعضه ويتوالى ظهوره مثل كثرة الفتن ، وكثرة الدّجالين ، وكثرة الزّنا ، وكثرة النّساء وتشبههن بالرّجال ، والمجاهرة بالكفر والإلحاد والشرك.

٣) ـ ما سيقع قبيل قيام الساعة من علامات صغرى وكبري ، مثل أن تلد الأمة ربّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشّاء يتطاولون في البنيان ، ومثل طلوع الشّمس من مغربها.

الأمور كلّها بيد الله وحده وعلم الغيب مختصّ بالله تعالى

وحقيقة الرّسالة

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿الْغَيْبَ﴾ هو ما غاب عنّا ، وهو إما حقيقي : لا يعلمه أحد إلا الله ، وإما إضافي نسبي يعلمه بعض الخلق بتعليم الله كالأنبياء والرّسل. ﴿الْخَيْرِ﴾ ما يرغب الناس فيه عادة من المنافع المادية كالمال ، والمعنوية كالعلم. ﴿السُّوءُ﴾ ما يرغب عنه الناس لضرره كالفقر وغيره. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا منذر بالنّار للكافرين ، والإنذار : التّبليغ المقترن بالتّخويف من العقاب على الكفر والمعاصي. والتّبشير : التّبليغ المقترن بالتّرغيب في الثّواب مع الإيمان والعمل الصالح. والبشير : المبشر بالجنّة للمؤمنين.

سبب النزول :

روي أن أهل مكة قالوا : يا محمد ، ألا يخبرك ربّك بالرّخص والغلاء حتى نشتري فنربح ، وبالأرض التي تجدب لنرتحل إلى الأرض الخصبة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة :

بعد أن أخبر الله تعالى عن أنّ وقت الساعة (القيامة) لا يعلمه إلا الله وحده ، أمر رسوله ﷺ أن يبيّن للناس أنّ كلّ الأمور بيده تعالى وحده ، وأنّ علم الغيب كله عنده ، وأنه لا يدّعي علم الغيب ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وبشير ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، قُلْ :

لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً ، إِلَّا ما شاءَ اللهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [١٠ / ٤٨ ـ ٤٩].

التفسير والبيان :

أمر الله تعالى رسوله أن يفوّض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ ...﴾ [الجنّ ٧٢ / ٢٦ ـ ٢٧].

قل أيها الرّسول للناس : إنّي لا أملك لنفسي ولا لغيري جلب أي نفع ، ولا أستطيع دفع ضرر عنّي ولا عن غيري ، إلا بمشيئة الله وقدرته ، فيلهمني إيّاه ويوفّقني له.

وهذا يدلّ على إظهار العبودية ، والتّبرّي من ادّعاء العلم بالغيوب ، ومنصب الرّسالة لا يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب ، فالغيب لله وحده.

وإنما وظيفة الرّسالة تبليغ الوحي المنزل ، والتّعليم والإرشاد ، وفيما عدا ذلك فإنّ الرّسول بشر كسائر الناس : ﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ ...﴾ [الكهف ١٨ / ١١٠].

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ كالمال ونحوه من المنافع ، ولما أصابني السّوء ، أي لاجتنبت ما يكون من الشّرّ قبل أن يكون ، وتوقيت المضارّ قبل أن تقع.

وليس لي مزية عن البشر إلا بتبليغ الوحي عن الله بالإنذار والتّبشير ، فما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ، نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنّات ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٩٧].

وكوني المنذر والمبشر للمؤمنين : لأنهم هم المنتفعون بالإنذار والتّبشير.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه آية من أصول العقيدة والدّين ، بيّنت حقيقة الرّسالة ، وميّزتها عن الرّبوبية ، وهدمت قواعد الشّرك والوثنية.

فما الرّسول إلا بشر مبلّغ عن الله ما يوحيه إليه ، وهو قدوة صالحة للنّاس في العمل بما جاء به من عند الله ، وليس له شيء من صفات الله وأفعاله ، ولا سلطان له بالتأثير في الأشياء ، لا نفعا ولا ضرّا ، ولا خيرا ولا شرّا ، ولا إيمانا ولا كفرا.

وبما أنّ الإيمان نفع والكفر ضرّ ، فإنهما لا يحصلان إلا بمشيئة الله سبحانه ، فهو الخالق للإيمان والكفر ، والمريد لهما ، والعبد هو الموجد ما خلق الله عنده من قدرة إما إلى الإيمان والخير ، وإما إلى الكفر والشّرّ.

وليس أدلّ على الإقناع بعدم علم الرّسول بالغيب من أنه لو كان عالما بالغيب ، لحقّق لنفسه منافع الدّنيا وخيراتها ، من مال ومجد ، وعظمة دولة ، ونصر حربي ، وتفوّق دائم ، وأرباح ومكاسب كثيرة ، ولدفع عن نفسه آفات الدّنيا ومضارّها ، كالفقر والمرض والجرح والهزيمة ونحوها من ألوان السّوء والشّرّ ، ولحذر من مكر الأعداء ومكائدهم ، ولاستطاع التّمييز بين من تؤثر فيه الدّعوة إلى الدّين الحقّ ومن لا تؤثّر فيه.

التذكير بالنشأة الأولى والأمر بالتوحيد واتباع القرآن

والنهي عن الشرك

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣)﴾

الإعراب :

﴿لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً﴾ صالحا صفة المفعول الثاني المحذوف ، وتقديره : ابنا صالحا ، والمفعول الأول : (نا) في الفعل.

﴿شُرَكاءَ﴾ جمع شريك ، وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، أي جعل أولادهما له شركاء. وكذلك ﴿فِيما آتاهُما﴾ أي آتى أولادهما ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير ، وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله : تسميتهم أولادهم بعبد العزى ، وعبد مناة ، وعبد شمس وما أشبه ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم.

البلاغة :

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها﴾ التغشي : كناية عن الجماع.

المفردات اللغوية :

﴿مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ أي من آدم ، أو من جنس واحد ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق زوجها حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ ليأنس بها ويطمئن إليها ويألفها ﴿تَغَشَّاها﴾ جامعها ، مثل غشيها ﴿حَمَلَتْ﴾ علقت منه ﴿حَمْلاً خَفِيفاً﴾ هو النطفة ، والحمل بفتح الحاء : ما كان في بطن أو على شجرة ، وبالكسر : ما كان على ظهر ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ استمرت حاملة له إلى وقت ميلاده ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ صار الحمل ثقيلا وقرب وضعها ﴿صالِحاً﴾ أي ولدا أو نسلا صالحا أي سويا سليما في الجسم والفطرة ﴿فَتَعالَى اللهُ﴾ تعاظم وتنزه عن الشريك والولد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي أهل مكة به من الأصنام. وأجريت الأصنام مجرى العقلاء أولي العلم في قوله : ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى : يشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يخلقون.

وجملة ﴿فَتَعالَى ...﴾ عطف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وما بينهما اعتراض.

المناسبة :

موضوع الآيات عود على بدء ، فقد بدئت السورة بالكلام عن التوحيد واتباع القرآن ، ثم ختمت بالكلام عن التوحيد وعن القرآن ، والتذكير بالنشأة الأولى ، كما ذكّر بها سابقا ، لترسيخ العقيدة بوجود الله ووحدانيته ، والامتناع عن الشرك ، والعهد عن وسوسة الشيطان.

التفسير والبيان :

الله هو الذي خلقكم في الأصل من نفس واحدة ، قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة : آدم عليه‌السلام ، ثم خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منهما ، كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا﴾ [الحجرات ٤٩ / ١٣] وقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾ [النساء ٤ / ١].

ورأى بعض المفسرين أن المعنى : خلقكم من جنس واحد وطبيعة واحدة ،

وجعل زوجه من جنسه ، ليسكن إليها ، ويطمئن بها ، كما خلق من كل الأنواع زوجين اثنين ، كما قال عَزَّجَلَّ : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٤٩].

وقوله : ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ أي ليأنس بها ويطمئن ويألفها ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً ، لِتَسْكُنُوا إِلَيْها ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم ٣٠ / ٢١] وهذا التآلف قائم في أعماق كل من الرجل والمرأة ، ففي عهد الشباب لا تسكن النفس إلا بالاقتران بزوج آخر ، ولا نجد ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، والجنس ميال بطبيعته إلى جنسه ، والتعاون على شؤون الحياة يحتاج إلى التزاوج ، وبقاء النوع الإنسان مرهون بهذا الترابط بين الجنسين : الذكر والأنثى.

ثم ذكر الله تعالى ثمرة هذا التزاوج بين الرجل والمرأة فقال : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها﴾ وهو كناية عن الوقاع ، أي فلما حدث الوطء أو الوقاع أو الجماع بين الجنسين ، بدأ تكون الجنين ، وحدث الحمل الخفيف ، وهو أول الحمل الذي لا تجد فيه المرأة ثقلا ولا ألما ، إنما هي النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ويرتفع الحيض عادة ببدء الحمل ، وتستمر المرأة في متابعة أعمالها المعتادة دون مشقة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت بذلك الحمل الخفيف.

فلما أثقلت المرأة الحامل أي صارت ذات ثقل بحملها بسبب كبر الولد في بطنها ، وحان وقت الوضع ، ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما﴾ ، أي دعا الزوجان وهما آدم وحواء مقسمين : لئن آتيتنا ولدا صالحا ، أي بشرا سويا ، تام الخلق ، سليم الفطرة ، لنكونن لك من الشاكرين نعمتك ، المشتغلين بشكر تلك النعمة.

فلما آتاهما الله ما طلبا ، ورزقهما ولدا صالحا سويا كامل الخلقة ، جعل الزوجان لله شركاء أي شريكا فيما آتاهما وأعطاهما ، فتعالى أي تعاظم وتنزه ﴿اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وينسبون له من الولد والشريك.

ومن المراد بقوله ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾؟

ذكر بعض المفسرين كالسيوطي أن المراد آدم وحواء ، بالاعتماد على حديث ضعيف في الترمذي وغيره ، وهو ما رواه سمرة عن النبي ﷺ قال : لما ولدت حواء ، طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث . وكان اسم إبليس حارثا بين الملائكة . فإنه يعيش ، فسمته ، فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. وتؤيده روايات إسرائيلية كثيرة لاثبات لها ، فلا يعول عليها ، وأمثال ذلك لا يليق بالأنبياء.

والواقع ـ على افتراض أن المراد بالنفس الواحدة : آدم ـ أن نسبة هذا الجعل إلى آدم وحواء يراد به بعض أولادهما ، قال الحسن البصري : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولادا ، فهوّدوا ونصّروا (١).

وأيّد ابن كثير هذا التأويل عن الحسن رضي الله عنه ، فقال : وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية ... وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي بصيغة الجمع. فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس ، كقوله : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ، وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ [الملك ٦٧ / ٥] ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نظائر في القرآن (٢).

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق : ٢ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

والخلاصة : إن الشرك نسب إلى آدم وحواء ، والمراد به أولادهما ، كاليهود والنصارى والمشركين ؛ لأن آدم وزوجته لم يكونا مشركين.

قال الزمخشري في قوله : ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ﴾ أي جعل أولادهما له شركاء ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وكذلك ﴿فِيما آتاهُما﴾ أي آتى أولادهما ، وقد دل على ذلك قوله : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير ، وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله : تسميتهم أولادهم بعبد العزى ، وعبد مناة ، وعبد شمس ، وما أشبه ذلك ، مكان عبد الله ، وعبد الرحمن ، وعبد الرحيم (١). وقد ذكر الرازي هذا التأويل.

وذكر أيضا أي الرازي تأويلا آخر للآية وهو أن قوله : ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد ، وتقريره : فلما آتاهما صالحا ، اجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك ، وينسبونه إلى آدم عليه‌السلام (٢).

وهذا كله على تسليم أن القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء. وهناك من جعل الخطاب في الآية لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، وهم آل قصي ، إذ سمّى قصي وزوجته القرشيان أولادهما الأربعة بعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قصي ، وعبد اللات.

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل ، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم ، وقولهم بالشرك ، على أساس أن المراد بالزوجين الجنس أي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة أو جنس

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٩٢.

(٢) تفسير الرازي : ١٥ / ٦٧ وما بعدها.

واحد ، وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه في الإنسانية.

ثم فنّد الله تعالى آراء المشركين ، ونقض الشرك من جذوره ، فقال : ﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً ...﴾ أي أيشركون بالله شيئا لا يستطيع إطلاقا خلق أي شيء؟ أو أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئا ، ولا يستطيع ذلك؟ وإنما الله هو الخالق لهم ولأولادهم ولكل مخلوق ، كما قال : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٣].

وهذه الأصنام مخلوقة مصنوعة ، كما قال تعالى : ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً ، وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٢٠].

وهم لا يستطيعون لعابديهم تحقيق أي معونة أو نصر ، بل إنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم على من يعتدي عليهم بإهانة أو سب أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلي ، فلا نصر لأنفسهم ممن أرادهم بسوء. وقال : يخلقون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع ، فأجريت مجرى الناس.

فهذا كله إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهي مخلوقة لله ، مربوبة ، مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم.

ثم ذكر الله تعالى أن هذه الأصنام لا تصلح تبعا فضلا عن أن تكون متبوعة ، فقال : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى ...﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد ، أو إلى أن يهدوكم إلى ما تريدون تحقيقه ، لا يستجيبون لكم ولا ينفعونكم ، فهم في الحالين عديمو النفع ، فإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله

الخير والهدى ، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبكم ، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٩٤].

سواء لديكم دعاؤكم إياهم ، أو سكوتكم عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم ، ولا خير يرتجى منهم ، إذ هم لا يفهمون الدعاء ، ولا يسمعون الأصوات ، ولا يعقلون الكلام.

ومثل من كانت هذه صفته ، لا يصلح ربا معبودا ، وإنما الرب الموجود المعبود هو السميع البصير ، العليم الخبير ، الناصر القادر ، النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الهادي إلى الرشاد ، المنقذ من الردى ، المجيب المضطر إذا دعاه.

وعبر بالجملة الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار : ﴿أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ﴾ بدلا عن الجملة الفعلية المشعرة بالتجدد المتكرر : «أم صمتم» لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ، دعوا الله دون أصنامهم ، كقوله : ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم ، فقيل لهم : إن دعوتموهم ، لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم ، وبين ما أنتم عليه من الاستمرار على سكوتكم ومن عادة صمتكم عن دعائهم [١]. أي فلا فرق بين تجديد دعاء الأصنام بفعل متجدد وبين الاستمرار والثبات على حال الصمت وعدم دعائها ، وبذلك صلح عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية الذي لا يجوز إلا لفائدة وحكمة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الناس في الأصل مخلوقون من نفس واحدة ، المشهور أنها نفس آدم.

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٩٢.

وحواء مخلوقة من نفس آدم : وخلق منها زوجها على معنى أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم ، وحكمة ذلك أن الجنس أميل إلى الجنس ، والجنسية علة الضم واللقاء والألفة بين الرجل والمرأة. واستشكل الرازي هذا الكلام ؛ فإن الله قادر على أن يخلق حواء خلقا مستقلا كما خلق آدم ابتداء ، فلما ذا يقال : إنه تعالى خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟ ثم رجح أن المراد من كلمة «من» في قوله : ﴿وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها﴾ خلق حواء من نوع آدم ومن جنسه في الإنسانية ، وجعل زوج آدم إنسانا مثله [١].

٢ ـ من رحمة الله تعالى بالأم أن جعل خلق الجنين واكتمال الحمل على مراحل متدرجة من الأخف إلى الأثقل ، كيلا تشعر بالثقل المفاجئ ، ولتظل قائمة بأعمالها المعتادة دون إرهاق.

٣ ـ يفهم من ظاهر قوله تعالى : ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما﴾ أن الحمل مرض من الأمراض ، ولأجل عظم الأمر جعل موتها شهادة ، كما ورد في حديث تعداد الشهداء الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم : «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المطعون شهيد ، والغريق شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، والمبطون شهيد ، وصاحب الحريق شهيد ، والذي يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموت بجمع شهيدة» أي تموت وفي بطنها ولد. فيكون حال الحامل في رأي الإمام مالك حال المريض في أفعاله بعد مضي ستة أشهر من الحمل ، أي المريض مرض الموت ، وهو الذي لا تنفذ تبرعاته من هبة ومحاباة في بيع إلا في ثلث ماله. وقال الأئمة الثلاثة : إنما يكون ذلك في الحامل بحال الطّلق ، فأما قبل ذلك فلا ؛ لأن الحمل عادة ، والغالب فيه السلامة. ورد المالكية بقولهم : كذلك أكثر الأمراض غالبة السلامة ، وقد يموت من لم يمرض.

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ٨٩.

ويعد الزاحف في الصف للقتال والمحبوس للقتل في قصاص بمنزلة الحامل والمريض المخوف عليه ، ما كان بتلك الحال ، في رأي الإمام مالك ، فلا يتبرع إلا في الثلث.

٤ . الأوثان لا تصلح للألوهية ؛ لأنها مخلوقة ، وغير قادرة على خلق شيء أو إيجاد نفع أو ضر فكيف يعبد ما لا يقدر على أن يخلق شيئا؟! والمقصود من الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للألوهية.

٥ . ليس المراد من قوله تعالى : ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما ذكر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام السابق ذكرها ؛ إذ لو كان المراد ذلك ، لكانت هذه الآية غريبة عن تلك القصة غرابة كلية ، وأدى الأمر إلى إفساد النظم والترتيب ، وإنما المراد بها الرد على عبدة الأوثان ، كما ذكر القفال ، فهي بيان لخلق الرجل والمرأة من جنس واحد ومن أصل واحد في الإنسانية ، ثم التنديد بفعل بعض الأزواج ، فلما تغشى الزوج زوجته (واقعها) وظهر الحمل ، دعا الزوجان ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا ، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ نعمائك ، فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا ، جعلا لله ﴿شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾ ؛ لأن الأزواج تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع ، كما هو قول الطبيعيين ، وتارة إلى الكواكب ، كما هو قول الفلكيين ، وتارة إلى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام.

٦ . احتج أهل السنة بقوله : ﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً ، وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على أن العبد لا يخلق ولا يوجد أفعاله ، وإنما الذي يخلق هو الإله ، فلو كان العبد خالقا لأفعال نفسه ، كان إلها.

٧ . دل قوله : ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً ...﴾ على أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ، ولا تنتصر ممن عصاها. والمعبود يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع ، ودفع الضرر ، وهذه الأصنام عاجزة عن ذلك ، فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟!

٨ ـ ودل قوله : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ على أنه أيضا لا علم للأصنام بشيء من الأشياء ، فلا يتصور منها الاتباع إذا دعيت إلى الخير ، فكيف تصلح أن تكون معبودة؟!

والخلاصة : إن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن أهملها ، كما قال إبراهيم : ﴿يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم ١٩ / ٤٢].

واقع الأصنام والأوثان المعبودة

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾

الإعراب :

﴿عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ عباد خبر ﴿إِنَ﴾ مرفوع ، و ﴿أَمْثالُكُمْ﴾ : صفة ، وجاز أن يكون وصفا للنكرة ، وإن كان مضافا إلى المعرفة ؛ لأن الإضافة في نية الانفصال ، وأنه لا يتعرف بالإضافة ، للشيوع الذي فيه.

وقرأ سعيد بن جبير : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ بتخفيف ﴿إِنَ﴾

ونصب : ﴿عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ ، والمعنى : ما الذين ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ عبادا أمثالكم ، على إعمال : إن عمل ما الحجازية ، وهو مذهب المبرد. وأما مذهب سيبويه فهو إهمالها.

البلاغة :

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها﴾ هذا إطناب يراد به زيادة التقريع والتوبيخ. والاستفهام في المواضع المختلفة استفهام إنكار ، أي ليس لهم شيء من ذلك مما هو لكم ، فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم؟!

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾. وأصل الدعاء : النداء ، ويقصد به غالبا دفع ضرر أو جلب خير. ﴿عِبادٌ﴾ مملوكة لله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ دعاءكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في أنها آلهة ﴿يَبْطِشُونَ﴾ يضربون ويصولون بها.

﴿ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ﴾ إلى هلاكي ﴿فَلا تُنْظِرُونِ﴾ تمهلون ، فإني لا أبالي بكم.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾ أي متولي أموري ﴿نَزَّلَ الْكِتابَ﴾ القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ من عباده بحفظه فضلا عن أنبيائه ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي الأصنام ﴿وَتَراهُمْ﴾ أي الأصنام يا محمد ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يقابلونك كالناظر ، فهم يشبهون الناظرين إليك ؛ لأنهم صوروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه.

المناسبة :

هذه الآيات تأكيد لما سبق بيانه أن الأصنام لا تصلح للألوهية ، بقصد غرس التوحيد في القلوب ، واستئصال جذور الشرك من النفوس.

التفسير والبيان :

إن تلك الأصنام التي تعبدونها وتسمونها آلهة من دون الله ، وتدعونها لدفع الضر أو جلب النفع هم عباد أو عبيد مثل عابديها ، في كونهم مخلوقات لله مثلهم ، خاضعون لإرادته وقدرته ، بل الأناس أكمل منها ؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك. وإذا كانت على هذا النحو فكيف يصح عقلا

تقديسها وعبادتها من مخلوق مثلها ، بل أسمى وأكمل منها؟ وإنما الذي يستحق العبادة هو الرب الخالق الذي خضعت له جميع الكائنات ، ودانت له الأسباب. وكيف تترك رسالة بشر خصه بالعلم والمعرفة ، وازدانت عقيدته بالحق والنور والفائدة العظمى ، وتعبد حجارة من دون الله ، لا تضر ولا تنفع؟

وإن كنتم صادقين في تأليههم ، واستحقاقهم العبادة ، والتماس النفع أو الضر منهم ، فادعوهم واطلبوا منهم طلبا ما ، فليستجيبوا لكم دعاءكم ، إما بأنفسهم ، وإما بتوسطهم عند الله. ومعنى هذا الدعاء : طلب المنافع ، وكشف المضار من جهتهم. واللام في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ لام الأمر ، على معنى التعجيز ، والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ، ظهر أنها لا تصلح للعبادة.

وقوله : ﴿عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ استهزاء بهم ، أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء ، فإن ثبت ذلك ، فهم عباد أمثالكم ، لا تفاضل بينكم.

وصفت الأصنام بأنها عباد ، وأشير إليها بضمير العقلاء في قوله : ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ولم يقل : التي ، مع أنها جمادات غير عاقلة ، إنزالا لها منزلة العقلاء بحسب اعتقاد المشركين أنها تضر وتنفع ، فتكون عاقلة فاهمة ، فوردت الألفاظ على وفق معتقداتهم.

ثم ترقى القرآن في الجواب عليهم ، وأبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم ، وأثبت أنهم ليسوا أمثالهم ، بل أدنى منهم رتبة ، فذكر أعضاء أربعة هي الأرجل والأيدي والأعين والآذان ، وكلها معطلة القوة والحركة والإدراك ، مع أن هذه الأعضاء إن كان فيها هذه القوى فهي وسائل الكسب في الحياة.

فليس للأصنام أرجل يمشون بها إلى جلب نفع أو دفع ضر ، وليس لهم أيد يبطشون بها ويصولون بها لتحقيق ما ترجون منهم من خير ، أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها أحوالكم ، ولا آذان يسمعون بها نداءكم وكلامكم وفهم

مطالبكم ، فهم ليسوا مثلكم ، بل دونكم في التكوين والصفات والقوى ، ومن يخلو من منافع هذه الأعضاء ، لا يستحق العبادة ، فإن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام ، بل لا تصح المقارنة بين مزايا الإنسان وهذه الأصنام ، إذ هم حجارة صماء ، أو طين وماء ، أو عجوة أو حلاوة كصنم بني حنيفة.

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

ومع كل هذا أمر النبي ﷺ بأن يتحداهم ، ويدعوهم للاختبار العملي ، فقيل له : قل يا محمد الرسول لهؤلاء الوثنيين : نادوا شركاءكم وآلهتكم من دون الله ، واستنصروا بها علي ، وتعاونوا على كيدي ، فلا تؤخروني طرفة عين ، وابذلوا جهدكم ، وأوقعوا الضرر بي كيف شئتم ، ولا تمهلون ساعة من نهار ، أنتم وشركاؤكم ، فلا أبالي بكم. ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله ، وكانوا قد خوفوه آلهتهم.

وهذا رد على تهديدهم وقولهم : إنا نخاف عليك من آلهتنا!!

ثم أعلن الرسول ثقته الكبرى بالله وتحقيره هذه المعبودات ، مع قلة الأعوان والنصراء في مكة فقال بتعليم الله : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ ...﴾ أي الله حسبي وكافيني ، وهو نصيري وناصري عليكم ، ومتولي أمري في الدنيا والآخرة ، وعليه اتكالي ، وإليه ألجأ ، وهو الذي نزل علي القرآن الذي يدعو إلى التوحيد ، وينبذ الشرك ، وأعزني برسالته ، وهو الذي يتولى كل صالح بعدي ، وهو كل من صلحت عقيدته ، وسلمت من الخرافات والأوهام ، وصلحت أعماله ، ومن عادته تعالى أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ، ولا يخذلهم. أما المشرك فوليه الشيطان : ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٧]. ومناسبة هذه الآية : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾ لما قبلها أنه تعالى لما بيّن في الآيات المتقدمة أن هذه

الأصنام لا قدرة لها على النفع والضر ، بيّن بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله تعالى ؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين ومنافع الدنيا ، أما الأولى فبسبب إنزال الكتاب وأما الثانية فبسبب تولي الصالحين.

ثم أكد تعالى ما تقدم من خيبة الأصنام في تحقيق النصر فقال : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ...﴾ بصيغة الخطاب ، وذاك بصيغة الغيبة ، أي إن الذين تعبدونهم وتدعونهم من دون الله لنصركم ودفع الضر عنكم عاجزون ، لا يستطيعون نصركم ، ولا نصر أنفسهم ضد من يحقرهم أو يسلبهم شيئا مما يوضع عليهم من طيب أو حلي ، أو يريدهم بسوء.

فقد كسّر إبراهيم عليه السلام الأصنام وأهانها غاية الإهانة فما دفعت عن نفسها الأذى ولا انتقمت منه ، كما أخبر تعالى عنه في قوله : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٩٣] وقال تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٥٨].

وروي عن معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنهما . وكانا شابين من الأنصار قد أسلما ، لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . أنهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ، ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتئوا لأنفسهم رأيا آخر.

وكان لعمرو بن الجموح . وكان سيد قومه . صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل ، فينكسانه على رأسه ، ويلطخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح ، فيرى ما صنع به ، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفا ، ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضا ، حتى أخذاه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو ، ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدّين باطل ، وقال :

تالله لـو كنـت إلهـا مسـتدن لم تـك والكلـب جميعـا في قـرن

ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدا رضي الله عنه (١).

وكما هم عاجزون عن النصرة عاجزون عن الإرشاد والهداية ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى أن يهدوكم إلى سواء السبيل وتحقيق النصر ، لا يسمعوا دعاءكم ، فضلا عن المساعدة والمعونة والإمداد ، وتراهم أيها المخاطب المتأمل يقابلونك بعيون مصوّرة صناعية ، وهي جماد لا تبصر شيئا ، ولا تدرك المرئي ؛ لأن لهم صورة الأعين ، وهم لا يرون بها شيئا ، فهم فاقدو السمع والبصر ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر ٣٥ / ١٤].

وإذ فقدوا السّمع والبصر ، فكيف يرجى منهم نصر أو عون ، وكيف يخاف منهم إحداث ضرر أو أذى لمن يحتقرهم ، وكيف يليق بكم أن تتخذوهم آلهة؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات محاجّة في عبادة الأصنام ، وتأكيد لما سبق من بيان عدم أي جدوى من تلك العبادة ، وقد دلّت على ما يأتي :

١ ـ يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام المعطلة القوى المحركة والمدركة ، لفقدها الأرجل والأيدي والأعين والآذان ؛ لأن المعبود يتّصف بهذه القوى وغيرها ، والإنسان الذي يعبدها أفضل منها بكثير ، بل لا مجال للمقارنة بينه وبينها أصلا ، فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون ، الذي لا يحس منه فائدة البتة ، لا في جلب المنفعة ، ولا في دفع المضرة؟! فهي ليست عبادا أمثال الإنسان ، وإنما هي حجارة وخشب ، فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه.

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٦.

٢ . الإنسان أفضل وأكمل حالا من الصنم ؛ لأن له رجلا ماشية ، ويدا باطشة ، وعينا باصرة ، وأذنا سامعة ، وليس للصنم شيء من ذلك.

٣ . كيف تحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضرر؟! فليس للأصنام قدرة على النفع والضرر ، لا لنفسها ولا لغيرها ، ولا تستطيع نصرة أحد.

٤ . إن تخويف المشركين الرّسول ﷺ بآلهتهم عبث وهدر ، فقد دعاهم إلى مكايدته وإضراره دون إمهال ، فخابوا وخسروا هم وشركاؤهم.

٥ . إن متولي أمور النّبي ﷺ في الدنيا والآخرة بنصره وحفظه هو الله تعالى الذي يتولّى الصّالحين من عباده ويحفظهم. جاء في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سرّ يقول : «ألا إنّ آل أبي . يعني فلانا . ليسوا لي بأولياء ، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين».

٦ . الواجب على العاقل عبادة الله تعالى ؛ لأنه هو الذي يحقق له منافع الدين بإنزال الكتاب المشتمل على العلوم العظيمة في الدّين ، ومنافع الدّنيا بتولّي الصالحين من عباده وحفظه لهم ونصرته إياهم ، فلا تضرّهم عداوة من عاداهم.

وما أروع ذلك الموقف العملي للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بالاستدلال بهذه الآية ، فإنه ما كان يدّخر لأولاده شيئا ، فقيل له فيه ، فقال : ولدي إما أن يكون من الصالحين ، أو من المجرمين ، فإن كان من الصالحين فوليّه الله ، ومن كان الله له وليّا ، فلا حاجة له إلى مالي ، وإن كان من المجرمين ، فقد قال تعالى : ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ومن ردّه الله لم أشتغل بإصلاح مهماته.

٧ . كرر الله تعالى وصف الأصنام بأنها عاجزة عن نصر عابديها ، ونصر أنفسها ، وفائدة التكرار أن المعنى الأول مذكور على جهة التقريع ، وهذا مذكور على جهة

الفرق بين من تجوز له العبادة ، وبين من لا تجوز ، فالإله المعبود هو الذي يتولّى الصالحين ، أي يحفظهم ، وهذه الأصنام لا تتولى أحدا ، فلا تصلح للألوهية.

٨ ـ الأصنام جمادات مصنوعة ، ركبت لها حدق عيون من معادن أو جواهر برّاقة ، كأنها ناظرة ، وهي جماد لا تبصر ، فلذلك قال : ﴿وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ وقد عاملها معاملة من يعقل وعبّر عنها بضمير العاقل ؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان.

وقال السّدي ومجاهد : المراد بهذا المشركون. قال ابن كثير : والأول أولى ، وهو قول قتادة ، واختاره ابن جرير.

أصول الأخلاق الاجتماعية ومقاومة الشيطان

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

الإعراب :

﴿وَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون : إن الشرطية في «ما» المزيدة.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ فعل أمر ، وهو جواب الشرط ، وجواب الأمر محذوف ، أي يدفعه عنك.

﴿إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ﴾ فعل وفاعل ، و ﴿طائِفٌ﴾ : اسم فاعل من طاف. وقرئ : طيف مخففا من طيّف ، وهو فعل من طاف ، كما خفف سيّد وميّت.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ فعل مضارع من «مدّ» وهو ثلاثي ، وقرئ بالضم على جعله مضارعا. أمد وهو رباعي. وقيل : مدّ في الخير والشّر ، وأمدّ في الشّرّ خاصة.

﴿وَإِخْوانُهُمْ﴾ جمع الضمير في هذه الكلمة والشيطان مفرد ؛ لأن المراد به الجنس ، كقوله : ﴿أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

البلاغة :

﴿يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ﴾ النزغ : إدخال الإبرة ونحوها في الجلد ، وفيه استعارة ؛ لأنه شبّه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ.

المفردات اللغوية :

﴿الْعَفْوَ﴾ اليسر من أخلاق الناس ، ولا تبحث عنها ، والمعنى : خذ ما عفا وتيسر من أخلاق الناس. ﴿بِالْعُرْفِ﴾ المعروف. ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾ يصيبنّك ، أو يصرفنّك ، والنزغ كالنّخس : إصابة الجسم بشيء محدد كالإبرة ونحوها ، والمراد منه هنا : وسوسة الشيطان. ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أي الجأ إليه وتذكره.

﴿مَسَّهُمْ طائِفٌ﴾ أصابهم شيء ألم بهم ، أي وسوسة ما. ﴿تَذَكَّرُوا﴾ عقاب الله وثوابه. ﴿فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الحق من غيره ، فيرجعون. ﴿وَإِخْوانُهُمْ﴾ أي الشياطين من الكفار. ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ﴾ يعاونهم الشياطين في الضلال. ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ لا يكفّون عن إغوائهم ، بالتّبصر كما تبصّر المتقون. والإقصار : التقصير.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى فيما سبق أن الله هو الذي يتولّى نبيّه والمؤمنين الصالحين بالحفظ والتّأييد ، وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على الإيذاء والإضرار ، بيّن في هذه الآية ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس ، وهي آية تشمل أصول الفضائل ، فهي من أسس التشريع التي تلي أصول عقيدة التّوحيد المبيّنة بأتمّ بيان. ثم أعقب ذلك بوصية وقائية ، وهي اتّقاء وساوس الشياطين من الجنّ ، بعد الأمر بالإعراض عن الجاهلين السفهاء ، اتّقاء لشرّ الفريقين.

التفسير والبيان :

جمعت الآية الأولى أصول الفضائل الثلاث وهي :

١ ـ الأخذ بالعفو : وهو السّهل من أخلاق الناس وأعمالهم ، دون تكليفهم بما يشق عليهم ومن غير تجسّس ، وإنما يؤخذ بالسّمح السّهل ، واليسر دون العسر ، كما ورد في الحديث الذي أخرجه أحمد والشّيخان والنّسائي عن أنس بن مالك عن النّبي ﷺ : «يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا». ويدخل في العفو : صلة القاطعين أرحامهم ، والعفو عن المذنبين ، والرّفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

وهذا هو الصّنف الأول من الحقوق التي تستوفي من الناس وتؤخذ منهم بطريق المساهلة والمسامحة ، ويشمل ترك التّشدد في كل ما يتعلّق بالحقوق المالية ، والتّخلّق مع الناس بالخلق الطّيّب ، وترك الغلظة والفظاظة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٩] ومن هذا القسم : الدّعوة إلى الدّين الحق بالرّفق واللطف ، كما قال تعالى : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل ١٦ / ١٢٥].

والخلاصة : إن المراد بالعفو : الأخذ باليسر والسّماحة ودفع الحرج والمشقة عن الناس في الأقوال والأفعال ، وما خيّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، كما أخرج الترمذي ومالك.

٢ ـ الأمر بالعرف وهو المعروف والجميل من الأفعال : وهو كل ما أمر به الشرع ، وتعارفه الناس من الخير ، واستحسنه العقلاء ، فالمعروف : اسم جامع لكل خير من طاعة وبرّ وإحسان إلى الناس. وهذا هو النوع الثاني من الحقوق التي لا يجوز التّساهل والتّسامح فيه ، ويراد به ما هو معهود بين الناس في المعاملات والعادات. ولا يذكر المعروف في القرآن إلا في الأحكام المهمة ، مثل

قوله تعالى في وصف الأمّة الإسلامية : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٠٤].

وفي تبيان الحقوق الزّوجية : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة ٢ / ٢٢٨] ، وفي الحفاظ على رباط الزّوجية : ﴿فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ﴾ [البقرة ٢ / ٢٢٩] ، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣١].

٣ ـ الإعراض عن الجاهلين : ويتمثل بعدم مقابلة السّفهاء والجهّال بمثل فعلهم ، وترك معاشرتهم وصيانة النّفس عنهم ، وعدم مماراتهم والحلم عنهم ، والصّبر على سوء أخلاقهم والغضّ على ما يسوءك منهم. فإذا تكلّم الجاهل الأحمق بما يسوء الإنسان ، فليعرض عنه ، ويقابله بالعفو والصّفح ، لقوله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٤] ، وقوله تعالى في فضيلة العفو : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٧].

هذه المبادئ الثلاثة هي أصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلّق بمعاملة الإنسان مع الغير. قال عكرمة : لما نزلت هذه الآية ، قال عليه الصّلاة والسّلام : «يا جبريل ، ما هذا؟ قال : إنّ ربّك يقول : هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك».

وروى الطّبري وغيره عن جابر مثل ذلك.

وقال جعفر الصادق رضي‌الله‌عنه : «أمر الله نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها». وقال عبد الله بن الزّبير : والله ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق النّاس. وقد روي عن النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال فيما رواه الترمذي : «أثقل شيء في الميزان : خلق حسن تام».

وناسب الأمر بالإعراض عن الجاهلين وهم السّفهاء اتّقاء لشرّهم ، الأمر بالاستعاذة من الشّياطين ، تجنّبا للوقوع في مفاسدهم وشرورهم ، فقال تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ...﴾ أي وإما يعرض لك الشّيطان بوسوسته ، وينخس في قلبك بحملك على خلاف ما أمرت به ، ويحاول إيقاعك في المعاصي ، أو يغضبنك من الشيطان غضب يصدّك عن الإعراض عن الجاهل ، ويحملك على مجازاته ، بجعلك ثائرا هائجا ، فالجأ إلى الله واطلب النّجاة من ذلك بالله ، واستجر بالله من نزغه ، واذكر الله في القلب واللسان ، يصرف عنك وسوسة الشيطان ، والله سميع للقول من جهل الجاهلين والاستعاذة بالله من نزغ الشيطان (وسوسته) ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بالفعل ، وبما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

والاستعاذة مطلوبة عند تلاوة القرآن في قوله تعالى : ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النّحل ١٦ / ٩٨ - ٩٩].

والخطاب في آية ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ونحوها موجّه إلى كلّ المكلّفين ، وأوّلهم الرّسول ﷺ . ويدأب الشّيطان على إلقاء وساوسه في قلب كلّ إنسان ، روى مسلم عن عائشة وابن مسعود أنّ النّبي ﷺ قال : «ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجنّ ، قالوا : وإيّاك يا رسول الله؟ قال : وإيّاي إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم منه».

ثم أوضح الله تعالى طريق التخلّص من وساوس الشّيطان ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ...﴾ أي إن عباد الله المتقين ، الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا عنه ما زجر ، إذا أصابهم طائف من الشيطان ، أي ألّمت بهم لمة منه ، تذكّروا ما أمر الله به ونهى عنه ، وذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فأبصروا السّداد ، وعرفوا طريق الحقّ والخير ، ودفعوا ما وسوس به الشّيطان إليهم ، ولم

يتبعوه أنفسهم ، فإذا هم أولو بصيرة ووعي وعقل ، وقد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه. وهذا الاعتصام بالله من الشيطان عمل وقائي ، ولا شكّ أن الوقاية خير من العلاج. فإذا وقع الإنسان في معصية بادر إلى التّوبة والإنابة والرّجوع إلى الله من قريب ، حتى يمحو الله عنه أثر الذّنب.

ومن المعروف أن للإنسان نزعة إلى الخير ونزعة إلى الشّرّ ، وبمقدار ما يجاهد به نفسه ، ويتغلّب على هوى نفسه ، ووسوسة شيطانه ، كان مثابا مقرّبا إلى الله تعالى ، قال النّبي ﷺ فيما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود : «إنّ للشّيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشّرّ وتكذيب بالحقّ ، وأمّا لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى ، فليتعوّذ من الشّيطان ، ثم قرأ : ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾.

ثم ذكر الله مدى تأثير الشيطان على الجاهلين الفاسدين فقال : ﴿وَإِخْوانُهُمْ﴾ أي وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتّقين ، فإن الشياطين يتمكّنون من إغوائهم ، ويمدّونهم في الغيّ أي الضّلال ، ويكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم ، ولا يقصرون أبدا في حملهم على المعصية أي لا يمسكون عن إغوائهم ، ولا يكفّون عن إفسادهم ، حتى يصرّوا على الشّرّ والفساد ؛ لأنهم لا يذكرون الله إذا نزغ بهم الشيطان ، ولا يستعيذون من وسواسه ، إما لعدم إيمانهم ، أو لخلو قلوبهم من التّقوى.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمّنت آية : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أصول الفضائل والأخلاق الاجتماعية ، وهي تلي في المرتبة أصول العقيدة ، ففي المعاملات والعادات ولدي التعامل مع الآخرين تظهر أخلاق الناس ، وما أحوج الإنسان إلى هذه الأصول الخلقية في تعامله مع الغير.

وقد تبيّن لدينا في تفسير الآية أن هذه الأصول ثلاث :

أخذ بالعفو : أي المعاملة باللين ، والبيان باللطف ، ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتّكليف ، ويشمل ترك التّشدّد في كلّ ما يتعلّق بالحقوق المالية ، والتّخلّق مع الناس بالخلق الطّيّب ، وترك الغلظة والفظاظة ، والدّعوة إلى الدّين الحقّ بالرّفق واللّطف. وهذا النّوع من الحقوق مما يقبل التّساهل والتّسامح فيه.

وأمر بالمعروف : وهو كلّ ما عرف شرعا وعقلا وعادة من جميل الأفعال وألوان الخير. وهذا النّوع من الحقوق لا يقبل التّسامح والتّساهل. ويشمل كل ما أمر به الشرع ، وكل ما نهى عنه من الأقوال والأفعال. والمأمورات والمنهيّات معروف حكمها ، مستقرّ في الشّريعة موضعها ، والقلوب متّفقة على العلم بها. والفرد والجماعة مطالبان بمقتضى هذا الأمر ، والإعلان الدّائم عن المعروف والأمر به ، والنّهي عن المنكر وإخفائه.

وإعراض عن الجاهلين : وهم السّفهاء ، ففي أثناء الأمر بالمعروف والتّرغيب فيه ، والنّهي عن المنكر والتّنفير منه ، ربّما أقدم بعض الجاهلين على السّفاهة والإيذاء ، فيكون الإعراض عنهم هو المتعيّن ، اتّقاء لشرّهم ، وصيانة للدّاعية عن أذاهم ، ورفعا لقدره عن مجاوبتهم. وذلك يتناول جانب الصّفح بالصّبر.

وهذه الأوامر الخلقية الثلاث ، وإن كان الخطاب فيها من الله لنبيّه عليه الصّلاة والسّلام ، فهو تأديب لجميع خلقه.

والصحيح ـ كما ذكر المفسرون مثل القرطبي والرازي وابن كثير وغيرهم ـ أن هذا الآية محكمة غير منسوخة ، كما قال مجاهد وقتادة ، بدليل ما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهولا كانوا أو شبّانا ، فقال عيينة لابن أخيه :

يا ابن أخي ، هل لك وجه عند هذا الأمير ، فتستأذن لي عليه. قال : سأستأذن لك عليه ؛ فاستأذن لعيينة. فلما دخل قال : يا ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال : فغضب عمر ، حتى همّ بأن يقع به. فقال الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إن الله قال لنبيه عليه الصلاة والسّلام : ﴿خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين. فوالله ، ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافا [1] عند كتاب الله عزّ وجلّ . وكذلك شتم عصام بن المصطلق الحسن بن علي وشتم أباه ، فنظر إليه نظرة عاطف رؤف ، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾[2].

فالتزام عمر بالآية ، وكذا التزام الحسن بن علي بها دليل على أنها محكمة. ففي حالة التعمد بالجفاء على السلطان والاستخفاف بحقه يستحق التعزير ، وفي غير ذلك يكون الإعراض والصفح والعفو ، كما فعل عمر.

وأما بقية الآيات فجعلت الناس قسمين : المؤمنين المتقين ، وإخوان الشياطين. أما المؤمنون المتقون فإنه إذا مسهم طائف من الشيطان وألمت بهم لمة تحملهم على المعاصي ، تذكروا أمر الله ونهيه ، وثوابه وعقابه ، فأبصروا الحق وحذروا وسلموا ، وإن تورطوا في المعصية ندموا وتابوا ورجعوا إلى الله تعالى.

والاستعاذة بالله عند وسوسة الشيطان وإغرائه بالمعصية : أن يتذكر المرء عظيم نعم الله عليه ، وشديد عقابه ، فيدعوه كل واحد من الأمرين إلى الإعراض عن هوى النفس ، والإقدام على طاعة أمر الشرع.

---

(١) أي لا يتجاوز حكمه ، تفسير القرطبي : ٧ / ٣٤٧ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٧ وما بعدها

(٢) انظر القصة في تفسير القرطبي : ٧ / ٣٥٠ ـ ٣٥١.

والخطاب وإن كان للرسول ، إلا أنه تعليم وتأديب عام لجميع الخلق. والرسول ﷺ قد ينزغه الشيطان. والنزغ : كالابتداء في الوسوسة. والعلاج : الاستعاذة بالله كما دلت الآية الأولى ، وأما المتقون : فيتعرضون لما هو أزيد من النزغ ، وهو أن يمسهم طائف من الشيطان ، كما دلت آية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

وقوله : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة ، فكأنه تعالى قال : اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك ، فإني سميع ، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك ، فإني عليم بما في ضميرك.

ونظير هذه الآية : ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يأتي الشيطان أحدكم ، فيقول له : من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له : من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ، ولينته».

وأما إخوان الشّياطين : وهم شياطين الإنس أو الفجّار من ضلّال الإنس أو الكفّار والمشركون ، فتمدّهم الشّياطين في الغيّ والضّلال ، ويغوون النّاس ، فيكون ذلك إمدادا منهم لشياطين الجنّ على الإغواء والإضلال. فبين الفريقين تعاون على الضّلال والإثم. وسمّوا بإخوان الشّياطين ؛ لأنهم يقبلون منهم.

وهذا التّفسير جمع بين القولين في بيان المراد من إخوان الشياطين ، القول الأوّل وهو الأظهر عند الرّازي : أن شياطين الإنس يغوون الناس ، والقول الثاني وهو الأوجه عند الزّمخشري ؛ لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتّقوا : وهو أن الشّياطين من الجنّ يكونون مددا لشياطين الإنس. والقولان مبنيان على أن لكل كافر أخا من الشّياطين (١).

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٠٠.

وعلى كل حال فإن العصاة تتمكّن الشّياطين من إغوائهم ، فيمدّونهم في غيّهم ويعضدونهم ، ولا يكفون عن ذلك ، فتراهم يستمرون في شرورهم وكفرهم وآثامهم.

وقد فسّرت الآية سابقا بالقول الثاني. والمراد من الإمداد : تقوية الوسوسة والإقامة عليها.

اتّباع النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الوحي الإلهي وخصائص القرآن

﴿وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾

البلاغة :

﴿هذا بَصائِرُ﴾ أي هذا القرآن بصائر ، تشبيه بليغ أي هذا كالبصائر ، حذفت أداة التّشبيه ووجه الشّبه ، وأصله : هذا بمنزلة بصائر القلوب.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أي وإذا لم تأت أهل مكة بآية مما اقترحوا أو بآية من القرآن. ﴿قالُوا : لَوْ لا اجْتَبَيْتَها﴾ أي قالوا : هلا اخترعتها أو اختلقتها وأنشأتها من عندك ، أو هلا طلبتها من الله. ﴿إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي إنما أنا متبع الوحي ، ولست بمختلق للآيات من عند نفسي ، أو لست بمقترح لها. ﴿هذا بَصائِرُ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب ، أي مبصّر لها ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصواب ، وهو حجج مبيّنات.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى فيما سبق إغواء الشّياطين وإضلالهم ، بيّن في هذه الآية نوعا خاصّا من أنواع الإغواء والإضلال ، وهو أنّهم كانوا يطلبون آيات كونية

معينة ، ومعجزات مخصوصة ، على سبيل التّعنّت ، كقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ، فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً﴾ الآيات [الإسراء ١٧ / ٩٠ ـ ٩١].

فإذا لم تأتهم بما طلبوا ، قالوا : هلا اختلقتها من عند نفسك ، جريا على اعتقادهم بأن القرآن من عند محمد : ﴿وَقالُوا : ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾ [سبأ ٣٤ / ٤٣].

التفسير والبيان :

وإذا لم تأت أيها الرّسول أهل مكة بآية مما اقترحوا حدوثه ، أو بآية من القرآن ، قالوا : هلا اختلقتها وتقولتها من تلقاء نفسك ، لزعمهم أن القرآن من عند محمد ، وأنه متمكن من الإتيان بالآيات الكونية والمعجزات المخصوصة ، أو هلا طلبتها من الله الذي يلبي لك حاجتك. فقل لهم يا محمد : إنما أنا متّبع وحي ربّي فقط ، ولست بمفتعل أو مختلق للآيات ، أو لست بمقترح لها ، ولست قادرا على إيجاد الآيات. ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ، قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ : ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ﴾ [يونس ١٠ / ١٥].

ثم نبههم الحق تعالى إلى ما يحقق الهدف ، وأرشدهم إلى أن هذا القرآن أعظم المعجزات ، وكأنه قال لهم : ما لكم تطلبون شيئا لا يفيدكم؟ وإنما لديكم هذا القرآن الذي يشتمل على مبصرات للقلوب ، وحجج بيّنات ، وبراهين نيّرات ، ودلائل واضحات من الله على صدقي ، وأنه من عند الله ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصّواب ، ويعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى ، أو هو بمنزلة بصائر القلوب ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها﴾ [الأنعام ٦ / ١٠٤].

وهذا القرآن هدى للحيارى إلى طريق الاستقامة ، وهو أيضا رحمة في الدنيا والآخرة لمن يؤمن به ، كما قال تعالى : ﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ ، فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٥] ، فمن آمن به وعمل بأحكامه ، فهو من المفلحين دون سواهم.

وهذه الخصائص الثلاث متفاوتة البيان بحسب أحوال طالبي المعارف ، فأعلاها الحق اليقين ، وثانيها منهج الاستقامة للمعتدلين ، وثالثها طريق الرّحمة العامة بالمؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يأتي :

١ ـ كان لأهل مكة مع النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مواقف تعنّت وتشدّد ، ومطالب شبه مستحيلة ، تهرّبا من الإيمان ، وإصرارا على الكفر ، وإمعانا في إيذاء النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، واتّهامه بأخطر أنواع الاتّهام ، وهو افتراء القرآن وتمكّنه من الإتيان بما شاؤوا من المعجزات وخوارق العادات.

٢ ـ تقتصر مهمّة النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على اتّباع الوحي وامتثال ما أمر الله به ، فإن أظهر الله معجزة أو آية على يديه قبلها ، وإن منعها عنه لم يسأله إيّاها ، إلا أن يأذن له في ذلك ، فإنه حكيم عليم.

٣ ـ هذا القرآن أعظم المعجزات وأبين الدّلالات وأصدق الحجج والبيّنات ، فهو متّصف بخصائص ثلاث : مبصّر بالحقّ في دلالته على التّوحيد والنّبوة والمعاد وتنظيم الحياة بأحسن التّشريعات ، وهاد مرشد إلى طريق الاستقامة ، ورحمة في الدنيا والآخرة للمؤمنين به.

الاستماع للقرآن وطريقة الذّكر

﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾

الإعراب :

﴿تَضَرُّعاً﴾ منصوب على المصدر ، وقيل : هو في موضع الحال.

﴿وَالْآصالِ﴾ جمع أصل ، وأصل : جمع أصيل ، وهو العشي.

المفردات اللغوية :

﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ الفرق بين السّمع والاستماع : أنّ الأول يحصل ولو بغير قصد ، والثاني لا يكون إلا بقصد ونيّة. ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ الإنصات : هو السّكوت للاستماع ، من غير شاغل يشغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ. ﴿تَضَرُّعاً﴾ تذلّلا وإظهارا للضّراعة ، أي الخضوع والضّعف. ﴿وَخِيفَةً﴾ خوفا وخشية من الله وعقابه. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي التّوسّط في الذّكر دون الجهر برفع الصّوت ، وفوق السّر والتّخافت. ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جمع غدوة : وهي ما بين صلاة الغداة (الفجر) إلى طلوع الشّمس. ﴿وَالْآصالِ﴾ جمع أصيل : وهو العشي ما بعد العصر إلى غروب الشمس ، والمقصود : الذّكر أوائل النهار وأواخره ، أي في كل وقت. ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة. ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبّرون عن عبادة الله. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ينزّهونه عما لا يليق به. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلّون لله ويخصّونه بالخضوع والعبادة.

سبب النّزول :

﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي هريرة قال : نزلت : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ في رفع الأصوات في الصّلاة خلف النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وأخرج أيضا عنه قال : كانوا يتكلّمون في الصّلاة ، فنزلت : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الآية.

وأخرج عن عبد الله بن مغفّل نحوه. وأخرج ابن جرير الطّبري عن ابن مسعود مثله.

وأخرج عن الزّهري قال : نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كلما قرأ شيئا قرأه.

وقال سعيد بن منصور في سننه عن محمد بن كعب قال : كانوا يتلقّفون من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إذا قرأ شيئا قرءوا معه ، حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وعقب السيوطي على هذه الرّوايات فقال : ظاهر ذلك أن الآية مدنيّة.

يظهر من هذه الرّوايات أن الآية نزلت في الصّلاة ، وهو مروي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر ، والزّهري وعبيد الله بن عمير ، وعطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن المسيّب. قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إذا صلّى ، فيقول بعضهم لبعض بمكّة : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت ٤١ / ٢٦]. فأنزل الله جل وعز جوابا لهم : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وقيل : إنها نزلت في الخطبة ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، وعمرو بن دينار ، وزيد بن أسلم ، والقاسم بن مخيمرة ، ومسلم بن يسار ، وشهر بن حوشب ، وعبد الله بن المبارك. قال ابن العربي : وهذا ضعيف ؛ لأن القرآن فيها قليل ، والإنصات يجب في جميعها.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أن القرآن بصائر للناس وآيات بيّنات للمؤمنين ، وهدى ورحمة لهم ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاما له واحتراما ، وتوصّلا لنيل الرّحمة به ، والفوز بالمنافع الكثيرة التي يشتمل عليها ، لا كما كان يفعل كفار قريش في قولهم : ﴿**لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**﴾.

التفسير والبيان :

إذا قرئ القرآن الكريم فأصغوا إليه أسماعكم ، لتفهموا آياته وتتعظوا بمواعظه ، وأنصتوا له عن الكلام مع السّكون والخشوع ، لتعقلوه وتتدبروه ، ولتتوصلوا بذلك إلى رحمة الله بسبب تفهّمه والاتّعاظ بمواعظه ، فإنه لا يفعل ذلك إلا المخلصون الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان.

والآية تدلّ على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن ، سواء أكانت التّلاوة في الصلاة أم في خارجها ، وهي عامّة في جميع الأوضاع وكل الأحوال ، ويتأكّد ذلك في الصّلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما رواه مسلم في صحيحة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبّر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا» رواه أيضا أصحاب السّنن عن أبي هريرة.

وهذا هو المروي عن الحسن البصري ، لكن الجمهور خصّوا وجوب الاستماع والإنصات بقراءة الرّسول ﷺ في عهده ، وبقراءة الصّلاة والخطبة من بعده يوم الجمعة ؛ لأن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصّلاة والخطبة فيه حرج عظيم ؛ إذ يقتضي ترك الأعمال.

وأما ترك الاستماع والإنصات للقرآن المتلو في المحافل ، فمكروه كراهة

شديدة ، وعلى المؤمن أن يحرص على استماع القرآن عند قراءته ، كما يحرص على تلاوته والتّأدّب في مجلس التّلاوة.

وتستحب القراءة بالتّرتيل والنّغم الدّالة على التّأثّر والخشوع من غير تكلّف ولا تصنّع ولا تمطيط ولا تطويل في المدود ، فقد روى الشّيخان عن أبي هريرة مرفوعا : «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيّ حسن الصوت ، يتغنى بالقرآن».

وثواب الاستماع كثواب التّلاوة ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : «من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة».

ثم أمر الله تعالى بذكره أول النّهار وآخره كثيرا ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق ٥٠ / ٣٩].

ومعنى الآية : اذكر ربك في نفسك سرّا ، بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره ، اذكره بقلبك : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد ١٣ / ٢٨] ، واذكره ضارعا متذلّلا خائفا راجيا ثوابه وفضله ، واذكره بلسانك ذكرا متوسّطا بين الإسرار والجهر : ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ١١٠] ، والخطاب قيل : للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وقيل : لمستمع القرآن ، والأولى أن يكون عامّا.

وينبغي أن يكون ذكر اللسان مقرونا باستحضار القلب وملاحظة المعاني ، فذكر اللسان وحده لا نفع فيه ولا ثواب عليه ، فالواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان ، وأن يكون الذّكر رغبة ورهبة.

وأنسب الأوقات للذّكر : وقت الصّباح والمساء وهو وقت الغدو والآصال ؛

لأنّ بقية النهار للعمل وكسب الرّزق ، ولأنّ هذين الوقتين وقتا هجوع وسكون.

جاء في الصّحيحين عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال : رفع الناس أصواتهم بالدّعاء في بعض الأسفار ، فقال لهم النّبي ﷺ : «يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا ، إنّ الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ تأكيد للأمر بالذّكر ، فهو نهي عن الغفلة عن ذكر الله ، والواجب جعل القلب على صلة دائمة مع الله ، وأن يشعر القلب الخضوع لله والخوف من قدرته وعظمته إذا غفل الإنسان عنه.

ثمّ أكّد الله تعالى الأمر والنّهي السّابقين بما يرغّب في الذّكر ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ...﴾ أي إنّ الملائكة المقرّبين من الله ، لا يتكبّرون عن عبادة الله ، وينزّهونه عن كلّ ما يليق بعظمته وكبريائه ، وله وحده يصلّون ويسجدون ، فلا يشركون معه أحدا.

وهذا تذكير بفعل الملائكة ، ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، لهذا شرع لنا السّجود هاهنا وفي بقية سجدات التّلاوة ، وهذه أول سجدة في القرآن فيشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع ، روى ابن ماجه عن أبي الدّرداء عن النّبي ﷺ أنّه عدّها في سجدات القرآن.

والآية ترشد إلى أن الأفضل إخفاء الذّكر ، روى أحمد وابن حبّان عن سعد عن النّبي ﷺ قال : «خير الذّكر الخفي».

فقه الحياة أو الأحكام :

الأدب مع القرآن الكريم أمر مطلوب شرعا ، وتعظيم الله واجب عقلا

وشرعا ، وذكر الله تعالى همزة وصل القلب والنفس مع الله ، وشأن الملائكة دوام العبادة والتّسبيح (تنزيه الله عما لا يليق).

والصّحيح وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال وعلى جميع الأوضاع في الصّلاة وغيرها.

لكن اختلف العلماء على آراء ثلاثة في قراءة المأموم خلف الإمام ، هل يسقط عنهم فرض القراءة في الصلاة الجهريّة والسّريّة ، أو يجب ، وهل الوجوب خاص في السّريّة دون الجهريّة؟

١ ـ الحنفيّة : رأوا أن المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقا ، جهرا كان يقرأ أو سرّا ؛ لظاهر هذه الآية ، فإن الله طلب الاستماع والإنصات ، وفي الجهريّة يتحقّق الأمران معا ، وفي السّريّة يتحقق الإنصات ؛ لأنه الممكن ؛ لأن الإمام يقرأ ، فعليه التزام الصّمت. ويؤيّده ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبّر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا» ورواه مسلم عن أبي موسى كما تقدّم ، وأخرج ابن أبي شيبة أيضا عن جابر أنّ النّبي ﷺ قال : «من كان له إمام ، فقراءته له قراءة» وهذا الحديث وإن كان مرسلا فإنه يحتج به عند الحنفيّة ، وقد رواه أبو حنيفة مرفوعا بسند صحيح.

وهو مذهب كثير من الصحابة : علي ، وابن مسعود ، وسعد ، وجابر ، وابن عباس ، وأبي الدّرداء ، وأبي سعيد الخدري ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأنس رضي الله عنهم.

٢ ـ المالكية والحنابلة : رأوا أن المأموم يقرأ خلف الإمام إذا أسرّ ، ولا يقرأ إذا جهر ، وهو قول عروة بن الزّبير ، والقاسم بن محمد ، والزّهري.

ودليلهم حديثان : الأول ـ ما رواه مالك وأبو داود والنّسائي عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : هل قرأ أحد منكم آنفا؟ فقال رجل : نعم يا رسول الله ، فقال : «إني أقول ما لي أنازع القرآن؟!» فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه من الصّلوات بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

والثاني ـ ما روى مسلم عن عمران بن حصين قال : صلّى رسول الله ﷺ بنا صلاة الظهر أو العصر ، فقال : «وأيّكم قرأ خلفي بسبّح اسم ربك الأعلى؟» فقال رجل : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : «قد علمت أن بعضكم خالجنيها».

وروي عن عبادة بن الصّامت قال : صلّى رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف ، قال : «إنّي لأراكم تقرؤون وراء إمامكم؟» ، قال : قلنا : يا رسول الله ، أي والله ، قال : «فلا تفعلوا إلا بأمّ القرآن».

لكن يلاحظ أن هذين الحديثين يدلان على مذهب الشّافعية ، لا على مذهبي المالكية والحنابلة.

٣ ـ الشّافعية : يقرأ المصلّي بفاتحة الكتاب مطلقا ، سواء كان إماما أو مأموما أو منفردا ، في صلاة جهريّة أو سريّة. واستدلّوا بالحديثين السّابقين كما لاحظنا ، وبقوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل ٧٣ / ٢٠] ، وبقوله ﷺ ـ فيما رواه الجماعة : أحمد وأصحاب الكتب الستّة عن عبادة بن الصامت : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وهذا ما اختاره البخاري والبيهقي.

ودلّت آية : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ ...﴾ على أن رفع الصّوت بالذّكر ممنوع.

وأرشدت آية : ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ على طلب السّجود ممن قرأ هذه الآية أو سمعها ، وقد شرع سجود التّلاوة إرغاما لمن أبى السّجود من المشركين ، واقتداء

بالملائكة المقرّبين. روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السّجدة ، فسجد ، اعتزل الشّيطان يبكي ، يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسّجود فسجد ، فله الجنّة ، وأمرت بالسّجود ، فأبيت فلي النّار».

وإذا سجد يقول في سجوده كما كان النّبي ﷺ يقول فيما رواه ابن ماجه عن ابن عباس : «اللهم احطط عني بها وزرا ، واكتب لي بها أجرا ، واجعلها لي عندك ذخرا» ، وفي رواية : «اللهم لك سجد سوادي ، وبك آمن فؤادي ، اللهم ارزقني علما ينفعني ، وعملا يرفعني».

واختلف العلماء في وجوب سجود التّلاوة ، فقال مالك والشّافعي وأحمد : ليس بواجب ؛ لحديث عمر الثابت في صحيح البخاري : أنه قرأ آية سجدة المنبر ، فنزل فسجد وسجد الناس معه ، ثم قرأها في الجمعة الأخرى ، فتهيأ الناس للسّجود ، فقال : «أيها الناس على رسلكم! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء» وذلك بمحضر الصحابة من الأنصار والمهاجرين رضي الله عنهم .

ومواظبة النّبي ﷺ تدلّ على الاستحباب. وأما قوله ﷺ : «أمر ابن آدم بالسّجود» فإخبار عن السّجود الواجب.

وقال أبو حنيفة : سجود التلاوة واجب ؛ لأن مطلق الأمر بالسّجود يدل على الوجوب ، ولقوله عليه الصّلاة والسّلام : «إذا قرأ ابن آدم سجدة ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله» وفي رواية أبي كريب : «يا ويلي» ، وقوله عليه الصّلاة والسّلام أيضا إخبارا عن إبليس فيما رواه مسلم : «أمر ابن آدم بالسّجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسّجود فأبيت فلي النّار».

ولا خلاف في أنّ سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصّلاة من طهارة حدث ونجس ونيّة واستقبال قبلة ووقت.

أما الوقت فقيل : يسجد في سائر الأوقات مطلقا ؛ لأنها صلاة لسبب ، وهو مذهب الشافعي والجماعة. وقيل : يسجد في غير الأوقات المكروه فيها صلاة النافلة مثل ما بعد الصّبح وما بعد العصر ، وهو مذهب الحنفية ، وفي رأي عند المالكية. وسبب الخلاف : معارضة سبب قراءة السّجدة من السّجود المرتب عليها لعموم النّهي عن الصّلاة بعد العصر وبعد الصبح ، واختلافهم في المعنى الذي لأجله نهي عن الصّلاة في هذين الوقتين.

وهل يحتاج السّاجد إلى تحريم ورفع يدين وتكبير وتسليم؟ اختلف الفقهاء في ذلك ، فذهب الشّافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبّر ويرفع للتّكبير لها أي لسجدة التّلاوة ، وروي في الأثر عن ابن عمر أنّ النّبي ﷺ كان إذا سجد كبّر ، وكذلك إذا رفع كبّر.

ومشهور مذهب مالك أنه يكبّر لها في الخفض والرّفع في الصّلاة ، واختلف المنقول عنه في التّكبير لها في غير الصّلاة.

وقال الجمهور : ولا سلام لها ، وقال الشّافعية : لها سلام ، وهذا كما قال ابن العربي أولى ، لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن علي : «مفتاح الصّلاة الطّهور ، وتحريمها التّكبير ، وتحليلها التّسليم» ، وهذه عبادة لها تكبير ، فكان لها تحليل كصلاة الجنازة بل أولى ؛ لأنها فعل ، وصلاة الجنازة قول.

فإن قرأ شخص السّجدة في صلاة ، فإن كان في نافلة سجد ، وإن كان في الفريضة لم يسجد في المشهور عن مالك ؛ لكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة ، وخوفا من التّخليط على الجماعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

مدنية وهي خمس وسبعون آية.

سورة الأنفال :

سورة مدنيّة تتحدّث عن أحكام تشريع الجهاد في سبيل الله ، وقواعد القتال ، والإعداد له ، وإيثار السّلم على الحرب إذا جنح لها العدوّ في دياره ، وآثار الحرب في الأشخاص (الأسرى) والأموال (الغنائم).

وسبب تسميتها بالأنفال واضح ، لسؤال الناس عن أحكامها ، والمراد بها الغنائم الحربية ، فقد ابتدئت السورة بقوله تعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾.

وقد نزلت عقب غزوة بدر الكبرى ، أول الغزوات المجيدة التي حقّقت النصر للمسلمين مع قلّتهم على المشركين مع كثرتهم ، لذا سمّيت (يوم الفرقان) لأنها فرقت بين الحقّ والباطل.

ومناسبتها لسورة الأعراف :

أنها في بيان حال الرّسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مع قومه ، وسورة الأعراف مبيّنة لأحوال أشهر الرّسل مع أقوامهم.

ما اشتملت عليه هذه السّورة :

تضمّنت سورة الأنفال أحكاما عديدة في الجهاد والغزوات ، أهمّها ما يأتي :

١ ـ أمر قسمة الغنائم متروك للرّسول ﷺ ، والأحكام مرجعها إلى الله تعالى ورسوله لا إلى غيرهما.

٢ ـ إرادة تحقيق النّصر الإلهي للمؤمنين في معركة بدر ، لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وبيان علّة ذلك الحكم في قوله تعالى : ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

٣ ـ الإمداد الفعلي بالملائكة للمؤمنين يقاتلون معهم : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ...﴾.

ويفهم من هذين الحكمين أن أحكام الله معللة بمراعاة مصالح الناس.

٤ ـ النّصر الحقيقي من عند الله تعالى : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

٥ ـ تعليم المؤمنين قواعد القتال الحربية ، وخطابهم لترسيخ المعلومات ستّ مرات بوصف الإيمان : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في بداية الأمر بكل قاعدة أثناء سرد أحداث بدر ، وهي تحريم الفرار من المعركة ، وطاعة الله والرّسول ، والاستجابة لله وللرسول إذا دعا إلى ما فيه عزّة الحياة والسعادة ، وتحريم الخيانة بنقل أسرار الأمة للأعداء ، والأمر بالتقوى التي هي أساس الخير كله ، والثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، وذكر الله كثيرا. ومن تلك القواعد كراهة مجادلة الرّسول في الحقّ بعد ما تبيّن ، أما قبل تبيّن الحق في المصلحة الحربية فالمجادلة محمودة ، إذ بها تتمّ المشاورة المطلوبة في القرآن بين المؤمنين ومع الرّسول. ومن القواعد الحربية الامتناع من التنازع والاختلاف حال القتال : ﴿وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

٦ . عصمة الرّسول بالهجرة من أذى قريش وتآمرهم على حبسه أو نفيه أو قتله : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾.

٧ . رفع البلاء العام عن الناس قاطبة ما دام الرّسول فيهم : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

٨ . التّوكّل على الله بعد اتّخاذ الأسباب المطلوبة في كلّ شيء ، وبخاصة الإعداد للقتال.

٩ . الظّلم مؤذن بالخراب ، ومعجّل بالفناء ، ويعمّ أثره الأمّة كلها : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً﴾.

١٠ . إن تغيّر أحوال الأمم من الذّل إلى العزّة ، ومن الضّعف إلى القوّة ، منوط بتغيير ما في النّفوس من عقائد فاسدة وأخلاق مرذولة.

١١ . الافتتان بالأموال والأولاد مدعاة للفساد : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

١٢ . إعداد مختلف القوى الماديّة والمعنويّة لقتال الأعداء : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

١٣ . إيثار السّلم على الحرب إذا مال لها العدوّ : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها﴾.

١٤ . وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق ، حتى ولو مسّ ذلك مصلحة بعض المسلمين: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ﴾.

١٥ . وجوب تأديب ناقضي العهد ومعاملتهم بالشّدّة : ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١٦ ـ غاية القتال في الإسلام صون حريّة الدّين ومنع الفتنة في الدّين : ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

١٧ ـ المسلمون أمّة واحدة والولاية والتّناصر بينهم واجب ، والكافرون أمّة واحدة ، ولا ولاية بين المؤمنين والكافرين : ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾.

السّور المكيّة والمدنيّة :

سبق في مقدّمة الجزء الأول بيان خواص السّور المكيّة والمدنيّة ، وللتّذكير بتلك الخواص بمناسبة تفسير نماذج من النّوعين أشير إلى بعض هذه الخواص ، علما بأن سورا ثلاثا مما ذكر مكيّة وهي : (الفاتحة والأنعام والأعراف) وأربعا هي مدنيّة وهي : (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) وكذا سورة الأنفال مدنيّة إلا الآيات (٣٠ ـ ٣٦) فمكيّة.

أما السّور المكيّة :

فموضوعاتها العقيدة والأخلاق ، ببيان أصول الإيمان من إثبات التّوحيد والنّبوة والبعث ، وقصص الرّسل مع أقوامهم في هذا المضمار ، وتقرير أصول الآداب والأخلاق ، ومحاجّة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول.

وأما السّور المدنيّة :

فتعنى ببيان أحكام التّشريع المفصّلة ، ومحاجّة أهل الكتاب بسبب الانحراف عن هداية كتبهم ، ففي سورة البقرة محاجة اليهود ، وفي سورة آل عمران محاجّة النّصارى ، وفي سورة المائدة محاجّة الفريقين ، وفي سورتي النّساء والتوبة مجادلة المنافقين وأحكامهم ، بعد إعلان البراءة من المشركين في سورة التوبة.

وأمّا سورة الأنفال :

فهي تنظيم لقواعد السّلم والحرب بالنّسبة للمسلمين ،

وسرد أحداث معركة بدر الكبرى ، ثمّ بيان إحباط مكائد المشركين ومؤامراتهم على قتل النّبي ﷺ أو حبسه أو إخراجه من مكّة.

السؤال عن حكم قسمة الغنائم وبيان أوصاف المؤمنين

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

الإعراب :

﴿ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ذات : مفعول به ، وهو مضاف ، وبينكم : مضاف إليه ، وأصل ذات : ذوية ، فحذفوا اللام التي هي الياء ، كما حذفت من المذكر في «ذو» فإن أصله : ذو ، فلما حذفت الياء من ذوية ، فتحركت الواو ، وانفتح ما قبلها ، فقلبت ألفا ، فصار ذات. والوقف عليها بالتاء عند أكثر العلماء والقراء.

البلاغة :

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ذكر الاسم الجليل في هذا وفي قوله ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ لتربية المهابة وتعليل الحكم.

﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد لعلو رتبتهم وشرف منزلتهم.

﴿حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره : أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا ، أو هو مصدر مؤكد لجملة التي هي : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الدرجات مستعارة لمراتب الجنة ومنازلها العالية.

المفردات اللغوية :

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ يا محمد ، والسؤال بمعنى طلب العلم يتعدى إلى مفعولين ثانيهما ب عن ، وقد يتعدى بنفسه ، وإذا كان بمعنى طلب المال فيتعدى إلى مفعولين بنفسه ، نحو سألت زيدا مالا ، وقد يتعدى بمن مثل : سألت محمدا من ماله. والسؤال هنا سؤال استفتاء لا استعطاء ، وموجه ممن حضر معركة بدر. ﴿عَنِ الْأَنْفالِ﴾ غنائم بدر ، والمراد بها هنا الغنائم الحربية ، وهي ما حصل مستغنما من العدو ، بتعب كان أو بغير تعب ، قبل الظفر أو بعده. وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك وقتادة وعكرمة. قال الزمخشري : النفل : الغنيمة ؛ لأنها من فضل الله تعالى. وقد يراد بالأنفال جمع نفل : ما يشترطه الإمام للمجاهد ، زيادة على سهمه. ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي أن حكمها لله يجعلها حيث شاء ، والرسول يقسمها بأمر الله ، فقسمها ﷺ بينهم على السواء ، كما رواه الحاكم في المستدرك.

﴿ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع ، وذات البين : الصلة التي تربط بين شيئين. أي الحال والصلة التي بينكم ، وتربط بعضكم ببعض وهي رابطة الإسلام ، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة والإيثار ، وترك الأثرة أو حب الذات. وقيل : إن ذات بمعنى صفة لمفعول محذوف ، أي أحوالا ذات بينكم يحصل بها اجتماعكم.

وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح.

والبين في أصل اللغة : يطلق على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٤] برفع بين بمعنى الوصل ، وبنصبه على الظرفية بمعنى وقع التقطع بينكم. ومن استعمال البين بمعنى الافتراق والوصل قول الشاعر :

فوالله لو لا البين لم يكن الهوى ... ولو لا الهوى ما حنّ للبين آلف

البين أولا : هو البعد ، والثاني : هو الوصل.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم. وذكر الاسم الجليل في هذا وما قبله لتربية المهابة وتعليل الحكم. وذكر الرسول مع الله تعالى لتعظيم شأنه والاعلام بأن طاعته طاعة لله تعالى.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة ، والجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه ، أي فامتثلوا الأوامر الثلاثة. والمراد بالإيمان : التصديق ، وقد يراد به كمال الإيمان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملو الإيمان. ﴿ذُكِرَ اللهُ﴾ أي وعيده. ﴿وَجِلَتْ﴾ خافت وفزعت. ﴿زادَتْهُمْ إِيماناً﴾ تصديقا. ﴿وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ به يثقون لا بغيره وعليه يعتمدون وإليه

يفوضون. ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ يأتون بها كاملة بحقوقها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم. ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في طاعة الله. ﴿أُولئِكَ﴾ الموصوف بما ذكر. ﴿حَقًّا﴾ صدقا بلا شك. ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ﴾ منازل عالية رفيعة في الجنة. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة.

سبب النزول : نزول الآية (١) :

أخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كيف تقسم ، ولمن الحكم فيها ، أهي للمهاجرين ، أم للأنصار ، أم لهم جميعا؟ فنزلت.

وأخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال ، فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النّفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين عن بواء ، أي عن سواء.

وروى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا ، فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم ، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإنا كنا ردءا لكم ، لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص ، وأخذ سيفه ، واستوهبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت في ذلك ، فأعطاه إياه ؛ لأن الأمر كله إليه صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا تعارض بين هذه الروايات ، فالآية نزلت في شأن قسمة غنائم بدر ، لما اختلف المسلمون في قسمتها ، إلا أن بعض الروايات تذكر سببا عاما للخلاف ،

وبعضها تذكر سببا خاصا ، ولا مانع من وقوع الأمرين معا. قال الجصاص : والصحيح أنه لم يتقدم من النبي ﷺ قول في الغنائم قبل القتال ، فلما فرغوا من القتال ، تنازعوا في الغنائم ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ فجعل أمرها إلى النبي ﷺ في أن يجعلها لمن شاء ، فقسمها بينهم على السواء [(١)].

وإحلال الغنائم مما اختص الله به الأمة الإسلامية ، فهي من خصائص الإسلام بدليل ما ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي. فذكر الحديث إلى أن قال. وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي».

قال أبو عبيد : ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا : وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء (النفع) عن الإسلام ، والنكاية في العدو.

وفي التنفيل (إعطاء النفل لبعض المقاتلين تشجيعا على القتال) سنن أربع لكل منها موضع :

١ ـ لا خمس في النفل الذي هو السّلب ، أي ما يكون مع القتيل من سلاح ومال ومتاع.

٢ ـ النفل يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس المنصوص عليه في آية : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال ٨ / ٤١]. وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب ، فتأتي بالغنائم ، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث ، بعد الخمس الحديث رواه أحمد وأبو داود عن معن بن يزيد : «لا نفل إلا بعد الخمس».

٣ ـ النفل الذي يكون من الخمس نفسه : هو ما يخرجه الإمام من حصته ،

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ٤٥.

وهو أن تحاز الغنيمة كلها ، ثم تخمس ، فإذا صار الخمس في يدي الإمام ، نفل منه على قدر ما يرى.

٤ ـ النفل الخارج من جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء : هو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها (١).

واختلف الفقهاء في هذه الأحوال الأربع ، فقال الشافعي : الأنفال ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السّلب. قال أبو عبيد : والوجه الثاني من النفل من خمس النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فإن له خمس الخمس من كل غنيمة. والوجه الثالث يعطى للسرية أو الجيش الذي بعثه الإمام على وفق ما شرطه لهم. ومذهب مالك وأبي حنيفة رحمهما‌الله كالشافعي أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس ، على ما يرى من الاجتهاد ، وليس في الأربعة الأخماس نفل ، قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم» وقال المالكية : النفل قسمان : جائز ومكروه ، فالجائز بعد القتال ، والمكروه أن يقال قبل القتل : من فعل كذا وكذا فله كذا. وإنما كره هذا ؛ لأن القتال فيه يكون للغنيمة.

التفسير والبيان :

يسألونك أيها الرسول عن حكم الأنفال أي الغنائم لمن هي ، وكيف تقسم؟ فقل لهم: إن حكمها لله أولا يحكم فيها بما يريد ، ثم للرسول يقسمها بينكم كما أمر الله ، فأمرها مفوض إلى الله ورسوله. وهذه الآية محكمة مجملة ، بيّن إجمالها وفصل مصارفها آية أخرى في السورة نفسها هي قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ [الأنفال ٨ / ٤١] فلا تكون هذه ناسخة لتلك ، وإنما توزع الغنائم ، الخمس لهؤلاء المذكورين في هذه الآية ، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين. أما

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٨٤.

اليوم بعد تنظيم الجيوش ومنح رواتب دائمة للجند فتؤول للدولة.

وللإمام بموجب هذا التفويض أن ينفل من شاء من المقاتلة تحريضا على القتال، كما قال النبي ﷺ يوم حنين فيما أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي قتادة: «من قتل قتيلا فله سلبه».

وإذا كان أمر الغنائم لله ورسوله فاتقوا الله سبحانه في أقوالكم وأفعالكم، واجتنبوا ما كنتم فيه من التنازع والاختلاف فيها، الموجب لسخط الله وغضبه، والموقع في الفرقة والعداوة الضارة بكم حال الحرب وغيرها.

﴿وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ من الأحوال، حتى تتأكد الرابطة الإسلامية بين بعضكم، وتشيع المحبة والمودة والوفاق والوئام بين صفوفكم، وبعبارة أخرى: اجعلوا ما كان موصولا على أصله، فهو سبب الوصل.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الغنائم وفي كل ما أمر به ونهى عنه، وقضى به وحكم.

هذه الأمور الثلاثة (تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وإطاعة أوامر الله والرسول) يتوقف عليها صلاح الجماعة الإسلامية؛ لأنها توفر معنى الانضباط والالتزام في السر والعلن لأحكام الشرع، وتوحد الكلمة والصف، وتكفل طاعة القيادة المخلصة الحكيمة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين كلام الله وكاملي الإيمان، فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة، فإن التصديق الحق يقتضي الامتثال، وكمال الإيمان يوجب هذه الخصال الثلاثة: الاتقاء، والإصلاح، وإطاعة الله تعالى ورسوله، فالمؤمن بالله حقا يستحي من عصيانه، ويدفعه إيمانه إلى طاعة ربه، وإلى إصلاح ما بينه وبين الآخرين من خلاف.

وإذا كان الإيمان مستلزما للطاعة، فإن الله تعالى ذكر خمس صفات

للمؤمنين تدفعهم إلى تحقيق الخصال الثلاثة المتقدمة ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ وهذه الصفات هي ما يأتي :

١ ـ الخوف التام من الله : الذين إذا ذكروا الله بقلوبهم ، وأحسوا بعظمته وجلاله ، وتذكروا وعده ووعيده ، خافوا منه أتم الخوف. كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الحج ٢٢ / ٣٤ ـ ٣٥].

٢ ـ زيادة الإيمان بتلاوة القرآن : الذين إذا تليت عليهم آياته القرآنية ، زادتهم إيمانا ويقينا وتصديقا ، وإقبالا على العمل الصالح ؛ لأن كثرة الأدلة والتذكير بها ، يوجب زيادة اليقين ، وقوة الاعتقاد ، فالرؤية البصرية أو الحسية مثلا تقوي القناعة الذاتية ، كما حدث لإبراهيم عليه‌السلام الذي كان مؤمنا ، وطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى : ﴿قالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قالَ : بَلى ، وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة ٢ / ٢٦٠] وهذا يدل على أن منزلة الطمأنينة في الإيمان أقوى وأعلى من مجرد الإيمان. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ [الفتح ٤٨ / ٤] وقوله : ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٤].

٣ ـ التوكل على الله أي الاعتماد عليه والثقة به والتفويض إليه : الذين يتوكلون على ربهم وحده ، وإليه يلجأون ، ولا يرجون غيره ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، وذلك بعد اتخاذ الأسباب ، فمن تعاطى الأسباب المطلوبة منه عقلا وعادة ، ثم فوض الأمر لله ، وأيقن أن الأمر كله بيد الله ، فهو من أهل الإيمان. أما ترك الأسباب فهو جهل بمفهوم التوكل.

٤ ـ إقامة الصلاة : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ ، أي يؤدونها كاملة الأركان

والشروط من قيام وركوع وسجود وتلاوة وأذكار في مواقيتها المعينة شرعا ، مع خشوع القلب ، ومناجاة الرحمن ، وتدبر قراءة القرآن.

٥ ـ الإنفاق في سبيل الله : الذين ينفقون بعض أموالهم في وجوه الخير بإخراج الزكاة المفروضة ، وأداء الصدقات التطوعية ، والنفقات الواجبة للأصول والأهل ، والمندوبة للأقارب والمحتاجين وفي مصالح الأمة وجهاد العدو ، فإن الأموال عواري وودائع عند الإنسان لا بد أن يفارقها.

وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، لذا قال تعالى بعد بيانها : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أولئك الموصوفون : بما ذكرهم دون غيرهم المؤمنون حق الإيمان. وقد أشير إليهم بأولئك المفيد للبعد لبيان كمالهم وعلو منزلتهم.

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، قال : انظر ماذا تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون [1] فيها ، فقال : يا حارثة ، عرفت فالزم ـ ثلاثا».

هذه صفات المؤمنين ، أما المنافقون فقال ابن عباس عنهم : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين ، فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾.

---

(١) يصيحون ويبكون.

ثم ذكر الله جزاء المؤمنين الموصوفين بما ذكر ، عند ربهم ، فقال : ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ ...﴾ أي لهم منازل ومقامات ودرجات في الجنات على حسب أعمالهم ونواياهم ، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٦٣]. ولهم مغفرة أي يغفر الله لهم السيئات ، يشكر لهم الحسنات ، ولهم رزق كريم : وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة. والكريم : وصف لكل شيء حسن.

قال الضحاك في قوله : ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ : أهل الجنة ﴿بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء» قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ، لا ينالها غيرهم ، فقال : «بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين».

وفي الحديث الآخر الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى ، كما تراءون الكوكب الغابر في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم ، وأنعما».

فالمؤمنون متفاوتو الدرجة في الآخرة ، وكذلك الرسل درجات ، بدليل قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٣] وفضل الله المهاجرين المجاهدين على غيرهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [التوبة ٩ / ٢٠].

وهناك تفاوت أيضا في درجات الدنيا ، لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية :

١ ـ ليس كل نزاع أو خلاف شرا ، فقد يؤدي الخلاف إلى خير ، وقد كان خلاف الصحابة سببا في بيان حكم الأنفال.

٢ ـ كان الصحابة حريصين على السؤال عما يهم من أمور الدين.

٣ ـ الله تعالى مصدر الأحكام الشرعية حقيقة ، ومرجع إصدار الأحكام إلى الله أولا ثم إلى الرسول ، لا إلى غيرهما ، وقسمة الغنائم فعلا مفوض أمرها إلى الرسول ﷺ . وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ استفتاح كلام ، وابتداء بالحق الذي ليس وراءه مرمى ، الكل لله. وقوله : ﴿وَالرَّسُولِ﴾ قيل وهو الأصح عند ابن العربي : أراد به ملكا ، وقيل : أراد به ولاية قسم وبيان حكم. ودليل الأول قوله ﷺ : «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم» فهو مالك له حقيقة ، ثم يرده إلى المسلمين تفضلا.

٤ ـ صلاح الجماعة وقوة الأمة وعزتها مرهون بأمور ثلاثة : تقوى الله في السر والعلن ، وإصلاح ذات البين ، أي الحال التي يقع بها الاجتماع ، وطاعة الله والرسول.

٥ ـ امتثال أمر الله تعالى من ثمرات الإيمان ، وإن سبيل المؤمن أن يمتثل أوامر الله.

٦ ـ آية : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ ...﴾ تحريض على إلزام طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم.

٧ ـ أوصاف المؤمنين الصحيحة :

أولا ـ الخوف من الله ، لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، فسبب الخوف : كمال المعرفة وثقة القلب.

ثانيا ـ زيادة الإيمان عند تلاوة آي القرآن وقد وصف الله أهل المعرفة عند تلاوة كتابه فقال : ﴿وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ﴾ [المائدة ٥ / ٨٣].

ثالثا ـ التوكل على ربهم أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب.

رابعا ـ إقامة الصلاة : قال قتادة : إقامة الصلاة : المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

خامسا ـ الإنفاق مما رزق الله في سبيل الله ، أي طرق الخير والبر والإحسان.

٨ ـ دل قوله تعالى : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ على أن لكل شيء حقيقة ، وأكد ذلك قصة حارثة. وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ؛ أمؤمن أنت؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله ـ ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا.

٩ ـ زيادة الإيمان ونقصانه : استدل أكثر الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد والبخاري وغيرهم الذين يقولون : إن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد

والإقرار والعمل ، استدلوا بهذه الآية : ﴿زادَتْهُمْ إِيماناً﴾ وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب بزيادة الأعمال الصالحة ، ولو كان الإيمان عبارة عن المعرفة والإقرار ، لما قبل الزيادة. واستدلوا على أن الإيمان هو مجموع الأركان الثلاثة بقوله تعالى في تعداد أوصاف المؤمنين : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وهو يدل على أن كل تلك الخصال داخل في مسمى الإيمان. ويؤيده الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال : «الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان».

كراهية بعض المؤمنين قتال قريش في بدر

﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾

الإعراب :

﴿كَما أَخْرَجَكَ﴾ الكاف للتشبيه ، وفيها ثلاثة أوجه :

الأول ـ أنها في موضع نصب على أنه صفة لمصدر محذوف دلّ عليه الكلام ، وتقديره : قل : الأنفال ثابتة لله والرسول ثبوتا كما أخرجك ربك. فمحل الكاف صفة مصدر الفعل المقدر في قوله : ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي الأنفال تثبت لله والرسول عليه الصلاة والسّلام مع كراهتهم ، ثباتا مثل ثبات إخراجك ﴿رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ ، يعني المدينة ، مع كراهتهم.

الثاني ـ أن تكون صفة لمصدر محذوف ، وتقديره : يجادلونك جدالا كما أخرجك.

الثالث ـ أن يكون وصفا لقوله : ﴿حَقًّا﴾ ، وتقديره : أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك.

وذكر الزمخشري وجها آخر وهو أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا الحال كحال إخراجك ، يعنى أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهتهم خروجك للحرب. ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ﴾ الجملة حال من كاف : ﴿أَخْرَجَكَ﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ إذ : متعلق ومنصوب بفعل مقدر ، تقديره : واذكر يا محمد إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم. و ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ : مفعول ثان ليعد ، والمفعول الأول كاف ﴿يَعِدُكُمُ﴾. و ﴿أَنَّها لَكُمْ﴾ : بدل من قوله : ﴿إِحْدَى﴾ ، وهو بدل اشتمال ، تقديره : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ﴾ أن ملك إحدى الطائفتين لكم ، ولا بد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن الوعد إنما يقع على الأحداث لا على الأعيان. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : يفعل ما فعل.

البلاغة :

﴿كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ تشبيه تمثيلي.

﴿أَنْ يُحِقَّ الْحَقَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿ذاتِ الشَّوْكَةِ﴾ استعارة ، استعار الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدة والوخز بينهما.

﴿وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك.

المفردات اللغوية :

﴿يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِ﴾ القتال. ﴿بَعْدَ ما تَبَيَّنَ﴾ ظهر لهم. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليه عيانا في كراهتهم له. ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ العير الآتية من الشام أو النفير التي جاءت من مكة للنجدة. ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ تريدون. ﴿الشَّوْكَةِ﴾ البأس والسلاح الذي فيه الحدة والقوة ، و ﴿غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ﴾ هي العير. ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ لقلة عددها وعددها بخلاف النفير. ﴿يُحِقَّ الْحَقَ﴾ يظهره. ﴿بِكَلِماتِهِ﴾ السابقة ، بظهور الإسلام. ﴿وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾ يستأصل آخرهم الذي يأتي من ورائهم ، لذا أمرهم بقتال النفير. و ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَ﴾ يعز الإسلام لأنه الحق. ﴿وَيُبْطِلَ الْباطِلَ﴾ يمحق الكفر والشرك ويزيله. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

سبب النزول :

نزول الآية (٥) :

﴿**كما أَخْرَجَكَ**﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال لنا رسول الله ﷺ ، ونحن بالمدينة ، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت : ما ترون فيها ، لعلّ الله يغنمناها ويسلمنا؟ فخرجنا ، فسرنا يوما أو يومين ، فقال : ما ترون فيهم؟ فقلنا : يا رسول الله ، ما لنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للعير ، فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى : ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا ، إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ**﴾ ، فأنزل الله : ﴿**ما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ**﴾.

المناسبة :

تتضح المناسبة بين هذه الآيات وبين ما قبلها من الكاف في ﴿**كَما أَخْرَجَكَ**﴾ الذي يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج ، وأحسن وجوه الربط تشبيه كراهية الصحابة لحكم الأنفال وإن رضوا به ، بكراهيتهم لخروجك من بيتك بالحق إلى القتال في بدر ، فهم رضوا بحكم الأنفال ، ولكنهم كانوا كارهين له ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال ، وإن كانوا كارهين له.

وفي وجه آخر : الأنفال ثابتة لك ، مثل إخراجك ربك من بيتك بالحق ، والمعنى : امض لأمرك في الغنائم ونفّل من شئت ، وإن كرهوا.

وقيل : ﴿**كما أَخْرَجَكَ**﴾ متعلق بقوله : ﴿**لَهُمْ دَرَجاتٌ**﴾ والمعنى : هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له ، فأنجزك وعده ، وأظفرك بعدوك ، وأوفى لك ، فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا ، كذا ينجزكم ما وعدكم به في الآخرة.

أضواء من السيرة على موقعة بدر :

هاجر النبي ﷺ وصحبه الذين آمنوا به من مكة إلى المدينة ، بسبب اشتداد أذى قريش لهم ، وترك المسلمون أموالهم وأرضهم وديارهم للمشركين في مكة.

فلما سمع رسول الله بأن قافلة لقريش محملة بالمؤن والأموال الكثيرة بزعامة أبي سفيان ، قادمة من الشام ، مع أربعين نفرا من قريش ، انتدب المسلمين إليهم ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعلّ الله أن ينفّلكموها. فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، واتجهوا نحو ساحل البحر على طريق بدر.

وكان أبو سفيان قد بعث حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، فعلم بخروج رسول الله ﷺ في طلبه ، فبعث ضمضم بن عمرو الغفاري نذيرا إلى أهل مكة ، يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها مع أصحابه ، فنهضوا قريبا من ألف ، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر (طريق الشاطئ) محاذيا له ، فنجا بالعير والتجارة ، وجاء النفير ، فوردوا ماء بدر ، وذلك بعد أن جمعوا جموعهم ، واستنفر أبو جهل الناس من فوق الكعبة قائلا : النجاء ، النجاء ، على كل صعب وذلول ، عيركم وأموالكم ، إن أصابها محمد فلن تفلحوا أبدا. وخرج أبو جهل على رأس النفير ، وهم أهل مكة ، ثم قيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ، ونجت ، فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا ، والله ، لا يكون ذلك أبدا ، حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمور ، وتعزف القيان ببدر ، فيتسامع جميع العرب بنا ، وبخروجنا ، وأن محمدا لم يصب العير.

فأخبر رسول الله ﷺ الناس بما حدث واستشارهم ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله به ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت

بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا ، إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ [المائدة ٥ / ٢٤] ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه ، حتى نبلغه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيرا ، ودعا له بخير. وقال الأنصار : فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد ، أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

ثم قال الرسول : «أشيروا علي أيها الناس» وكأنه يريد الأنصار ، إذ كانت بيعة العقبة معهم أن ينصروه ويدافعوا عنه في دارهم بالمدينة ، وتخوّف ألا ينصرونه خارج المدينة ، كما شرطوا ذلك في عهدهم ، فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال : أجل ، فقال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق ، لئن استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله. فسرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقول سعد ، ونشّطه ذلك ثم قال :

«سيروا على بركة الله ، وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام ، وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتي من مكة ، لنجدتهم ، وعلى رأسهم أبو جهل ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» [١].

---

(١) هذا ما رواه محمد بن إسحاق في سيرته عن عبد الله بن عباس (انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٨٨ وما بعدها).

التفسير والبيان :

إن حال الصحابة في كراهة تنفيل المقاتلة وقسمة الغنائم بالسوية مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب من بيتك بالمدينة أو المدينة نفسها ؛ لأنها موضع هجرته ومسكنه ، أو لأن بيته فيها ، وكان إخراجا بالحق ، أي متلبسا بالحكمة والصواب ، وكان فريق من المؤمنين يكرهون الخروج ، لعدم استعدادهم للقتال ، لذا فإنه أخرجك في حال كراهيتهم الخروج ، فالتشبيه بين الحالتين في مطلق الكراهة ؛ لأن بعض المسلمين في بدر كرهوا أمرين :

أولهما ـ كرهوا قسمة الغنيمة بينهم بالتساوي ، وكانت تلك الكراهة من الشبان فقط ؛ لأنهم هم الذين قاتلوا وغنموا.

وثانيهما ـ كرهوا قتال قريش ؛ لأنهم خرجوا من المدينة بقصد الغنيمة ولم يستعدوا للقتال.

ولكن الله تعالى قال لهم في الأمرين : كما أنكم اختلفتم في المغانم وتنازعتم فيها ، فانتزعها الله منكم ، وجعل قسمتها على يد الرسول ﷺ ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم ، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء وقتال ذات الشوكة وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم ، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم ، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ، رشدا وهدى ، ونصرا وفتحا.

والنتيجة من الأمرين : أن امتثال أمر النبي ﷺ في كل منهما هو الخير والمصلحة والرشاد.

يجادلك المؤمنون في الحق والرأي السديد وهو تلقي النفير ، لإيثارهم عليه أخذ العير ، بسبب قلة الرجال وكثرة المال ، والخوف من قتال المشركين الأكثر عددا وعددا ، يجادلونك بعد ما تبين لهم الحق وظهر الصواب ، بإخبارك أنهم

سينتصرون على كل حال ، وأن الله وعدك إحدى الطائفتين : العير أو النفير ، وبما أن العير قد نجت ، فلم يبق إلا النفير ، ولا داعي للقول بأننا لم نستعد للقتال ، ولا وجه للجدل بعد ما تبين الحق وهو إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون ، وحينئذ لا عذر لهم إلا خوفهم من القتال وجبنهم عن مقابلة الأعداء.

ثم شبّه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم ، وهم سائرون إلى الظفر والغنيمة بحال من يساق صاغرا إلى الموت المتيقن ، وهو مشاهد أسبابه ، ناظر إليها ، لا يشك فيها.

لكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين بالنصر ، ووعده لا يتخلف ، أما الحساب الظاهري لميزان القوى ، فكثيرا ما يظهر عكسه ، إذ ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾.

واذكروا حين وعدكم الله ملك إحدى الطائفتين : العير أو النفير ، لكي تكون السلطة والغلبة لكم.

وتتمنون أن تكون غير ذات الشوكة أي السلاح والقوة والمنعة وهي العير (القافلة) لكم ؛ لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا. وقد عبر عنها بذلك تعريضا لكراهتهم القتال وطمعهم في المال. والشوكة كانت في النفير لكثرة عددهم وتفوق عدتهم وأسلحتهم.

ويريد الله لكم غير هذا وهو مقابلة النفير الذي له الشوكة والقوة ، لينهزم المشركون ، وينتصر المؤمنون ، ويثبت الله الحق ويعليه بكلماته ، أي بآياته المنزلة على رسوله في محاربة المشركين ذوي الشوكة ، وبما أمر الملائكة من نزولهم لنصرة المسلمين ، وبما قضى من أسرهم وقتلهم ، وطرحهم في قليب (بئر) بدر.

ويريد الله أن يهلك المعاندين ، ويستأصل شأفة المشركين ، ويمحق قوتهم ، ويبدد آثارهم.

وقد فعل الله ما فعل ، ووعد بما وعد ، وأنجز النصر للمؤمنين ، ليحق الحق ، أي يثبت الإسلام ويظهره ، ويبطل الباطل أي يمحق الكفر والشرك ويزيله ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، أي المعتدون الطغاة. ولا يكون ذلك بمجرد الاستيلاء على العير ، بل بقتل أئمة الكفر وزعماء الشرك.

وبما أن الحق حق لذاته ، والباطل باطل لذاته ، وما ثبت للشيء لذاته ، فإنه يمتنع تحصيله بجعل جاعل ، فيكون المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل إظهار كون ذلك الحق حقا ، وإظهار كون ذلك الباطل باطلا ، إما بإظهار الدلائل والبينات ، وإما بتقوية رؤساء الحق ، وقهر رؤساء الباطل.

وليس هذا تكريرا لما سبق من إحقاق الحق ؛ لأن المعنيين متباينان ؛ لأن الأول لبيان مراد الله وأن هناك تفاوتا بينه وبين مرادهم ، أي الصحابة ، والثاني بيان الداعي والغرض فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض ، وهو التغلب على صاحبة القوة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ الخير والمصلحة فيما أمر الله به ، وليس فيما يرى الإنسان ، فقد يرى ما هو ضار نافعا ، وما هو نافع ضارا.

٢ ـ فعل العبد بخلق الله تعالى في رأي أهل السنة ، بدليل قوله تعالى : ﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ﴾ فإنه روي أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إنما خرج من بيته باختيار نفسه ، ثم إنه تعالى أضاف ذلك الخروج إلى نفسه ، ليدل على أنه خالق أفعال العباد.

والمعنى عند المعتزلة : أنه حصل ذلك الخروج بأمر الله تعالى وإلزامه ، فأضيف إليه. لكن هذا مجاز ، والأصل حمل الكلام على الحقيقة.

وتمسك أهل السنة أيضا في مسألة خلق الأفعال بقوله تعالى : ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَ﴾ أي أنه يوجد الحق ويكونه ، والحق ليس إلا الدين والاعتقاد ، فدلّ هذا على أن الاعتقاد الحق لا يحصل إلا بتكوين الله تعالى وخلقه.

وتمسك المعتزلة بعين هذه الآية على صحة مذهبهم ، فقالوا : هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما يريد أبدا تحقيق الحق وإبطال الباطل ، وأنه لا صحة لقول من يقول : إنه لا باطل ولا كفر إلا والله تعالى مريد له.

وردّ أهل السنة على ذلك بأن المقرر في أصول الفقه أن المفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق ، أي أنه تعالى أراد تحقيق الحق وإبطال الباطل في هذه الصورة.

٣ ـ الحق حق أبدا ، ولكن إظهاره تحقيق له ؛ لأنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. والإسلام هو الحق ، وهو الذي يريد الله إظهاره وإعزازه ، كما قال تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف ٦١ / ٩] وقال : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٨].

٤ ـ لا قرار للباطل ، ولكن لا بد من إبطاله وإعدامه ، كما أن إحقاق الحق إظهاره ، والكفر والشرك هو الباطل ، فيريد الله استئصال أهله الكافرين بالهلاك.

٥ ـ أراد الله في بدر أن يجمع بين المؤمنين القلّة وبين الكافرين الكثر أهل الشوكة والقتال ، لينصرهم عليهم ، ويظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالبا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يحسن التدبير لعباده

المؤمنين ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ ، وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً ، وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٦].

٦ ـ دلّ خروج النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ليلقى العير قبل معركة بدر على جواز النفير للغنيمة ؛ لأنها كسب حلال ، والله وعد المؤمنين إحدى الطائفتين : العير أو النفير.

الإمداد بالملائكة في معركة بدر وإلقاء النعاس وإنزال المطر

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ في قوله : ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾. ﴿بِأَلْفٍ﴾ منصوب بممدكم. وقرئ «بآلاف» جمع ألف ؛ لأن فعلا يجمع على أفعل ، نحو فلس وأفلس ، وكلب وأكلب ، ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى : ﴿بِخَمْسَةِ آلافٍ﴾ [آل عمران ٣ / ١٢٥] وآلف : جمع ألف لما دون العشرة ، ويقع على خمسة آلاف من الملائكة صفة للألف. ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بالكسر : وصف لألف ، على أنهم أردفوا غيرهم ، أي أردف كل ملك ملكا. ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بالفتح مع التخفيف : إما منصوب على الحال من الكاف والميم في ﴿مُمِدُّكُمْ﴾ وإما في موضع جر ؛ لأنه صفة لألف ، أي متبعين بألف. وقرئ مردفين.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ﴾ بدل ثان من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ أو منصوب بكلمة ﴿النَّصْرُ﴾ أو بإضمار : اذكر. والفاعل هو الله عزّوجلّ ، و ﴿النُّعاسَ﴾ : مفعول به و ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول لأجله ، والمعنى إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا أي لأمنكم. و ﴿أَمَنَةً﴾ صفة لكلمة ﴿أَمَنَةً﴾ أي أمنة حاصلة لكم من الله عزّوجلّ .

﴿إِذْ يُوحِي﴾ بدل ثالث من : ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ ، ويجوز أن ينتصب بيثبت. و ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ : مفعول يوحي.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ ذلِكَ﴾ : مبتدأ ، أو خبر مبتدأ. وتقديره : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك.

﴿ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ خبر مبتدأ مقدر ، تقديره : والأمر ذلكم. ﴿وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ﴾ عطف على ﴿ذلِكُمْ﴾ وتقديره : والأمر أن للكافرين عذاب النار.

البلاغة :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ أتى بصيغة المضارع عن الماضي لاستحضار الصورة في الذهن.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به ، للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر.

المفردات اللغوية :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر عليهم. ﴿أَنِّي﴾ بأني. ﴿مُمِدُّكُمْ﴾ معينكم. ﴿مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين ، يردف بعضهم بعضا ، مأخوذ من الإرداف : وهو الركوب وراءه ، وعدهم أولا ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ﴾ ، ثم صارت ثلاثة ، ثم خمسة ، كما ذكر في آل عمران [١٢٤ ، ١٢٥].

﴿وَما جَعَلَهُ اللهُ﴾ أي الإمداد. ﴿وَلِتَطْمَئِنَ﴾ تسكن بعد ذلك الاضطراب والخوف الذي عرض لكم إجمالا. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الشيء في موضعه.

﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ يجعله عليكم كالغطاء ، من حيث اشتماله عليكم. ﴿النُّعاسَ﴾ فتور في الحواس والأعصاب يعقبه النوم ، فهو مقدمة له ، وهو يضعف الإدارك ، والنوم يزيله. ﴿أَمَنَةً﴾ أمنا مما حصل لكم من الخوف. ﴿أَمَنَةً﴾ من الله تعالى.

﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من الأحداث والجنابات. ﴿رِجْزَ الشَّيْطانِ﴾ وسوسته لكم بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم ظمأى محدثين ، والمشركون على الماء. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ﴾ يحبس ، أي ليثبت القلوب ويحملها على الصبر واليقين. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ﴾ أن تسوخ في الرمل.

﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالإعانة والتبشير. ﴿الرُّعْبَ﴾ الخوف الشديد. ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ﴾ أي الرؤوس. ﴿كُلَّ بَنانٍ﴾ أي أطراف الأصابع من اليدين والرجلين. ﴿ذلِكَ﴾ العذاب الواقع بهم. ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا﴾ خالفوا وعادوا ، وسميت العداوة مشاقة ؛ لأنها تجعل كل طرف في شق أو جانب غير الآخر. ﴿ذلِكُمْ﴾ العذاب. ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها الكافرون في الدنيا. ﴿وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ﴾ في الآخرة.

سبب النزول :

روى أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيف أو (وبضعة عشر رجلا) ، ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلا تعبد في الأرض أبدا» قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فرداه (أو فألقاه على منكبيه) ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

فلما كان يومئذ ، التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا ،

وأسر منهم سبعون رجلا [١].

وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك ، فخرج وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٥].

فعلى هذا كانت الاستغاثة من الرسول ﷺ ، وهو المشهور. ولما اصطف القوم ، قال أبو جهل : «اللهم ، أولانا بالحق فانصره» ورفع رسول الله يده بالدعاء المذكور.

وهناك قول ثان أن الاستغاثة كانت من جماعة المؤمنين ؛ لأن خوفهم كان أشد من خوف الرسول.

والأقرب أنه دعا عليه الصلاة والسّلام وتضرع ، على ما روي ، والقوم كانوا يؤمنون على دعائه ، تابعين له في الدعاء في أنفسهم ، فنقل دعاء الرسول ولم ينقل دعاء القوم.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنه يحق الحق ويبطل الباطل ، بين أنه تعالى نصرهم عند الاستغاثة.

التفسير والبيان :

اذكروا أيها المؤمنون وقت استغاثتكم ربكم ، لما علمتم أنه لا بد من القتال ، داعين : «إي ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا». والمراد تذكيرهم بنعمة الله عليهم الذي أجاب دعاءهم ، ليشكروا ، وليعلموا مدى فضل الله عليهم ، ورحمته بهم.

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٣٩ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٨٩.

فاستجاب لكم ، أي فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من أعيان الملائكة ، مردفين أي يردف بعضهم بعضا ويتبعه ، فيتقدم بعضهم ويعقبه الآخر ، وهكذا تتابع الملائكة ، وهذه هي الطليعة ، ثم تبعها آخرون ، فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم خمسة آلاف ، كما قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [١٢٤] ثم قال : ﴿بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا ، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [١٢٥].

وما جعل الله إرسال الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى لكم بأنكم منصورون ، ولتسكن به قلوبكم من الاضطراب الذي عرض لكم ، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم.

وليس النصر الحقيقي في الحروب إلا من عند الله ، دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب الظاهرية ، إن الله عزيز لا يغلب ، حكيم لا يضع شيئا في غير موضعه ، كما قال تعالى : ﴿ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد ٤٧ / ٤].

وهل قاتلت الملائكة بالفعل يوم بدر؟ يرى بعضهم أن الملائكة لم يقاتلوا ، وإنما كان لهم تقوية معنوية؟ فكانوا يكثرون السواد ، ويثبّتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم ، فإن جبريل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط ، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة. وقد أخذ بهذا الرأي الشيخ محمد عبده ومدرسته.

وقال جمهور العلماء : نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة ، وفيها أبو بكر ، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة ، وفيها علي بن أبي طالب في صور الرجال ، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض ، وقد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت.

وهذا هو المشهور ، المروي عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنّبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنّبة.

وهذا هو الراجح المؤيد في السنة النبوية بالروايات الصحيحة ، روى ابن جرير ومسلم عن ابن عباس عن عمر الحديث المتقدم. ورويت أحاديث أخرى. ولو لا الأحاديث لكان للرأي الأول اعتبار واضح.

وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود : من أين كان الصوت الذي كنا نسمع ، ولا نرى شخصا؟ قال : هو من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم.

ومن المتفق عليه أن الملائكة لم يقاتلوا يوم أحد ؛ لأن الله وعدهم بالنصر وعدا معلقا على الصبر والتقوى ، فلم يحققوا هذا الشرط.

وقتال الملائكة مع المؤمنين لا يقلل من أهمية قيام المؤمنين بواجبهم في القتال على أتم وجه وأكمله ، فإنهم قاتلوا قتالا مستميتا استحقوا به كل تقدير ، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر ـ لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : «إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم».

وكان وقع المعركة على قريش شديدا جدا بسبب ما لا قوة من قتل زعمائهم بأسياف المسلمين ورماحهم وعلى يد شبانهم ، مع أنهم الفرسان المشاهير ، فكان هذا هو عقاب كفرهم وعنادهم ، والله تعالى يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم الأمم المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعادا الأولى بالدبور (الريح الصرصر العاتية) ، وثمود بالصيحة (الصوت الشديد المهلك) وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل (من جهنم) وقوم شعيب بيوم الظلة ، وفرعون وقومه بالغرق في اليم.

فالنعمة الأولى التي يذكّر الله بها المسلمين يوم بدر : إمدادهم بالملائكة ، ثم ذكّرهم بنعمتين أخريين هما إلقاء النعاس وإنزال المطر ، فقال : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ ..﴾ أي اذكروا ما أنعم الله عليكم من إلقاء النعاس عليكم حتى غشيكم كالغطاء ، أمانا أمّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من رؤية كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وأراحهم من عناء السير ، فمن غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف ، ويرتاح ويجدد نشاطه وقوته ، روى البيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه قال : «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي تحت شجرة ، حتى أصبح».

وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها ، فكان النوم للجمع العظيم في الخوف الشديد دفعة واحدة عجيبا وفي حكم المعجز الخارق للعادة ، مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمّ ، ولكن الله ربط جأشهم.

قال الماوردي : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان :

أحدهما ـ أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني ـ أن أمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن منيم ، والخوف مسهر.

وكذلك فعل الله تعالى بهم فألقى النعاس عليهم يوم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً ، يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٤].

وأنزل الله عليكم أيضا مطرا من السماء ليطهركم به من الحدث والجنابة ، ويذهب عنكم وسوسة الشيطان إليكم وتخويفكم من العطش ، وقيل : يذهب عنكم الجنابة التي أصابت بعضكم ؛ لأنها من تخييله ، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ﴾ ، أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ، و ﴿يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ﴾ ، وهو

شجاعة الظاهر ، أي أن إنزال المطر حقق أربع فوائد : التطهير الحسي بالنظافة والشرعي بالغسل من الجنابة والوضوء ، وإذهاب وسوسة الشيطان ، والربط على القلوب أي توطين النفس على الصبر ، وتثبيت الأقدام به على الرمال.

وظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر ، وهي ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان. وقال مجاهد وابن أبي نجيح : كان المطر قبل النعاس.

والسبب في إنزال المطر : ما روى ابن المنذر من طريق ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء ، فظمئ المسلمون ، وصلوا مجنبين محدثين ، وكان بينهم رمال ، فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن ، وقال : أتزعمون أن فيكم نبيا ، وأنكم أولياء ، وتصلّون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء ، فسال عليهم الوادي ماء ، فشرب المسلمون ، وتطهروا ، وثبتت أقدامهم (على الرمل المتلبد) وذهبت وسوسته. والضمير في ﴿بِهِ﴾ للماء أو المطر.

وسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء المتجمع من ماء المطر ، فنزلوا عليه ، وصنعوا الحياض ، ثم غوّروا ما عداها من المياه ، وبني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش على تلّ مشرف على المعركة.

هذا ما دل عليه الخبر وهو أن المشركين سبقوا إلى التجمع على الماء يوم بدر ، والمعروف كما ذكر ابن إسحاق في سيرته وتبعه ابن هشام في سيرته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر ، نزل على أدنى ماء هناك ، أي أول ماء وجده ، فتقدم إليه الحباب بن المنذر ، فقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال : بل هو الحرب والرأي والمكيدة ، قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغوّر ما وراءه من القلب

(الآبار غير المبنية) ثم نبني عليها حوضا ، فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي ، وفعلوا ذلك.

قال ابن كثير : وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء ، وكان الوادي دهسا [١] ، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبّد لهم الأرض ، ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه.

وأرى أن النص القرآني يوافق هذه الرواية التي استحسنها ابن كثير وسار عليها جمهور المفسرين كالطبري والزمخشري والرازي وغيرهم. وذكر البيضاوي رواية تؤيد ذلك فقال : روي أنهم نزلوا في كثيب أعفر تسوخ في الأقدام على غير ماء ، وناموا ، فاحتلم أكثرهم ، وقد غلب المشركون على الماء ، فوسوس إليهم الشيطان ، وقال : كيف تنصرون ، وقد غلبتم على الماء ، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله ، وفيكم رسوله؟ فأشفقوا ، فأنزل الله المطر ، فمطروا ليلا ، حتى جرى الوادي ، واتخذوا الحياض على عدوته (جانبه) وسقوا الرّكاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو ، حتى ثبتت عليه الأقدام ، وزالت الوسوسة. ثم ذكر البيضاوي معنى قوله : ﴿لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي بالوثوق بلطف الله بهم ، و ﴿يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل ، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

والأصح الذي ذكره القرطبي عن ابن إسحاق في سيرته وغيره ، وهو الذي يوفق به بين الروايات : أن الأحوال التي صاحبت نزول المطر كانت قبل وصولهم إلى بدر [٢].

---

(١) الدهس : الرمل الذي تسوخ فيه الأرجل.

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٧٣.

ومن النعم المذكورة أيضا على المؤمنين في بدر نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهي إلهام الله الملائكة أنه معهم معية إعانة ونصر وتأييد ، فقال : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ ...﴾ أي اذكروا إذ يوحي الله تعالى إلى الملائكة بأنه معهم حينما أرسلهم ردءا للمسلمين ، أو يوحي إلى الملائكة أني مع المؤمنين فانصروهم وثبتوهم ، قال الرازي : وهذا الثاني أولى ؛ لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف ، والملائكة ما كانوا يخافون الكفار ، وإنما الخائف هم المسلمون (١).

والمراد بالمعية : معية الإعانة والنصر والتأييد في مواقف القتال الشديدة.

فثبتوا قلوب المؤمنين ، وقووا عزائمهم ، وذكّروهم وعد الله أنه ناصر رسوله والمؤمنين ، والله لا يخلف الميعاد.

وقيل : إن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارف المؤمنين ، وكانوا يمدونهم بالنصر والفتح والظفر. أخرج البيهقي في الدلائل : أن الملك كان يأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه ، فيقول : أبشروا ، فإنهم ليسوا بشيء ، والله معكم ، كرّوا عليهم.

وقيل بوجه ثالث في معنى التثبيت وهو منقول عن الزجاج : للملك قوة إلقاء الخير ، وهو الإلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ، وهو الوسوسة.

ثم ذكر الله تعالى المراد بقوله : ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ : وهو أني معكم في إعانتكم بإلقاء الرعب في قلوب الكفار ، فمن أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين زرع الخوف والرعب في نفوس الكفار.

فاضربوا رؤوسهم التي هي فوق الأعناق واقطعوها ، واحتزوا الرقاب وقطّعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم ذات البنان. والبنان :

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٣٥

الأصابع ، والمراد الأطراف. والمعنى أن الله أمرهم أن يضربوا المقاتل وغير المقاتل ، ويجمعوا عليهم النوعين معا.

ثم بيّن الله تعالى سبب تأييده ونصره المؤمنين ، فقال : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شاقُّوا ...﴾ أي أن ذلك المذكور من النصر والتأييد للنبي والمؤمنين بسبب أن المشركين شاقوا الله ورسوله ، أي عادوهما وخالفوهما ، فساروا في شق أو جانب وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق آخر.

﴿وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ، أي ومن يخالف أمر الله ورسوله ويعاديهما فإن له عدا الهزيمة والخزي في الدنيا العذاب الشديد في الآخرة.

ذلكم العقاب الذي عجلته لكم أيها الكافرون المشاقون الله ورسوله في الدنيا من خزي وذل وهزيمة ونكال وما تبع ذلك من قتل وأسر ، فذوقوه عاجلا ، ولكم في الآخرة عذاب جهنم إن أصررتم على الكفر.

وعبر بالذوق الذي هو تعرف طعم اليسير لمعرفة حال الكثير عن تعجيل ما حصل لهم من الآلام في الدنيا ، فكان المعجل كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعدّ لهم في الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمور ثلاثة : تعداد النعم ، تعليم كيفية القتل ، عقاب مشاقة الله والرسول أي معاداتهما.

أما النعم المذكورة التي أراد الله التذكير بها في معركة بدر فهي سبع :

الأولى ـ النصر عند الاستغاثة ، وذلك بإمدادهم بأعيان الملائكة للمساعدة في القتال. ولا تعارض في تعداد الملائكة بين هذه السورة التي ذكر فيها ألف من الملائكة ، وسورة آل عمران التي ذكر فيها ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف ؛ لأنه تعالى

جعل الإمداد متتابعا بقوله ﴿مُرْدِفِينَ﴾ فأمدهم أولا بألف ثم بثلاثة آلاف ، ثم بخمسة حينما تذرعوا بالصبر والتقوى.

الثانية ـ إلقاء النعاس أي النوم عليهم ليلة اليوم الذي حدث فيه القتال.

الثالثة ـ إنزال المطر من السماء لتحقيق الطهارة الحسية بالنظافة والوضوء والغسل من الجنابة ، والطهارة المعنوية بإذهاب وساوس الشيطان.

الرابعة ـ الربط على القلوب أي تقويتها وإزالة الخوف والفزع عنهم ، وإفراغ الصبر عليهم وشد أزرهم لمجالدة الأعداء وقتالهم.

الخامسة ـ تثبيت الأقدام على الرمال التي تلبدت بالمطر. ودل هذا بدلالة المفهوم على أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك.

السادسة ـ الإيحاء إلى الملائكة ﴿أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فانصروهم وثبتوهم.

السابعة ـ إلقاء الرعب والخوف في قلوب الكافرين. وهذا من النعم الجليلة التي أنعم الله بها على المؤمنين.

وأما تعليم كيفية القتل : فهو أنه تعالى أمر المؤمنين بقتل الكفار في المقاتل بضرب الهامات والرؤوس التي هي محمولة فوق الأعناق ، وبضربهم في غير المقاتل بتقطيع الأيدي والأرجل ذات البنان ؛ لأن الأصابع هي الآلات في أخذ السيوف والرماح وسائر الأسلحة ، فإذا قطع بنانهم عجزوا عن المحاربة.

وأما عقاب مشاقة الله والرسول فهو الخزي والنكال والهزيمة في الدنيا ، والعذاب الشديد في نار جهنم في القيامة. والمقصود من إيراد هذا العقاب الزجر عن الكفر والتهديد عليه وتوبيخ الكافرين ، فالعقاب على ذلك نوعان : عاجل في الدنيا ، ومؤجل في الآخرة.

وأما فضل أهل بدر فليس لذواتهم وإنما لأفعالهم ، قال مالك : بلغني أن

جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : كيف أهل بدر فيكم؟ قال : خيارنا ، فقال : إنهم كذلك فينا. وذلك لجهادهم ، وأفضل الجهاد يوم بدر ؛ لأن بناء الإسلام كان عليه.

وأوجب الإسلام دفن جثث القتلى ولو كانوا من الأعداء ، فقد أمر النبي ﷺ بدفن قتلى المشركين السبعين في بدر في القليب وهي البئر العادية القديمة الكائنة في البراري.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ، ثم قام عليهم فناداهم فقال : «يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا» فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأني يجيبون وقد جيّفوا (١)؟ قال : «والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

ثم أمر بهم ، فسحبوا فألقوا في القليب ، قليب بدر.

قال القرطبي : وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته ، وحيلولة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله ﷺ : «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه : إنه ليسمع قرع نعالهم» الحديث ، أخرجه الصحيح (٢).

---

(١) جيفوا : أنتنوا ، فصاروا جيفا. وقول عمر : «يسمعون» استبعاد على ما جرت به العادة ، فأجابه النبي ﷺ بأنهم يسمعون كسمع الأحياء.

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٧٧.

الفرار من الزحف والنصر من عند الله

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾

الإعراب :

﴿زَحْفاً﴾ منصوب على الحال أي متزاحفين ، ويجوز أن يكون حالا للكفار.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ﴾ حال من فاعل : ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ والاستثناء مفرغ ، أو منصوب على الاستثناء أي ومن يولهم إلا رجلا متحرفا.

﴿ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ ذلِكُمْ﴾ : خبر مبتدأ مقدر ، تقديره : والأمر ﴿ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ﴾ عطف على ﴿ذلِكُمْ﴾ ، وتقديره : والأمر أن الله موهن.

﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ذلكم ، وتقديره : والأمر ﴿أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ومن قرأ «وإن» بالكسر فعلى الابتداء والاستئناف.

البلاغة :

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ الخطاب للمشركين على التهكم مثل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٩].

المفردات اللغوية :

﴿زَحْفاً﴾ أي مجتمعين ، كأنهم لكثرتهم يزحفون ؛ لأن الكل كجسم واحد متصل ، فيظن أنه بطيء وهو في الواقع سريع ، والمراد : جيشا زاحفين نحوكم لقتالكم. ﴿الْأَدْبارَ﴾ جمع دبر وهو الخلف ، ويقابله القبل ، ويكنى بهما عن السوأتين ، والمراد من قوله : ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ﴾ الهرب منهزمين. ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم لقائهم ﴿مُتَحَرِّفاً﴾ منحرفا أو منعطفا إلى جانب آخر مظهرا الانهزام خدعة ثم يكر ، بأن يريهم الفرار مكيدة ، وهو يريد الكرة ﴿مُتَحَيِّزاً﴾ منحازا أو منضما إلى جماعة أخرى ليقاتل العدو معها ، والفئة : الجماعة من المسلمين التي يستنجد بها. وأصل الفئة : الطائفة من الناس ﴿باءَ﴾ رجع متلبسا به ﴿وَمَأْواهُ﴾ المأوى : الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان أو الحيوان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع هي.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ ببدر بقوتكم ﴿وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصره إياكم ﴿وَما رَمَيْتَ﴾ يا محمد أعين القوم ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصى ؛ لأن كفا من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر ﴿وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ بإيصال ذلك إليهم ، ليقهر الكافرين.

﴿لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً﴾ ليختبر المؤمنين منه اختبارا حسنا بالغنيمة ، والاختبار يكون بالنقم لمعرفة الصبر ، وبالنعم لمعرفة الشكر ، والمراد هنا الاختبار بالنعم ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿ذلِكُمْ﴾ الإبلاء حق ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ الْكافِرِينَ﴾ تدبيرهم الذي يقصد به غير ظاهره ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ تطلبوا أيها الكفار الفتح والنصر في الحرب أي الفصل والقضاء في الأمر ، حيث قال أبو جهل : «اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وأتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة» أي أهلكه ﴿فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ القضاء بهلاك من هو كذلك ، وهو أبو جهل ومن قتل معه. ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن الكفر والحرب ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿نَعُدْ﴾ لنصره عليكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ تدفع ﴿فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم.

سبب النزول :

نزول الآية (١٧) :

﴿وَما رَمَيْتَ﴾ : المشهور عند أكثر المفسرين أن هذه الآية نزلت في رمي النبي ﷺ يوم بدر القبضة من حصباء الوادي ، حين قال للمشركين : شاهت الوجوه ، ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء.

روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والطبراني عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتا وقع من السماء إلى الأرض ، كأنه صوت حصاة وقعت في طست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء ، فانهزمنا ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾.

نزول الآية (١٩) :

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ : روى الحاكم عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير قال : كان المستفتح أبو جهل ، فإنه قال حين التقى القوم : أيّنا كان أقطع للرحم ، وأتى بما لا يعرف ، فأحنه (أهلكه) الغداة ، وكان ذلك استفتاحا ، فأنزل الله : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل : اللهم انصر أعز الفئتين ، وأكرم الفرقتين ، فنزلت.

وقال السدي والكلبي : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عكرمة : قال المشركون : اللهم لا نعرف ما جاء به محمد ، فافتح بيننا وبينه بالحق ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ الآية.

المناسبة :

الآيات مرتبطة بما قبلها في تعليم المؤمنين قواعد القتال ، بمناسبة قصة بدر ، ففي الآية السابقة أمرهم بضرب الهامات والرؤوس ، وتقطيع الأيدي والأرجل ، وهنا ذكر الله حكما عاما أيضا في الحروب ، وهو تحريم الفرار من الزحف في مواجهة الأعداء إلا لمصلحة حربية ، مثل التحرف لقتال (إظهار الانهزام والفرار خدعة ثم الكرّ) والتحيز إلى فئة (الانضمام إليها لمقاتلة العدو معها).

التفسير والبيان :

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، إذا اقتربتم من عدوكم ودنوتم منهم حال كونهم جيشا زاحفين نحوكم لقتالكم ، فلا تفرّوا منهم ، مهما كثر عددهم ، وأنتم قلة ، ولكن اثبتوا لهم وقاتلوهم ، فالله معكم عليهم.

وهذا الانهزام أمامهم محرم إلا في حالتين :

إحداهما ـ أن يكون المقاتل متحرفا لقتال ، أي مظهرا أنه منهزم ، ثم ينعطف عليه ، ويكر عليه ليقتله. وهو أحد مكايد الحرب وخدعها.

والثانية ـ أن يكون متحيزا إلى فئة أي منضما إلى جماعة أخرى من المسلمين لمقاتلة العدو معها ، يعاونهم ويعاونونه. فيجوز له ذلك في هاتين الحالتين.

أما فيما عداهما ، فمن فرّ أو انهزم وجبن عن القتال ، فقد رجع متلبسا بغضب من الله ، ومأواه الذي يلجأ إليه في الآخرة جهنم ، وبئس المصير هي ، وبئس المصير مصيره. قال البيضاوي : هذا إذا لم يزد العدو على الضعف ، لقوله تعالى : ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٦٦] وقال ابن عباس : من فرّ من ثلاثة لم يفر ، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ.

والآية تدل على تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من كبائر المعاصي ، بدليل ما روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعا : «اجتنبوا السبع الموبقات ـ المهلكات ـ قالوا : يا رسول الله ، وما هن؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

ثم علل الله تعالى ضرورة الثبات والصبر أمام العدو بنصره على الأعداء ، فقال : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي إن افتخرتم بقتلهم ، فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم وعدتكم ،

﴿وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ بأيديكم ؛ لأنه هو الذي أنزل الملائكة ، وألقى الرعب في قلوبهم ، وشاء النصر والظفر ، وقوى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع ، كما قال تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ ، وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ٩ / ١٤].

وذلك أن المسلمين لما كسروا أهل مكة ، وقتلوا ، وأسروا ، أقبلوا على التفاخر ، فكان القائل يقول : قتلت ، وأسرت. ولما طلعت قريش ، قال رسول الله ﷺ : «هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها ، يكذبون رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب ، فارمهم بها ، فقال لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه : أعطني قبضة من حصباء الوادي ، فرمى بها في وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا ، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. فقيل لهم : إن افتخرتم بقتلهم ، فأنتم لم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، بتثبيته قلوبكم ، وإلقائه الرعب في قلوبهم. وما رميت أيها الرسول إذ رميت المشركين في الظاهر بالقبضة من الحصباء التي رميتها ، فأنت ما رميتها في الحقيقة ؛ لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه سائر البشر في العادة ، ولكن الله رماها ، حيث أوصل ذلك التراب إلى عيونهم ، فصورة الرمي صدرت من الرسول عليه الصلاة والسّلام ، وأثره إنما صدر من الله ، والعبرة بإحداث الأثر فعلا ، فالله هو الذي بلّغ أثر ذلك الرمي إليهم ، وكبتهم بها ، لا أنت.

وقد تكرر فعل الرمي من النبي ﷺ يوم حنين.

ويكون الفرق بين فعله تعالى في القتل وبين فعل النبي والمؤمنين : أن الله هو المؤثر الحقيقي الفعال في تحقيق النتائج ، وأما فعل البشر فهو القيام بالأسباب الظاهرة المقدورة لهم التي كلفهم بها ربهم ، كما هو الحال في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية ، من كونها لا تستقل في تحقيق غاياتها إلا بفعل الله وتأثيره.

فعل الله ذلك كله ليكبت المشركين ، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ أي ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم ، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ، ليعرفوا حقه ، ويشكروا بذلك نعمته ، فهو منه تعالى اختبار للمؤمنين بالنصر والغنيمة وذيوع الصيت وحسن السمعة بين العرب.

﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لكل قول ومنه دعاؤهم واستغاثة الرسول والمؤمنين ربهم قبل القتال ، عليم بأحوالهم ونياتهم وبمن يستحق النصر والغنيمة.

ثم أتى ببشارة أخرى مع ما حصل لهم من النصر ، وهي أنه تعالى أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين في المستقبل ، محبط مكرهم ، مصغّر أمرهم ، جاعل كل ما لهم في تبار ودمار.

ثم خاطب الله أهل مكة على سبيل التهكم قائلا لهم : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ ، أي إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما ، وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم ، وتم النصر للأعلى والأهدى ، وحدث الهلاك والذلة للأدنى والأضل.

ثم أنذرهم الله ، وحذرهم بقوله : إن تنتهوا عن الكفر والتكذيب بالله ولرسوله ، وعداوة النبي ﷺ فهو خير لكم في الدنيا والآخرة وأجدى من الحرب التي جربتموها وما أحدثت من قتل وأسر ؛ وإن تعودوا لمحاربته وقتاله ، وإلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة ، نعد إلى نصره وهزيمتكم ، كما قال تعالى لبني إسرائيل : ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا﴾ [الإسراء ١٧ / ٨] والخطاب هنا للكفار ، وهو الظاهر من السياق ، وقيل : الخطاب للمؤمنين ؛ لأن قوله : ﴿فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين ، أما لو حملنا الفتح على البيان والحكم والقضاء ، لم يمتنع أن يراد به الكفار.

ولن تفيدكم جماعتكم ﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ ، إذ ليست الكثرة دائما من وسائل

النصر أمام القلة ، فقد يحدث العكس إذا اقترن فعل القلة بالصبر والثبات والإيمان والثقة بالله تعالى.

﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد والتوفيق إلى النجاح ، فلو جمعتم ما قدرتم من الجموع ، فإن من كان الله معه ، فلا غالب له ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٧٣] وقال : ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ﴾ [المائدة ٥ / ٥٦] وقال : ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ تحريم الفرار من القتال أمام العدو إلا في حالتين : التحرف لقتال ، أو التحيز إلى فئة. ولكن هذا الحكم مقيد عند الجمهور بألا يزيد عدد الأعداء عن ضعف المسلمين ، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضعف المؤمنين من المشركين ، فالفرض ألا يفروا أمامهم ، فمن فر من اثنين فهو فارّ من الزحف ، ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف ، ولا وعيد عليه ، لقوله تعالى : ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال ٨ / ٦٦] فالمسلم مطالب بالثبات أمام اثنين من الأعداء ، وهذا ما استقر عليه التشريع.

والفرار معصية كبيرة موبقة ، بظاهر القرآن وإجماع أكثر الأئمة للحديث المتقدم عن السبع الموبقات ، التي منها «التولي يوم الزحف».

أما الهرب من الزحف إذا زاد عدد الأعداء عن ضعف المسلمين فهو مباح ؛ لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فحاص الناس حيصة ،

فكنت فيمن حاص ـ أي هرب ـ ، فقلنا : كيف نصنع ، وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ، ثم بتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : «من القوم؟» فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : «لا ، بل أنتم العكّارون ـ الكرارون العطافون ـ أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين».

وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فيما رواه محمد بن سيرين ـ في أبي عبيدة ، لما قتل على الجسر ، بأرض فارس ، لكثرة الجيش ، من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو تحيّز إليّ لكنت له فئة» وقال مجاهد : قال عمر : «أنا فئة كل مسلم».

لكن وإن جاز الانهزام ، فالصبر أحسن ، بدليل أن جيش مؤتة ، وهم ثلاثة آلاف ، وقف في مقابلة مائتي ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لخم وجذام.

ووقع في تاريخ الأندلس : أن طارقا مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس ، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فالتقى وملك الأندلس : لذريق ، وكان في سبعين ألف عنان ـ فرس ـ فزحف إليه طارق ، وصبر له ، فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح.

قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يلقون العدو ، أو يكونون في محرس يحرسون ، فيأتيهم العدو وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون ، فيؤذنون أصحابهم؟ قال : إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم.

وحكم الفرار من الزحف ليس مختصا بمن كان انهزم يوم بدر ، كما يرى بعض الصحابة والتابعين (أبي سعيد الخدري ، والحسن البصري وقتادة والضحاك) وإنما

هذا الحكم عام في جميع الحروب ، لقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو عام ، فيتناول جميع الحالات ، كل ما في الأمر أنه نزل في واقعة بدر ، والعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب.

والآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب ، وهذا رأي مالك والشافعي وأكثر العلماء.

قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفرار ، وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ الآية : وفيها أنه استحق غضب الله ونار جهنم. وقال أيضا : ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفا ، فإن بلغ اثني عشر ألفا ، لم يحل لهم الفرار ، وإن زاد عدد المشركين على الضعف ؛ لقول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ فيما رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملي : «ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلّة» إلا أن فيه راويا متروكا.

فإن فرّ فليستغفر الله عَزَّوَجَلَّ ، لما رواه الترمذي عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدثني أبي عن جدّي ، سمع النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يقول : «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ، وأتوب إليه ، غفر الله له ، وإن كان قد فرّ من الزحف».

٢ ـ استدل أهل السنة بقوله تعالى : ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ؛ لأنه تعالى قال : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ ومن المعلوم أنهم جرحوا الأعداء ، فدل هذا على أن حدوث تلك الأفعال إنما حصل من الله. وقوله تعالى عن النبي عليه الصلاة والسّلام : ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي وما رميت خلقا ولكن رميت كسبا. وعلى كل حال فمذهب أهل

السنة ثابت بصريح قوله تعالى : ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٢].

٣ ـ المؤمن مطالب بتعاطي الأسباب الظاهرية ، والقيام بالتكليف الذي كلفه الله ، ثم يتوكل على الله ويفوض الأمر إليه ، أما تحقيق النتائج والأهداف فهو متروك قطعا لله عزّ وجلّ ، لا بقوة الإنسان وقدرته ، لهذا صح النفي والإثبات في قوله : ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ أي أن صورة الرمي صدرت من الرسول عليه الصلاة والسّلام ، وأثرها إنما صدر من الله. وحادثة رمي الأعداء بحفنة من الحصباء حدثت يوم بدر في الأصح كما قال ابن إسحاق ؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر والسورة بدرية ، وتكررت يوم أحد ويوم حنين.

٤ ـ كان الإخلاص في الجهاد ، وصدق اللقاء ، والثقة بالله سبب رضوان الله على أهل بدر ، وإعطائهم البلاء الحسن ، أي الإنعام عليهم ، أي ينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصرة والغنيمة والأجر والثواب.

٥ ـ إن كل قوى الكفار تتبدد أمام قدرة الله وإرادته ونصره عباده المؤمنين ، فأوهن الله كيدهم وألقى الرعب في قلوبهم ، وفرّق كلمتهم ، وأطلع المؤمنين على عوراتهم ، وخزاهم وأذلهم ، وهددهم بالعودة إلى خذلانهم إن عادوا لمحاربة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنين ، وأنبأهم بدحر قواتهم مهما كثرت ، وأن الله مؤيد بنصره المؤمنين ، ولكن مع كل هذا فتح الله باب الأمل أمامهم بالعودة عن الكفر والشرك والمعاداة إلى الإيمان والطاعة والإسلام واتباع النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ومؤازرته وتأييده ، رحمة منه بعباده ، والله رؤف بالعباد.

٦ ـ لقد تحقق مطلب أبي جهل حينما قال : اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر ، وقول المشركين حينما أرادوا الخروج إلى بدر ، وأخذوا بأستار الكعبة :

اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين. وهو معنى قوله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ أي إن تستنصروا لأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ، فقد جاءكم النصر ، على سبيل التهكم عليهم ، ففي بدر فرق الله بين الحق والباطل لذا سميت الغزوة أو المعركة بيوم الفرقان ، وأعز الإسلام وأهله ، وهزم الكفر وأعوانه.

الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من المخالفة

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾

الإعراب :

﴿وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أصلها : تتولوا ، أدغمت إحدى التاءين بالأخرى. والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ لأن المعنى : وأطيعوا رسول الله ، كقوله تعالى : ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة ٩ / ٦٢] ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد.

البلاغة :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ ...﴾ شبه الكفار بالبهائم ، وجعلهم من جنس البهائم ، ثم جعلهم شرا منها ، لتعطيلهم حواسهم عن سماع الحق والنطق به ، فهو وجه الشبه ، وأما أنهم شر من البهائم فلأنهم يضرون غيرهم والبهائم لا تضر.

المفردات اللغوية :

﴿وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ تعرضوا عن الرسول ﷺ ، بمخالفة أمره ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ ﴿وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ ، وهم المنافقون أو المشركون ﴿الدَّوَابِ﴾ جمع دابة : وهي ما تدب على الأرض ﴿الصُّمُ﴾ عن سماع الحق ، جمع أصم : وهو الأطرش ﴿الْبُكْمُ﴾ عن النطق بالحق ، جمع أبكم : وهو الأخرس.

﴿خَيْراً﴾ أي صلاحا بسماع الحق ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على سبيل الافتراض ، وقد علم ألا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنه ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عنادا وجحودا.

المناسبة :

لما خاطب الله المشركين والكفار بقوله : ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أتبعه بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الله والرسول إذا دعاهم للجهاد وغيره ؛ لأن الكلام من أول السورة إلى هنا في الجهاد. ومن عادة القرآن مقابلة الأشياء ببعضها ، فلما حذر الكافرين ، اقتضى تنبيه المؤمنين لئلا يتقاعسوا عن الدفاع عن الدين وإجابة دعوة النبي الكريم ﷺ .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين المعاندين له ، فقال :

يا أيها المتصفون بالإيمان والتصديق أطيعوا الله ورسوله في الدعوة إلى الجهاد وترك المال ، ولا تتركوا طاعته أي الرسول وامتثال أوامره وترك زواجره ، فإذا أمر بالجهاد وبذل المال وغيرهما ، امتثلتم ، والحال أنكم تسمعون كلامه ومواعظه ، وتعلمون ما دعاكم إليه. والمراد بالسماع : سماع تدبر وفهم وتأمل في المسموع ، كما هو الشأن في المؤمنين أن يقولوا : ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا ، غُفْرانَكَ رَبَّنا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٥].

واحذروا أن تكونوا مثل الذين قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون ، وهم المنافقون والمشركون ، فإنهم يتظاهرون بالسماع والاستجابة ، وليسوا كذلك ، والحال أنهم لا يسمعون أبدا.

ثم أخبر الله تعالى عن هؤلاء أنهم شر الخلق والخليقة ، فقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ...﴾ أي إن شر المخلوقات التي تدب على الأرض عند الله الصم الذين لا يسمعون الحق فيتبعونه ، ولا ينطقون بالحق ولا يفهمونه ، ولا يعقلون الفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال ، والإسلام والكفر ، أي فكأنهم لتعطيلهم هذه الحواس فيما فيه المنفعة والفائدة والخير ، فقدوا هذه القوى والمشاعر المدركة ، وهم لو استخدموا عقولهم متجردين عن التقليد والعصبية الجاهلية ، لاهتدوا إلى الحق والصواب ، وأدركوا الصالح المفيد لهم وهو الإسلام ، إلا أنهم في الواقع كالبهائم لا يعقلون الأمور ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ، وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ٣٧].

ثم أخبر الله تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ، ولا قصد لهم صحيح ، فلو علم الله في نفوسهم ميلا إلى الخير والاستعداد للإيمان والاهتداء بنور الإسلام والنبوة ، لأفهمهم ، وأسمعهم بتوفيقه كلام الله ورسوله سماع تدبر وتفهم واتعاظ ؛ ولكن لا خير فيهم ؛ لأنه يعلم أنه لو أسمعهم أي أفهمهم ، لتولوا عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ، وهم معرضون عنه من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به ، فهم لا خير فيهم أصلا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى شيئين : الأمر بطاعة الله والرسول ، والتحذير من مخالفة أمرهما ونهيهما.

وشأن المؤمنين سماع الحق ، والاهتداء بنوره ، وإطاعة الأوامر ، واجتناب

النواهي والزواجر. وهؤلاء هم فئة المؤمنين المصدقين ، وأكمل الناس وأرشدهم.

وطاعة الله والرسول شيء واحد ، وطاعة الرسول طاعة لله ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ٩ / ٦٢] وقول المؤمن : سمعت وأطعت لا فائدة منه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال الفعل المأمور به ، واجتناب المنهي عنه. أما من قصر في الأوامر واقتحم المعاصي فهو غير مطيع.

أما من ليسوا بمؤمنين ولا مصدقين كاليهود أو المنافقين أو المشركين ، فهم لا يسمعون الحق سماع تدبر وتفهم وتأمل ، لذا أخبر تعالى أن هؤلاء الكفار شر خلق الله ، وشر ما دبّ على الأرض.

أما المنافق فيظهر الإيمان ويسرّ الكفر ، فهو يتظاهر بالسماع ، وهو في الحقيقة لا يتدبر ولا يفهم شيئا.

وأما اليهودي والنصراني فيجادل في الحق بعد ما تبين له ، تمسكا بالموروث المتداول ، فهو يصم الأذن ، ويعطل العقل عن التفكير والتأمل في الدين الحق ، إصرارا على ما توارثه.

وأما المشركون فهم معاندون لا يسمعون أبدا ، ويصدون الناس أيضا عن سماع القرآن وكلام الرسول ﷺ ، ويصمون آذانهم عن سماع الحق ، ويتمسكون بتقليد الآباء والأجداد دون تأمل.

وكل هؤلاء لا يعقلون الفروق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والإسلام والكفر ، لذا كانوا بحق شر خلق الله ، وشرا من الدواب ؛ لأنهم يضرون ، والبهائم لا تضر.

الاستجابة لما فيه الحياة الأبدية

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

الإعراب :

﴿لا تُصِيبَنَ﴾ فيه واو محذوفة ، تقديره : ولا تصيبن ، مثل أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون أي وهم فيها خالدون ، فحذف الواو. وذكر الزمخشري في ذلك ثلاثة أوجه : إما أن يكون جوابا للأمر ، أو نهيا بعد أمر ، أو صفة لفتنة ، فإذا كان جوابا فالمعنى : إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ، ولكنها تعمكم ، وجاز أن تدخل النون الثقيلة المؤكدة في جواب الأمر أو الشرط ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم ؛ لأن فيه معنى النهي ، كما لو قلت : «انزل عن الدابة لا تطرحك» يجوز : لا تطرحنّك. فكذلك هنا النهي للفتنة والمراد به الذين ظلموا. وإذا كانت نهيا بعد أمر ، فكأنه قيل : واحذروا ذنبا أو عقابا ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم ، فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة ، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول ، كأنه قيل : واتقوا فتنة ، مقولا فيها : لا تصيبن.

البلاغة :

﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه الله تعالى تمكنه من قلوب العباد وتصريفها كما يشاء بمن يحول بين الشيء والشيء.

المفردات اللغوية :

﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجيبوا الله والرسول بالطاعة. ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ من أمر الدين ويصلحكم به ؛

لأنه سبب الحياة الأبدية. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإرادته ، قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إليه مصيركم ومرجعكم ، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ احذروا بلاء ومحنة إن أصابتكم بإنكار موجبها من المنكر ﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً﴾ بل تعمهم وغيرهم. ﴿شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ شديد العذاب لمن خالفه وعصاه.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٥) :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ : تأولها الزبير بن العوام والحسن البصري والسدي وغيرهما بأنها يوم وقعة الجمل سنة ست وثلاثين. قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زمانا ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها. وقال الحسن : نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير ، وهو يوم الجمل خاصة. وقال السدي : نزلت في أهل بدر ، فاقتتلوا يوم الجمل. وروي أن «الزبير كان يساير النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوما إذ أقبل علي رضي‌الله‌عنه ، فضحك إليه الزبير ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : كيف حبّك لعليّ؟ فقال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، إني أحبه كحبي لولدي ، أو أشد حبا ، قال : فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله؟» [1].

وقال ابن عباس رضي‌الله‌عنه : نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر فيما بينهم ، فيعمهم الله بالعذاب.

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «يكون بين ناس من أصحابي فتنة ، يغفرها الله لهم بصحبتهم إياي ، يستنّ بهم فيها ناس بعدهم ، يدخلهم الله بها النار» [2].

---

(١) الكشاف : ٢ / ١١

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ٣٩١.

وهذه التأويلات تعضدها الأحاديث الصحيحة ، ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «نعم إذا كثر الخبث». وفي صحيح الترمذي : «إن الناس إذا رأوا الظالم ، ولم يأخذوا على يديه ، أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده». وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا [١] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء ، مرّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة ، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بطاعة الله والرسول في الجهاد وبذل المال وغيرهما ، أردفه بالأمر بإجابة الله والرسول إذا دعاهم لما يحييهم حياة أبدية ، ويصلحهم بهداية الدين وأحكامه ، فكأن هذه الآيات بمثابة بيان العلة لطاعة الله والرسول ، وهو تحقيق الصلاح والخير والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة بالتزام الدين.

التفسير والبيان :

كرر الله النداء بلفظ الذين آمنوا هذه الآيات وما قبلها ، إشارة إلى أن وصف الإيمان موجب الامتثال والإجابة والإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهي.

---

(١) استهموا : اقترعوا.

والمعنى : أيها المؤمنون ، أجيبوا دعوة الله ، ودعوة الرسول إذا دعاكم لما يحييكم حياة طيبة أبدية مشتملة على سعادة الدنيا والآخرة ، وفيها صلاحكم وخيركم ، وفيها كل حق وصواب ، وذلك شامل القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة. والمراد من قوله : ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الطيبة الدائمة ، قال تعالى : ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ [النحل ١٦ / ٩٧]. وقال البخاري : ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ : أجيبوا ، ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ : لما يصلحكم.

وأكثر الفقهاء على أن ظاهر الأمر للوجوب ، فالأمر هنا للوجوب حتى يكون له معنى وفائدة ، صونا للنص عن التعطيل ، ولأن قوله بعدئذ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جار مجرى التهديد والوعيد ، وهو لا يليق إلا بالإيجاب.

فيجب بناء عليه امتثال ما أمر به الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بجد وعزم ونشاط من أمور الدين عبادة وعقيدة ومعاملة. أما أمور العادات كاللباس والطعام والشرب والنوم ، فليست من الدين الواجب الاقتداء به.

ومن أعرض عما أمر النبي به من الإيمان والقرآن والهدى والجهاد ، فهو ميت لا حياة طيبة أو روحية فيه ، كما قال تعالى : ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ، وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٢].

ومعنى قوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ : بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل. والقلب : موضع الفكر. قال مجاهد في الآية : ﴿يَحُولُ ...﴾ أي حتى يتركه لا يعقل ، والمعنى : يحول بين المرء وعقله ، حتى لا يدري ما يصنع. وفي التنزيل : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق ٥٠ / ٣٧] أي عقل.

وقيل : يحول بينه وبين قلبه الموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات ، قال في الكشاف : يعني أنه يميته فتفوته الفرصة. وقيل : المعنى يقلب الأمور من حال إلى حال ، قال القرطبي : وهذا جامع. روى الإمام أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك ﵁ قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : «يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك» فقلنا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال : «نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها».

واختيار الطبري : أن يكون ذلك إخبارا من الله ﷿ بأنه أملك لقلوب العباد منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله ﷿ .

وأرى أن اختيار الطبري والقرطبي في تفسير الآية أسلم الآراء ، ومعناها أن الله مهيمن على قلب الإنسان وفكره وإرادته ، يقلب الأمور بيده كيف شاء من حال إلى حال ، وهو المتصرف في جميع الأشياء ، يصرف القلوب بما لا يقدر عليه صاحبها ، ويغير اتجاهاته ومقاصده ونياته وعزائمه حسبما يشاء. والمقصود من الآية الحث على الطاعة قبل وجود الموانع من مرض وموت مثلا.

وفسر بعضهم الآية بحسب الاختلاف في الجبر والقدر ، فالقائلون بالجبر : يرون أن الله يحول بين المرء الكافر وطاعته ، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته ، فالسعيد من أسعده الله ، والشقي من أضلّه الله. وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه ، فتزول صفة العدل حينئذ ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم.

وقال الجبائي من المعتزلة : إن من حال الله بينه وبين الإيمان ، فهو عاجز ، وأمر العاجز سفه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بصعود السماء ، وقد أجمعوا

على أن المريض الزّمن لا يؤمر بالصلاة قائما ، فكيف يجوز ذلك على الله تعالى؟ وقد قال تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦] (١).

ومما يدل على أن المقصود من الآية الحث على الطاعة قبل فوات الأوان والفرصة ما ختمت به ، وهو قوله : ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي أسرعوا في العمل وأعدوا العدة ليوم الحشر ، فإنكم إلى الله مرجعكم ومصيركم ، فيجازيكم بأعمالكم.

وبعد أن حذر الله تعالى الإنسان أن يحال بينه وبين قلبه ، حذره من الفتن ، فقال : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً ...﴾ أي احذروا الوقوع في الفتنة وهي الاختبار والمحنة التي يعمّ فيها البلاء المسيء وغيره ، ولا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من ارتكب الذنب ، بل يعمهما ، حيث لم تدفع وترفع. وبعبارة أخرى : واحذروا فتنة ، إن نزلت بكم ، لم تقتصر على الظالمين خاصة ، بل تتعدى إليكم جميعا ، وتصل إلى الصالح والطالح.

وكانت فتنة عثمان أول الفتن التي ما زال أثرها قائما في التاريخ ، وكانت سببا في اقتتال المسلمين في وقعة الجمل وصفين ومقتل الحسين وغيرها ، وفي ظهور البدع والمنكرات ، واستمرت الفتن بين المسلمين ، وأخذت أشكالا متعددة ، من قومية ، وتفرق في الدين ، وانقسام إلى أحزاب دينية ، وأحزاب سياسية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ ، أي أنه تعالى شديد العذاب في الدنيا والآخرة لمن عصاه من الأمم والأفراد ، وخالف هدي دينه وشرعه.

وهذا التحذير عام يعمّ الصحابة وغيرهم ، وإن كان الخطاب لهم أولا.

ومقتضى التحذير منع ما يؤدي إلى العذاب العام ، والعمل على إزالته ورفعه إذا وقع ، كإهمال الجهاد ، وشيوع المنكر ، وافتراق الكلمة ، والالتواء في الأمر

---

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ١٤٧ ـ ١٤٨.

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وردت أحاديث كثيرة تحذر من الفتن ، منها : ما رواه أحمد وأبو داود عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من قوم يعملون بالمعاصي ، وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره إلا عمّهم الله بعقاب ، أو أصابهم العقاب».

ثم نبّه الله تعالى عباده المؤمنين على نعمه وإحسانه عليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، وهذا كان حال المؤمنين قبل الهجرة من مكة إلى المدينة ، فبعد أن أمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول ، ثم أمرهم باتقاء المعصية ، أكد ذلك التكليف بهذه الآية ، فقال : واذكروا أيها المهاجرون ، وقيل : الخطاب لجميع المؤمنين في عصر التنزيل ، اذكروا وقت أن كنتم قلة مستضعفين في مكة ، والمشركون أعزة كثرة يذيقونكم سوء العذاب ، وكنتم خائفين غير مطمئنين ، ﴿تخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ ، أي يأخذكم مشركو العرب بسرعة خاطفة للقتل والسلب ، كما كان يتخطف بعضهم بعضا خارج الحرم المكي ، كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٦٧] وقال : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٧].

﴿فَآواكُمْ﴾ ، أي جعل لكم مأوى تتحصنون به في المدينة ، وأيّدكم ، أي أعانكم وقواكم يوم بدر وغيره من الغزوات بنصره المؤزر وعونه ، وسيؤيدكم بنصره على من سواكم من الروم والفرس وغيرهم ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ رزقا حسنا مباركا فيه وأحل لكم الغنائم ، كي تشكروا هذه النعم الجليلة ، والغرض التذكير بالنعمة لتكون حاملا لهم على إطاعة الله وشكر الفضل الإلهي.

أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة بن دعامة السدوسي ﵀ في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس ذلّا ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ،

معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم ، لا والله ما في بلادهم ما يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردّي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرّ منزلا منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكّن به في البلاد ، ووسّع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عزّوجلّ .

فقه الحياة أو الأحكام :

بان من الآيات العبر والعظات الكثيرة ، بالإضافة إلى الأحكام الأساسية في الإسلام وهي ما يلي :

١ ـ وجوب إجابة دعوة الله والرسول وإطاعتهما تأكيدا لما سبق ، لما فيه الخير والصلاح والحياة الطيبة الدائمة السعيدة في الدنيا والآخرة. وسبيل ذلك الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد والهدى الإلهي.

ذكر الحافظ ابن كثير والبخاري عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال : كنت أصلي في المسجد ، فمرّ بي النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فدعاني فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي. فقال : ألم يقل الله عزّوجلّ : ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال : لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليخرج فذكرت له ذلك ، فقال : الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». قال الشافعي : هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتي به في الصلاة لا تبطل ؛ لأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإجابة وإن كان في الصلاة.

٢ ـ إن الله تعالى أملك لقلوب العباد منهم ، وهو المتصرف في جميع الأشياء ، سواء أكانت من أفعال القلوب والعقول أم من أفعال الأعضاء.

٣ ـ وجوب تجنب أسباب الفتنة والبلاء والعذاب ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتوحيد الكلمة ، ومحاربة البدع ، ومقاومة الانقسام ، والمدعوة إلى الوحدة بين الأمة حكاما ومحكومين ؛ لأن وباء الفتنة لا يقتصر على الظالمين خاصة ، وإنما يعمّ الجميع. لكن يجب الكف عن الخوض في خلافات الصحابة.

٤ ـ الحث على لزوم الاستقامة خوفا من عقاب الله تعالى.

٥ ـ تذكر النعم الجليلة التي أنعم الله بها على المؤمنين ، والمبادرة إلى شكرها ، والاعتبار والاتعاظ بها ، فالله يحقق لمن امتثل أوامره سعادة الدنيا ، وعزة السلطان ، والتمكين في الأرض ، والأمن من المخاوف ، والنصر على الأعداء ، ويمنحهم أيضا الفوز والنجاة والرضوان في الآخرة. فإن تنكروا للأوامر الإلهية ولم يشكروا النعم ، كحال المسلمين اليوم ، صاروا أذلة ضعافا. وسنة الله في ذلك هي : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨].

خيانة الله والرسول وخيانة الأمانة

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

الإعراب :

﴿وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما ـ أن يكون مجزوما بالعطف على قوله تعالى : ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾.

والثاني ـ أن يكون منصوبا بأن مضمرة بعد حتى ، على جواب النهي بالواو ، كقول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

المفردات اللغوية :

﴿لا تَخُونُوا﴾ الخيانة في الأصل : النقص وإخلاف المرتجى ، ثم استعملت في الإخلال والنقص والغدر وإخفاء الشيء الذي هو ضدّ الأمانة والوفاء ، وفيه معنى النقصان. ﴿أَماناتِكُمْ﴾ ما ائتمنتم عليه من الدّين وغيره من التكاليف الشرعية ، والأمانة : كل حق يجب أداؤه إلى الغير. فتنة اختبار وابتلاء بما يشق على النفس فعله أو تركه ، وهي تكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء ، فيمتحن الله المؤمن والكافر على السواء. ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فلا تضيعوه بمراعاة مصالح الأموال والأولاد.

سبب النزول :

روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة قال : نزلت هذه الآية : ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة بن عبد المنذر ، سأله بنو قريظة يوم قريظة : ما هذا الأمر ، فأشار إلى حلقه ، يقول : الذبح ، فنزلت ، قال أبو لبابة : ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله.

فالآية نزلت في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر. وكان حليفا لبني قريظة من اليهود. وقد بعثه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى بني قريظة ، لينزلوا على حكمه ، فاستشاروه ، فأشار إليهم أنه الذبح ؛ لأن عياله وماله وولده كانت عندهم. وذلك بعد أن حاصرهم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إحدى وعشرين ليلة.

قال الزهري : فلما نزلت الآية شدّ نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي ، فمكث تسعة أيام. وفي رواية : سبعة أيام. لا يذوق فيها طعاما حتى خرّ مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل : يا أبا لبابة قد تيب عليك ، فقال : لا والله ، لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم هو الذي يحلّني ، فجاءه فحلّه بيده.

ثم قال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن انخلع من مالي ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : يجزيك الثلث أن تتصدق به.

وروى ابن جرير وغيره عن جابر بن عبد الله : أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فاخرجوا إليه ، واكتموا ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان : إن محمدا يريدكم ، فخذوا حذركم ، فأنزل الله : ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ لكنه حديث غريب جدا ، مما يدل على أن الأصح نزول الآية في أبي لبابة.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أنه رزق العباد من الطيبات وأنعم عليهم بالنعم الجليلة ، منعهم هنا من الخيانة في الغنائم وغيرها من التكاليف الشرعية.

التفسير والبيان :

يوجب الله تعالى في هذه الآية أداء التكاليف الشرعية بأسرها على سبيل التمام والكمال ، من غير نقص ولا إخلال.

يا أيها المؤمنون المصدقون بالله ورسله وقرآنه ، لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه أو تتعدوا حدوده ومحارمه ، ولا تخونوا الرسول بأن لا تستنوا به ولا تأتمروا بما أمركم به أو لا تنتهوا عما نهاكم عنه ، وتتبعوا أهواءكم وتقاليد آبائكم الموروثة ، ولا تخونوا أماناتكم التي تأتمنوها فيما بينكم ، بأن لا تحفظوها ، وذلك يشمل الودائع المادية ، والأسرار العامة للأمة والخاصة بالأفراد ، فتطلعوا على الأولى الأعداء ، وتفشوا الثانية بين الناس. والأمانة : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد من الفرائض والحدود ، وخيانتها : تعطيل فرائض الدين ، والتحلل من أحكامه والاستنان بسنته ، وتضييع حقوق الآخرين.

وأنتم تعلمون أنكم تخونون ، وتعلمون تبعة ذلك ووباله ، وتميزون بين الحسن

والقبيح وتعرفون مفاسد الخيانة ، يعني أن الخيانة : هي التي توجد منكم عن تعمد ، لا عن سهو.

والخيانة : تعمّ الذنوب الصغار والكبار الملازمة للإنسان والمتعدية الضرر إلى الآخرين.

والأمانة من صفات المؤمنين ، والخيانة من صفات المنافقين ، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قلما خطب رسول الله ﷺ إلا قال : «لا إيمان لمن لا عهد له».

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

ثم إنه لما كان سبب الإقدام على الخيانة هو حبّ الأموال والأولاد ، نبّه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن مضار ذلك الحب ، فقال : ﴿أَنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي إن الأموال والأولاد محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ، وسبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب ؛ لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتحجب عن عمل الآخرة. والسبب هو أن الإنسان مفطور على حب المال ، طماع في كسبه وادخاره ، فيبخل به ، ولا يؤدي منه حقوق الله ، ولا يحسن به إلى الفقراء ولا ينفقه في أعمال البر والخير والإحسان. وحب الأولاد مما فطر عليه الإنسان أيضا ، وقد يحمل هذا الحب إلى كسب المال الحرام من أجلهم ، لذا وجب على المؤمن الحذر من المال والولد ، فيكسب المال الحلال ، وينفقه في مستحقاته وفي سبيل البر والإحسان ، ويطعم أولاده حلالا ، حتى لا ينبت جسدهم من السحت والحرام ، ولا يكون الولد سببا للجبن والبخل ، ولا يقصر الوالد في تربية أولاده على الخلق الفاضل والالتزام بأحكام الدين ، والبعد عن المعاصي والمحرمات.

ثم ختم الله تعالى الآية بخاتمة مؤثرة توقظ المقصر والمتورط فقال : ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي أن ثوابه وعطاءه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئا ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، فعليكم أن تؤثروا ثواب ربكم ، بمراعاة أحكام شرعه ودينه في الأموال والأولاد ، وأن تزهدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد ، حتى تورطوا أنفسكم من أجلهما ، كقوله تعالى : ﴿الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

تؤكد هذه الآيات مضمون المجموعتين السابقتين من الآيات التي تطالب بطاعة الله وطاعة الرسول ، والاستجابة لدعوة الله والرسول ، ثم يستمر التأكيد في الآية التي بعدها التي تطالب بتقوى الله أي العمل بالمأمورات واجتناب المنهيات.

وقد دلت هذه الآيات هنا على ما يلي :

١ ـ تحريم الخيانة المتعمدة مطلقا ، وإيجاب الأمانة : وهي أداء التكاليف الشرعية ، والأعمال التي ائتمن الله عليها العباد ، أي الفرائض والحدود. وأما الخيانة : فهي الإخلال بالواجبات ، والتقصير في أداء الفرائض ، وإفشاء الأسرار ، وعدم ردّ الودائع والأمانات إلى أصحابها ، وتضييع حقوق الآخرين.

٢ ـ الأموال والأولاد فتنة واختبار يمتحن به المؤمن الصادق الإيمان ، فإن كان كسب المال حلالا وإنفاقه في وجوه الخير ، نجا صاحبه من إثمه وطغيانه ، وإن ربي الوالد ولده تربية دينية خلقية ، وأطعمه الحلال الطيب ، خلص من الحساب يوم الآخرة. وإن كان العكس في كل ذلك عرّض نفسه للعقاب والإثم.

وقد عرف من سبب النزول أن وجود الأموال والأولاد لأبي لبابة في بني قريظة هو الذي حمله على ملاينتهم.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تنبيه على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا ؛ لأنها أعظم شرفا ، وأتم فوزا ، وأخلد مدة وأثرا ؛ لأنها تبقى بقاء لا نهاية له ، لذا وصف الله تعالى الأجر بالعظم.

٤ ـ قال الرازي : يمكن الاستدلال بهذه الآية على أن الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالزواج (النكاح) ؛ لأن الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله ، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ، ويوجب الحاجة إلى المال ، وذلك فتنة.

ولكن ذلك في تقديري حيث كان الإنسان في حال اعتدال ، ثم لا شك بأن الزواج يساعد على التقوى والعفة.

تقوى الله وفضلها

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

المفردات اللغوية :

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ﴾ التقوى : هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ؛ وسميت بذلك لأنها تقي العبد من النار. ﴿فُرْقاناً﴾ نصرا ونجاة ، تنجون مما تخافون ، وسمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله ، ومنه سمي يوم بدر في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ [الأنفال ٨ / ٤١] لأنه فصل بين الحق والباطل أو يجعل لكم بيانا وظهورا يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض. ورأى بعض العلماء الجدد : أنه العلم الصحيح والحكم

الراجح أو نور البصيرة والهداية الذي يفرق به بين الحق والباطل ، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل والقرآن ، وغلب على الكتاب الأخير ، قال تعالى : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١].

والخلاصة : إن الفرقان : هو الفارق الفاصل بين الحق والباطل ، وهذا تفسير أعم مما ذكر ، ويستلزم ما ذكر ، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره ، وفّق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته في الدنيا وسعادته في الآخرة ، وإثابته الثواب الجزيل.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ تكفير الذنوب : محوها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ غفرها : سترها عن الناس.

﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ واسع الفضل عظيم العطاء ، يعطي الثواب الجزيل.

المناسبة :

لما حذر الله تعالى من الفتنة بالأموال والأولاد ، رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد.

التفسير والبيان :

يا أيها المؤمنون المصدقون ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ﴾ باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، يجعل لكم فارقا بين الحق والباطل وهداية ونورا ينور قلوبكم ، وهذا النور في العلم القائم على التقوى هو الحكمة في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة ٢ / ٢٦٩] وهو المشار إليه أيضا في قوله عزّوجلّ : ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٨].

فالمتقي الله يؤتيه فرقانا يميز به بين الرشد والغي وبين الحق والباطل وبين الإسلام الحق والكفر والضلال ، ويكون بذلك ربانيا كما أمر الله بقوله : ﴿وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ ، وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران ٣ / ٧٩].

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ﴾ أيضا يمح عنكم ذنوبكم وسيئاتكم السابقة ، ويسترها عن الناس ، ويؤتكم الثواب الجزيل ، والله صاحب الفضل الواسع والعطاء العظيم ،

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ، يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

تعددت الأوامر بالتقوى في القرآن الكريم ، ولكن جاء الأمر هنا بلفظ الشرط ؛ لأنه تعالى خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضا ، فإذا اتقى العبد ربه . وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه . وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرّمات ، وشحن قلبه بالنية الخالصة ، وجوارحه بالأعمال الصالحة ، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر ، بمراعاة غير الله في الأعمال ، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال ، جعل له بين الحق والباطل فرقانا ، قال ابن إسحاق : ﴿فُرْقاناً﴾ : فضلا بين الحق والباطل ، وقال السدي : نجاة ، وقال الفرّاء : فتحا ونصرا ، وقيل : في الآخرة فيدخلكم الجنة ، ويدخل الكفار النار.

والآية ذكرت ثلاثة أنواع من الجزاء على التقوى :

النوع الأول :

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ : وهو يشمل جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار ، ففي الدنيا : يخص تعالى المؤمنين بالهداية والمعرفة ، ويخص صدورهم بالانشراح كما قال : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ ، فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٢] ، ويزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم ، والمكر والخداع عن صدورهم ، ويخصهم بالعلو والفتح والنصر والظفر ، كما قال : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون ٦٣ / ٨] وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف ٦١ / ٩]. وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك.

وفي الآخرة : يكون الثواب والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة.

النوع الثاني :

﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ أي أنه تعالى يزيل آثار جميع الذنوب والآثام الكبائر والصغائر ويمحوها ويسترها في الدنيا. ولا شك بأن التوبة أحد مظاهر التقوى.

النوع الثالث :

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويزيلها يوم القيامة ؛ لأنه صاحب الفضل العظيم ، ومن كان كذلك ، فإنه إذا وعد بشيء وفّى به.

وفي الجملة : تكون التقوى نورا في الدنيا والآخرة ، وسببا للسعادة فيهما ، وتحقيق الآمال جميعها ، والنجاة من كل سوء وشر ، لذا قال تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ، وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٧].

ألوان الكيد والمؤامرة من المشركين على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)﴾

البلاغة :

﴿وَيَمْكُرُ اللهُ﴾ يرد مكرهم أو بمجازاتهم عليه ، وإسناد أمثال هذا إلى الله إنما يحسن للمزاوجة ، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم. فإضافة المكر إليه تعالى على طريق (المشاكلة) بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر ، والمشاكلة : أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ أي واذكر يا محمد إذ اجتمع أهل مكة للمشاورة في شأنك بدار الندوة.

والتذكير بمكر قريش ليشكر نعمة الله عليه في خلاصه من مكرهم وتدبيرهم واستيلائه عليهم. والمكر : التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى آخر من حيث لا يشعر.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يوثقوك بالوثاق ، ويحبسوك بالقيد ، حتى لا تقدر على الحركة. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلهم قتلة رجل واحد. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يطردوك من مكة. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك. ويمكر الله بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج. ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ أعلمهم به ، وأفضل المدبرين.

﴿آياتُنا﴾ القرآن. ﴿قالُوا : قَدْ سَمِعْنا ، لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾ قاله النضر بن الحارث ؛ لأنه كان يأتي الحيرة يتّجر ، فيشتري كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة. ﴿إِنْ﴾ ما. ﴿هذا﴾ القرآن. ﴿إِلَّا أَساطِيرُ﴾ أكاذيب ، جمع أسطورة : وهي القصص والأحاديث التي سطرت في الكتب القديمة الأولى بدون تمحيص ولا نظام.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٠) :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وابن إسحاق عن ابن عباس : أن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت بما اجتمعتم له ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم مني رأي أو نصح ، قالوا : أجل ، فادخل ، فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل ، فقال قائل : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير ونابغة ، فإنما هو كأحدهم.

فقال عدو الله الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجن رائد من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، فانظروا في غير هذا الرأي.

فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم ، واستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع.

فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ، ثم استعرض العرب ، ليجتمعنّ عليه ، ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ، ويقتل أشرافكم.

قالوا : صدق والله ، فانظروا غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرنّ عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد ، ما أرى غيره ، قالوا : وما هذا؟ قال :

تأخذون من كل قبيلة وسيطا شابا جلدا ـ قويا ـ ثم نعطي كل غلام منهم سيفا صارما يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرّق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن أن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل ـ الدية ـ واسترحنا وقطعنا أذاه عنا.

فقال الشيخ النجدي : هذا والله ، هو الرأي ، القول ما قال الفتى ، لا أرى غيره.

فتفرقوا على ذلك ، وهم مجمعون له ؛ فأتى جبريل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك في الخروج ، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة ، يذكّره نعمته عليه : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية. هذه أسباب الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

نزول الآية (٣١) :

(وَإِذا تُتْلى) : أخرج ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير قال : قتل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوم بدر صبرا [1] عقبة بن أبي معيط ، وطعيمة بن عدي ، والنّضر بن

---

(١) القتل صبرا : أن يحبس ويرمى حتى يموت.

الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيري؟ فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول». قال وفيه نزلت هذه الآية : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا : قَدْ سَمِعْنا﴾ الآية.

المناسبة :

لما ذكّر الله تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ كذلك ذكّر رسوله نعمه عليه ، وهو دفع كيد المشركين ، ومكر الماكرين عنه.

التفسير والبيان :

واذكر أيها النبي حينما اجتمع المشركون لتدبير مؤامرة خطيرة عليك وعلى دعوتك ، فذلك أمر يستحق الشكر على النعمة ، ويدعو للعبرة والعظة ، ويدل على صدق دعوتك وتأييد ربك لك في وقت المحنة العصيبة.

لقد دبروا لك إحدى مكائد ثلاث : إما الحبس الذي يحول بينك وبين دعوة الناس ، وإما القتل بطريق جميع القبائل ، وإما الطرد والإخراج من البلاد.

إنهم يمكرون ويدبرون في السرّ أمرا مكروها لإيقاعه بك من حيث لا تحتسب ، ولكن الله عزت قدرته يحبط مكرهم ويبطل تآمرهم ويذهب كيدهم هباء ، فقد أخرجك مهاجرا سليما من بينهم دون أي أذى ، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، والله خير المدبرين وأعلمهم ولا خير في مكرهم. فمعنى قوله : ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ : يخفون المكايد له ، ومعنى : ﴿وَيَمْكُرُ اللهُ﴾ : ويخفي الله ما أعدّ لهم حتى يأتيهم بغتة ، ومكر الله : هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ أي مكره أنفذ من مكر غيره ، وأبلغ تأثيرا ، وأحق بالفعل المدبّر ؛ لأن تدبيره نصر للحق وعدل ، ولا يفعل إلا ما هو مستوجب.

وفي هذا دلالة على أن موقف الكفار من النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ودعوته موقف متميز دائما بالإساءة والأذى.

وبعد أن حكى الله مكرهم لذات محمد ، حكى مكرهم لدينه وكتابه ، فقال : ﴿**وَإِذا تُتْلى ...**﴾ أي إذا تليت آيات القرآن الواضحة ، قالوا جهلا وعنادا وسفها واستكبارا : ﴿**لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا**﴾ ، وهو اعتراف ضمني بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، وقد تحداهم للإتيان بأقصر سورة منه ، ولكنه التمويه والخداع والإيهام ، كما يفعل الضعيف الجبان أمام البطل الشجاع المغوار ، يدعي أنه قادر على قتله ، وهو مجرد كلام هراء.

وكان قائل هذا القول : هو النضر بن الحارث ، روي أن النضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجرا ، واشترى أحاديث كليلة ودمنة ، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين وهو منهم ، فيقرأ عليهم أساطير الأولين ، وكان يزعم أنها مثل ما يذكره محمد من قصص الأولين.

إنه كان يذهب إلى أرض فارس ، فيسمع أخبارهم عن رستم وإسفنديار وكبار العجم ، ويمرّ باليهود والنصارى ، فيسمع منهم التوراة والإنجيل ، ثم يأتي ليحدث أهل مكة بما سمع.

ثم عللوا قولهم الكاذب بما هو أكذب ، فقال : ما هذا القرآن إلا أخبار وأكاذيب وأحاديث الأولين ، مثل قصص الأمم السابقين. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿**وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥] ومعنى ﴿**أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ أي كتب المتقدمين اقتبسها ، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت ، كما أخبر الله عنهم في الآية التالية : ﴿**قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦].

والقائل : هو النضر بن الحارث الذي أنزل فيه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾ [لقمان ٣١ / ٦] فقد اشترى قينة جميلة تغني الناس بأخبار الأمم ، لصرفهم عن سماع القرآن.

ويلاحظ أنهم نسبوا آيات القرآن إلى قصص السابقين ، ولكنهم لم يقولوا : إن محمدا افتراها أو اختلقها ؛ إذ كانوا يعتقدون صدقه وأنه ليس كذابا ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٣٣].

وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحارث وأبي جهل والوليد بن المغيرة يصدون الناس عن سماع القرآن ، ثم يحاولون التنصت على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ليلا ، حتى إن الوليد بن المغيرة أعلن كلمته بعد تأثره بآيات القرآن : «إنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه يحطم ما تحته» ثم حاول إبطال هذه الكلمة كيلا تسمعها العرب بتأثير زعماء الشرك فقال : «إن هذا إلا سحر يؤثر».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى على أن حادث الهجرة كان معجزة ربانية لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فقد اجتمع المشركون في دار الندوة ، واتفقوا على قتله ، وانتدبوا من كل قبيلة شابا وسيطا جلدا قويا ليقتلوه بضربة رجل واحد ، ليتفرق دمه على القبائل ، فلا يستطيع قومه بنو هاشم محاربة القبائل كلها.

فأمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله عزوجل أن يعمي عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غشيهم النوم ، فوضع على رؤوسهم ترابا ونهض.

فلما أصبحوا خرج عليهم علي ، فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فد فات ونجا. والقصة معروفة في السيرة.

والحاصل أنهم احتالوا على إبطال أمر محمد ، والله تعالى نصره وقواه ، فتبدد فعلهم ، وظهر صنع الله تعالى.

والمراد من قوله : ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ مع أنه لا خير في مكرهم أنه أقوى وأشد وأعلم ، لينبه بذلك على أن كل مكر ، فهو يبطل في مقابلة فعل الله تعالى. وفي الآية إيماء إلى أن شأن الكفار إيذاء دائم للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومن تبعه.

وكما بدد الله مكرهم لشخص محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، بدد مكرهم لدينه وشرعه ، فزعموا أنه أساطير الأولين ، فردّ الله عليهم : أن الله الذي يعلم السر في السموات والأرض هو منزّل القرآن.

ودلّ قولهم : ﴿لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾ على أن معارضتهم للقرآن مجرد قول وادعاء ، ولم يتمكنوا بالفعل من معارضته ، ومجرد القول لا فائدة فيه.

وكان هذا وقاحة وكذبا ، وقيل : إنهم توهموا أنهم يأتون بمثل القرآن ، كما توهّمت سحرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه ، وقالوا عنادا : ﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٥ ومواضع أخرى]. وإلقاء مثل هذا الكلام والاتهام الباطل ينم عن الضعف والعجز ، وسطحية الجاهل العامي ، كما أنه موقف يدعو للسخرية والهزء من القائلين ؛ إذ لو كان لديهم دليل عقلي مقبول مفنّد لأعلنوه.

طلب المشركين الإتيان بالعذاب ومنع تعذيبهم إكراما للنّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم

وأوضاع صلاتهم عند البيت الحرام

﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾

الإعراب :

﴿هُوَ الْحَقَ﴾ خبر ﴿كانَ﴾ ، وهو : ضمير فصل بين الوصف والخبر عند البصريين ، وعماد عند الكوفيين. وعلى قراءة الرّفع يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ، و ﴿الْحَقَ﴾ خبره ، والجملة فيهما خبر ﴿كانَ﴾.

﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ أن في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجرّ ، وتقديره : من ألا يعذبهم الله. وقيل : تكون زائدة. والأول أوجه. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿يُعَذِّبَهُمُ﴾.

﴿مُكاءً﴾ خبر ﴿كانَ﴾ وهو الصّفير ، وأصله (مكاو) فلما وقعت الواو طرفا وقبلها ألف زائدة قلبت همزة.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾ معناها التّصفيق ، وأصله (تصدده) من صدّى : إذا امتنع ، فأبدلوا الدّال الثّانية ياء. وقد تكون من الصّدى : وهو الصّوت الذي يعارض الصّوت ، فتكون الياء أصليّة.

البلاغة :

﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي تصفيرا وتصفيقا ، جعلوا صلاتهم عند البيت على هذا النحو ، مما يدلّ على جهلهم بمعنى العبادة وعدم معرفة حرمة بيت الله ، وكانوا أيضا يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في صلاته يخلطون عليه.

المفردات اللغوية :

ان كان هذا الذي يقرؤه محمد. هو الحق المنزل. أليم مؤلم على إنكاره. قاله النّضر بن الحارث وغيره استهزاء وإيهاما أنه على بصيرة وجزم ببطلانه. ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بما سألوه. ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ لأنّ العذاب إذا نزل عمّ ، ولم تعذّب أمّة إلا بعد خروج نبيّها والمؤمنين منها. ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حيث يقولون في طوافهم : غفرانك.

﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ بالسّيف بعد خروجك والمستضعفين ، وقد عذّبهم الله ببدر وغيره. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمسلمين. عن المسجد الحرام أن يطوفوا به. ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ ألا ولاية لهم عليه.

﴿مُكاءً﴾ صفيرا. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقا ، أي جعلوا ذلك موضع صلاتهم التي أمروا بها.

سبب النّزول :

نزول الآية (٣٢) :

﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَ﴾ : أخرج ابن جرير الطّبري عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿وَإِذْ قالُوا : اللهُمَ﴾ قال : نزلت في النّضر بن الحارث ، لما قال : إن هذا إلا أساطير الأولين ، قال له النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «ويلك إنه كلام ربّ العالمين ، فقال : اللهم إن كان هذا هو الحق».

نزول الآية (٣٣) :

﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ : روى البخاري ومسلم عن أنس ، قال : قال أبو جهل بن هشام : ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا

﴿حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : غفرانك غفرانك ، فأنزل الله : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. والاستغفار وإن وقع من الفجّار يدفع به ضرب من الشّرور والإضرار.

والخلاصة : اختلف فيمن القائل : ﴿وَإِذْ قالُوا : اللهُمَ﴾ فقال مجاهد وسعيد بن جبير : قائل هذا هو النّضر بن الحارث. وقال أنس بن مالك فيما رواه البخاري ومسلم : قائله أبو جهل.

وروي أن معاوية قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة! فقال : بل أجهل من قومي قومك حين قالوا : ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَ﴾ الآية.

نزول الآية (٣٥) :

﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ﴾ : أخرج الواحدي عن ابن عمر قال : كانوا يطوفون بالبيت ويصفّرون ويصفّقون ، فنزلت هذه الآية (١).

وأخرج ابن جرير الطّبري عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش يعارضون النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الطّواف يستهزئون به ، ويصفّرون ويصفّقون ، فنزلت.

المناسبة :

الآيات متّصلة بما قبلها وهي قوله : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا﴾ فلما حكى تعالى مكر المشركين بمحمد ذاته ، حتى اضطرّ إلى الهجرة ، حكى مكرهم في دين

---

(١) أسباب النّزول : ص ١٣٥.

محمد ، سواء بادّعاء القدرة على الإتيان بمثل القرآن ، أو بوصفه بأنه أساطير الأولين أي قصص السابقين المسطورة في الكتب دون تمحيص ولا تثبّت من صحّتها.

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد حين قالت قريش : اللهم إن كان هذا القرآن هو الحقّ المنزّل من عندك ، فعاقبنا بإنزال حجارة ترجمنا بها من السّماء ، كما عاقبت أصحاب الفيل ، ﴿أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ﴾ مؤلم سوى ذلك.

وهذا إخبار من الله تعالى عن كفر قريش وعتوّهم وتمرّدهم وعنادهم وادّعائهم الباطل حين سماع آيات الله تتلى عليهم أنهم قالوا كما بيّنا سابقا : لو شئنا لقلنا مثل قولهم : إن القرآن أساطير الأولين ، وإن هذا مقطوع بكذبه واختلاقه ، فلو كان حقّا لأنزل علينا الحجارة أو العذاب الأليم.

ومرادهم إنكار كونه حقّا منزلا من عند الله ، وأنهم لا يتبعونه ، وإن كان هو الحقّ المنزل من عند الله ، بل يفضلون الهلاك ، وأنهم يتهكّمون بقول من يقول : القرآن حقّ ، وهو غاية الجحود والإنكار ، وهو من كثرة جهلهم وشدّة تكذيبهم وعنادهم وعتوّهم ، ومثل من أمثال حماقتهم حين طلبوا تعجيل العذاب ، وتقديم العقوبة ، كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٥٣] ، وقوله : ﴿وَقالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ [ص ٣٨ / ١٦].

ثم ذكر الله تعالى سبب إمهالهم بالعذاب ، فقال : ﴿وَما كانَ اللهُ ...﴾ أي وما كان من مقتضى سنّة الله ورحمته وحكمته أن يعذّبهم ، والرّسول موجود بينهم ؛ لأنه إنما أرسله رحمة للعالمين لا عذابا ونقمة ، وما عذّب الله أمّة ونبيّها فيها ، قال ابن عباس : لم يعذّب أهل قرية ، حتى يخرج النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمروا.

وما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال في الدّنيا الذي عذّب بمثله بعض الأمم السّالفة ، وهم يستغفرون. ومن هم المستغفرون؟ قال ابن عباس : هم الكفار ، كانوا يقولون في الطّواف : غفرانك. والاستغفار ، وإن وقع من الفجّار يدفع به ضروب من الشّرور والإضرار. وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين المستضعفين الذين هم بين أظهرهم ، أي وما كان الله معذبهم ، وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا عذّبهم الله يوم بدر وغيره.

وقيل : إن الاستغفار هنا يزاد به الإسلام ، أي وهم يسلمون ، أي يسلم بعضهم إثر بعض ، أو يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه.

وبعد أن نفى الله عنهم عذاب الاستئصال في الدّنيا ، أثبت احتمالا آخر ، وهو إمكان تعذيبهم بعذاب دون عذاب الاستئصال عند وجود المقتضي وزوال المانع ، فقال : (وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ...) أي ولم لا يعذّبهم الله بعذاب آخر ، وأي شيء يمنع من إنزال عذاب أخف من ذلك العذاب؟ بسبب أنهم يمنعون الناس عن المسجد الحرام ولو لأداء النّسك؟ فقد كانوا يمنعون المسلم من دخول المسجد الحرام ، وأخرجوا النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وصحبه من المسجد الحرام. فهم أهل لأن يعذّبهم الله ، ولكن لم يوقع ذلك بهم ؛ لبركة مقام الرّسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بين أظهرهم.

فمن كانت هذه حالته لم يكن وليّا للمسجد الحرام ، فهم أهل للقتل بالسّيف والمحاربة ، فقتلهم الله وعذّبهم يوم بدر ، حيث قتل رؤوس الكفر كأبي جهل وأسر سراتهم ، وأعزّ الإسلام بذلك.

(وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ) أي ولاة أمره وأربابه ، فإنهم كانوا يقولون : نحن أولياء البيت الحرام ، نصدّ من نشاء ، وندخل من نشاء ، فردّ الله عليهم بقوله : وما كانوا مستحقّين للولاية والإشراف عليه ، مع شركهم وعداوتهم للنّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

وما أولياؤه وحماته إلا المتّقون من المسلمين ، فليس كلّ مسلم أيضا ممن يصلح

لأن يلي أمره ، إنما يستأهل ولايته من كان برّا تقيّا ، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام؟!

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ بأن المتّقين أولياؤه ، فهم الآمنون من عذابه.

ثم بيّن الله تعالى سبب عدم أهليتهم لأن يكونوا أولياء البيت ، وهو أن صلاتهم عند البيت وتقرّبهم وعبادتهم إنما كان تصفيرا وتصفيقا ، لا يحترمون حرمة البيت ولا يعظّمونه حقّ التّعظيم. قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفّر وتصفّق. وقال مجاهد وسعيد بن جبير : كانوا يعارضون النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الطّواف ، ويستهزئون به ، ويصفّرون ، ويخلطون عليه طوافه وصلاته. وروي مثل ذلك عن مقاتل.

فعلى قول ابن عباس : كان المكاء والتّصدية نوع عبادة لهم ، وعلى قول مجاهد ومقاتل وابن جبير : كان إيذاء للنّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. قال الرّازي : والأوّل أقرب ؛ لقوله تعالى : ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

فذوقوا القتل والأسر يوم بدر ، بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة. وهذا هو العذاب الذي طلبتموه.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمّنت الآية بيان مدى الحماقة من المشركين ، حين استعجلوا إنزال العذاب ، وبيان كرامة النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وتعظيمه حيث رفع عن الأمّة عذاب الاستئصال بسبب وجوده بينهم ، أو بسبب الاستغفار الحاصل من بعض الناس ، الكفار أو المؤمنين ، قال المدائني عن بعض العلماء : كان رجل من العرب في زمن النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مسرفا على نفسه ، لم يكن يتحرّج ؛ فلما أن توفّي النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لبس الصّوف ، ورجع عمّا كان عليه ، وأظهر الدّين والنّسك. فقيل له : لو فعلت هذا والنّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيّ لفرح بك. قال : كان لي أمانان ، فمضى واحد وبقي الآخر ؛

قال الله تبارك وتعالى : ﴿وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فهذا أمان ، والثاني : ﴿وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقال ابن عباس : كان فيهم أمانان : نبيّ الله والاستغفار ، أما النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد مضى ، وأمّا الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة.

ودلّت الآية على أنّ الاستغفار أمان وسلامة من العذاب. وأمّا وجود النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بين القوم فهو حائل من العذاب ، لا يختص ذلك بنبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا بعد أن يخرج رسولهم منهم ، كما كان في حقّ هود وصالح ولوط.

وتضمّنت الآية أيضا استحقاق كفار قريش عذابا دون عذاب الاستئصال ؛ لما ارتكبوا من القبائح والأسباب ، ولكن لكل أجل كتاب ، فعذّبهم الله بالقتل والأسر يوم بدر وغيره.

ثم أبان الله تعالى سلب الولاية والأهلية عن الكفار على المسجد الحرام ، لكفرهم وعداوتهم للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وانتهاكهم حرمة البيت بالتّصفير والتّصفيق ، والطّواف به عراة ، رجالا ونساء.

إهدار ثواب الإنفاق للصدّ عن سبيل الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧)﴾

البلاغة :

﴿الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ كناية عن المؤمن والكافر ، وبين اللفظين طباق.

﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ إشارة بالبعيد إلى الفريق الخبيث ، لبيان مدى خسارتهم الفادحة ، وبعدهم عن الرّحمة الإلهيّة.

المفردات اللغوية :

﴿يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ﴾ في حرب النّبي ﷺ . ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ في عاقبة الأمر. ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندامة وألما ، لفواتها وتضييعها ، وفوات ما قصدوه. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في الدّنيا. ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يساقون. ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلّق ب ﴿تَكُونُ﴾ ، ومعناه يفصل ﴿الْخَبِيثَ﴾ الكافر. ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن. ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً﴾ يجمعه متراكبا ﴿بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ﴾.

سبب النّزول :

قال محمد بن إسحاق ـ فيما يرويه عن الزّهري وجماعة ـ : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجعوا إلى مكّة ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أميّة ، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم ، فكلّموا أبا سفيان ، ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إنّ محمدا قد وتركم ـ نقصكم ـ وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال ـ أي مال العير الذي نجا ـ على حربه ، فلعلنا أن ندرك منه ثأرا ، ففعلوا. ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أي أنها نزلت في نفقاتهم لمعركة أحد.

روى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن الآية نزلت في أبي سفيان ، وما كان من إنفاقه على المشركين في بدر ، ومن إعانته على ذلك في أحد ، لقتال رسول الله ﷺ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتيبة قال : نزلت في أبي سفيان ، أنفق

على المشركين أربعين أوقية من ذهب. والأوقية : أربعون مثقالا من الذّهب ، والمثقال (٢٥ ، ٤ غم).

وأخرج ابن جرير عن ابن أبزى وسعيد بن جبير قالا : نزلت في أبي سفيان ، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ، ليقاتل بهم رسول الله ﷺ ، سوى من استجاب له من العرب.

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلا من كبار قريش [(١)].

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى حالة المشركين في الطاعات البدنية وهي الصّلاة بقوله : ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ...﴾ بيّن حالهم في الطاعات المالية ، سواء في الإنفاق يوم بدر أو أحد.

التّفسير والبيان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله يقصدون من الإنفاق صدّ الناس عن اتّباع محمد ، وهو سبيل الله تعالى.

وحين ينفقون تكون عاقبة هذا الإنفاق لحرب النّبي ﷺ والصّدّ عنه في النهاية ندما وحسرة ، فكأن ذاتها تصير ندما ، وتنقلب حسرة ، أي أنها لا تحقّق المقصود ، وإنما تؤدي إلى عكسه وهو الوقوع في الحسرة والنّدامة : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها﴾ [الكهف ١٨ / ٤٢] ، لأنها مال ضائع في سبيل

---

(١) وهم أبو جهل بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، ونبيه ومنبه ابنا حجاج ، وأبو البحتري بن هشام ، والنضر بن الحارث ، وحكيم بن حزام ، وأبيّ بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والعباس بن عبد المطلب ، وكلهم من قريش ، وكان يطعم كلّ واحد منهم كل يوم عشرة من الجزور.

الشّيطان ، ولا تؤدّي إلى النّصر ، وإنما على العكس مصيرها إلى الهزيمة. فهم يغلبون وينكسرون ، كما قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١].

هذا عذابهم في الدّنيا : ضياع المال والهزيمة ، وعذابهم في الآخرة أنهم يساقون إلى جهنّم ، إذا أصرّوا على كفرهم وماتوا وهم كفار ؛ لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

أما المسلمون إذا أنفقوا أموالهم في سبيل الله ، فتحقّق إما النّصر في الدّنيا ، وإمّا الثّواب في الآخرة ، أو الأمران معا وسعادة الدّارين.

وقد كتب الله النّصر للمؤمنين ، والهزيمة للكافرين وضياع أموالهم ، وإيقاع الحسرة والألم في قلوبهم ، ليميز الفريق الخبيث من الفريق الطّيب ، أي الكافر من المؤمن ، فيميز أهل السعادة عن أهل الشّقاء ، ويجعل الخبيث بعضه متراكما فوق بعض في جهنم ، أولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لا يستفيد الكفار من بذلهم أموالهم في الإنفاق الذي يقصد به الصّدّ عن سبيل الله ، أي منع الناس من دعوة الإسلام ، إلا الحسرة والخيبة في الدّنيا ، والعذاب الشّديد في الآخرة ، وهو يوجب الزّجر العظيم عن ذلك الإنفاق.

٢ ـ إن الغلبة والنّصر يكونان للمؤمنين ، والهزيمة والخذلان للكافرين ، وسيكون هؤلاء يوم القيامة مسوقين في حال من الذّل والصّغار إلى جهنم ، وبئس المصير.

٣ ـ إن تحقيق الغلبة للمؤمنين ، وإيقاع الهزيمة بالكافرين إنما بقصد تمييز

الفريق الخبيث من الكفّار ، عن الفريق الطّيّب من المؤمنين ، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض في جهنّم ، فيركمه جميعا. ويكون قوله : ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلّقا بقوله ﴿يُحْشَرُونَ﴾ والمعنى : أنهم يحشرون ليميز الله الفريق الخبيث من الفريق الطّيّب.

وقيل : المراد تمييز نفقة الكافر على عداوة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، عن نفقة المؤمن في جهاد الكفار ، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصرة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، فيضمّ تعالى تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقيها في جهنّم ويعذّبهم بها ، ويكون قوله ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلّقا بقوله : ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. ثم قال : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ وهو إشارة إلى الذين كفروا.

المغفرة للكفّار إذا أسلموا وقتالهم إذا لم يسلموا لمنع الفتنة في الدّين

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾

المفردات اللغوية :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ، أي قل لأجلهم هذا القول وهو : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكفر وقتال النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومعاداته بالدّخول في الإسلام ، وليس المراد أنك تخاطبهم به ، وإلا لقيل : إن تنتهوا يغفر لكم. ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ من أعمالهم ، و ﴿يُغْفَرْ﴾ : فعل

مضارع مبني للمجهول ، ونائب الفاعل هو الله تعالى. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي تقررت سنّتنا في الذين تحزّبوا على الأنبياء بالتّدمير والهلاك ، فكذا نفعل بهم. ﴿حَتَّى لا تَكُونَ﴾ توجد. ﴿فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وحده ولا يعبد غيره وتضمحلّ عنهم الأديان.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم به على انتهائهم عن الكفر وإسلامهم.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى صلاة المشركين وعباداتهم البدنيّة ، ثم عباداتهم المالية ، وصدّهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين ، أرشدهم إلى طريق الصّواب ، ورغّبهم في دخول الإسلام وفتح لهم باب الرّحمة الواسعة والفضل الكبير ، فقال : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ يَنْتَهُوا﴾ الآية.

التفسير والبيان :

قل أيّها الرّسول لأجل الذين كفروا كأبي سفيان وأصحابه : إن ينتهوا عما هم فيه من الكفر والعناد ومعاداة النّبي ﷺ ، ويدخلوا في الإسلام والطّاعة والإنابة ، يغفر لهم ما قد سلف ، أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء في الصّحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «من أحسن في الإسلام ، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأوّل والآخر».

وفي الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : «الإسلام يجبّ ما قبله ، والتوبة ما كان قبلها».

وروى مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : فلما جعل الله الإيمان في قلبي أتيت النّبي ﷺ ، فقلت : ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فقبضت

يدي ، قال : مالك؟ قلت : أردت أن أشترط. قال : ماذا تشترط؟ قلت : أن يغفر لي ، قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحجّ يهدم ما كان قبله؟».

وإن يعودوا إلى حظيرة الكفار والصّدّ والعناد والقتال ، أي يستمروا على ما هم عليه ، أجريت عليهم سنّتي المطردة في تدمير وإهلاك المكذّبين السّابقين الذين كذّبوا أنبيائي وتحزّبوا ضدّهم ، كما حدث لقريش يوم بدر وغيره ، وظهر وعد الله القائل : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١].

وهذا وعيد شديد لهم بالدّمار إن لم يتركوا الكفر والعناد.

ثم بيّن الله تعالى حكم هؤلاء الكفار إن عادوا للكفر واستمروا عليه ، فهم متوعّدون بسنّة الأولين ، وحكمهم : أن الله أمر بقتالهم إذا أصرّوا فقال : ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وقاتلوا أيها المسلمون قتالا عنيفا أعداءكم المشركين ، حتى لا يبقى شرك أبدا ، ولا يعبد إلا الله وحده ، ولا يفتن مؤمن عن دينه ، ويخلص التّوحيد لله ، فيقال : لا إله إلا الله ، وتضمحل الأديان الباطلة ، ولا يبقى إلّا دين الإسلام ، وذلك في أرض مكّة وما حواليها من جزيرة العرب ، لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه البيهقي من حديث مالك عن الزهري : «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» ، قال الرّازي : ولا يمكن حمله على جميع البلاد ؛ إذ لو كان ذلك مرادا لما بقي الكفر فيها ، مع حصول القتال الذي أمر الله به [1].

فيكون الغرض من القتال هو التّمكين من حرية التّدين ، فلا يكره أحد على ترك عقيدته ، كما قال تعالى : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٦].

---

(١) تفسير الرّازي : ١٥ / ١٦٤

فإن انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ، فكفّوا عنهم وإن لم تعلموا بواطنهم ، ﴿فَإِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، أي فإن الله عليم بأعمالهم ، يجازيهم عليها بحسب علمه.

وإن تولوا وأعرضوا عن سماع دعوتكم ، ولم ينتهوا عن كفرهم ، فلا تهتموا بأمرهم ، واعلموا أن الله متولّي أموركم وناصركم ، فلا تبالوا بهم ، ومن كان الله مولاه وناصره ، فلا يخشى شيئا ، إنه نعم المولى ، ونعم النصير ، فلا يضيع من تولاه ، ولا يغلب من نصره الله.

ولكن نصر الله مرهون بأمرين : الإعداد المادي والمعنوي للجهاد كما قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٦٠] ونصرة دين الله وتطبيق شرعه وتنفيذ أحكامه ، كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ٧].

أما الاتّكال على مجرد الاتّصاف بالإسلام قولا لا عملا ، وطلب النّصر بخوارق العادات ، والأدعية فقط ، دون إعداد ولا تحقيق الصفة الإسلامية الحقّة التي اتّصف بها السّلف الصالح ، فلا يحقق شيئا من النّصر المرتجى على العدو في فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام المعتدى عليها ، أو المحتلّة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية الأولى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على مزيد فضل الله وفتح باب رحمته أمام الكفار ، فإنهم إن يسلموا يغفر الله لهم ما سلف من كفر ، وما ارتكبوا من ذنوب ، وما قصروا من أداء واجبات نحو ربّهم ، فلا يطالبون بقضاء العبادات البدنيّة والماليّة ، ويبدءون صفحة جديدة مشرقة بالإسلام النّقي الطّاهر ، لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه ابن سعد عن الزبير وعن جبير بن مطعم : «الإسلام يجبّ ما قبله».

قال مالك : من طلّق في الشّرك ثم أسلم ، فلا طلاق له ، ومن حلف فأسلم ، فلا حنث عليه ، فهو مغفور له. ولو زنى وأسلم ، أو اغتصب مسلمة ، ثم أسلم ، سقط عنه الحدّ. ولا خلاف في إسقاط ما فعله الكافر الحربي في حال كفره في دار الحرب. أما لو دخل إلينا بأمان فقذف مسلما ، فإنه يحدّ ، وإن سرق قطع ، وكذلك الذّمي إذا قذف ، حدّ ثمانين جلدة ، وإذا سرق قطع ، وإن قتل قتل ، ولا يسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره.

أمّا المرتد إذا أسلم ، وقد فاتته صلوات ، وأصاب جنايات ، وأتلف أموالا ، فقال أبو حنيفة ومالك : ما كان لله يسقط ، وما كان للآدمي لا يسقط ؛ لأن الله تعالى مستغن عن حقّه ، والآدمي مفتقر إليه ، ولأن إيجاب قضاء العبادات ينافي ظاهر هذه الآية. وفي قول الشافعي : يلزمه كلّ حقّ لله عزّ وجلّ وللآدمي بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه ، فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى.

فإن عاد الكفار إلى قتال المسلمين ، قوتلوا.

والصّحيح ـ كما ذكر الرّازي ـ أن توبة الزّنديق مقبولة ، لأن هذه الآية : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ تتناول جميع أنواع الكفر ، ولقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٥]. ولأن أحكام الشّرع مبنيّة على الظواهر ؛ لأن القاعدة تقول : «نحن نحكم بالظاهر ، والله يتولّى السّرائر».

واحتجّ الحنفيّة بهذه الآية على أنّ الكفار حال كفرهم ليسوا مخاطبين بفروع الشرائع ، بدليل أنهم لا يؤاخذون بشيء مما ارتكبوه في زمان الكفر.

ودلّت آية : ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ على وجوب القتال ، حتى تزول فتنة المسلم عن دينه ، وتتأكد حرية الاعتقاد والتّديّن. وأما قوله تعالى : ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فهو إما أن يقيّد في جزيرة العرب ، فلا يجتمع فيها

دينان كما بيّنا ، وإما أن يكون الغرض النّظري لا الفعلي هو إنهاء الكفر من جميع العالم ، وهذا كما ذكر الرّازي مجرّد أمل وغرض أو هدف ؛ لأنه ليس كلّ ما كان غرضا للإنسان ، فإنه يحصل ، فسواء حصل أو لم يحصل ، يكون الأمر بالقتال لتحصيل هذا الغرض ، وإن لم يتحقق في الأمر نفسه.

نهاية الجزء التاسع

ولله الحمد

فهرس

الجزء التاسع

الموضوع الصفحة

بقية قصة شعيب مع قومه ـ محاورته الملأ وعقابهم بالزلزلة.......................... ٥
سنة الله في التضييق والتوسعة قبل إهلاك الأمم.. ١٢
الترغيب بالإيمان لزيادة الخير والترهيب من الكفر بالعذاب المبكر.................... ١٧
العبرة من قصص أهل القرى... ٢٢
قصة موسى عليه السلام مع فرعون والملأ من قومه.. ٢٦
إيمان السحرة برب العالمين.. ٤٤
تهديد فرعون للسحرة وإصرارهم على الإيمان بالله.. ٤٧
تمالؤ فرعون وملته على موسى وقومه ونصيحة موسى لقومه وحوارهم معه ٥٢
أنواع عذاب الدنيا بآل فرعون ـ الآيات التسع.. ٥٧
اللجوء إلى موسى لرفع العذاب ونقض العهد وإغراق فرعون وقومه ٦٧
وراثة بني إسرائيل أرض مصر والشام بعد الفراعنة والعمالقة............................ ٧٠
جحود بني إسرائيل أرض نعم الله عليهم... ٧٤
مناجاة موسى لربه أو مكالمة موسى ربه وطلبه رؤية الله وإنزال التوراة عليه ٨٠
عقوبة التكبر والكفر بصرف المتكبرين عن فهم أدلة العظمة الإلهية ٨٩
قصة اتخاذ السامري العجل... ٩٤
غضب موسى وتعنيفه هارون لاتخاذ العجل إلها... ٩٩
جزاء الظالمين باتخاذ العجل وقبول توبة التائبين... ١٠٥
نهاية قصة تخاذ العجل إلها.. ١٠٩

اختيار موسى سبعين رجلا لميقات الكلام والرؤية ومناجاته ربه........... ١١١
بقية دعاء موسى عند مشاهدة الرجفة وربط الإيمان برسالته برسالة النبي ﷺ ١١٦
عموم الرسالة الإسلامية ١٢٧
اتباع الحق لدى بعض قوم موسى ونعم الله على بني إسرائيل في صحراء التيه.......... ١٣١
أمر بني إسرائيل بسكنى القرية (بيت المقدس) ١٣٥
حيلة اليهود على صيد الأسماك يوم السبت وعقاب المخالفين...................... ١٣٩
رفع الجبل فوق اليهود وإذلالهم إلى يوم القيامة وتفريقهم في الأرض واستثناء الصالحين ١٤٦
الميثاق العام المأخوذ على بنى آدم.. ١٥٥
قصة بلعم بن باعوراء وأمثاله الضالين المكذبين.............................. ١٦١
أسباب الهداية والضلالة ١٦٦
أسماء الله الحسنى.. ١٧١
المهتدون والمكذبون من أمة الدعوة الإسلامية ١٧٩
هل التفكر أفضل أو الصلاة؟.. ١٨٨
علم الساعة عند الله ١٨١
الأمور كلها بيد الله وحده وعلم الغيب مختص بالله تعالى وحقيقة الرسالة ١٩٦
التذكير بالنشأة الأولى والأمر بالتوحيد واتباع القرآن والنهى عن الشرك ١٩٩
واقع الأصنام والأوثان المعبودة.. ٢٠٨
أصول الأخلاق الاجتماعية ومقاومة الشيطان ٢١٥
اتباع النبي ﷺ الوحى الإلهي وخصائص القرآن................................ ٢٢٤
الاستماع للقرآن وطريقة الذكر ٢٢٧

سورة الأنفال.. ٢٣٦
مدنيتها ومناسبتها لسورة الأعراف وما اشتملت عليه ٢٣٦
السور الملكية والمدينة ٢٣٩
السؤال عن حكم قسمة الغنائم وبيان أوصاف المؤمنين........................ ٢٤٠
كراهية بعض المؤمنين قتال قريش في بدر ٢٥١
أضواء من السيرة على موقعة بدر........................ ٢٥٤
الإمداد بالملائكة في معركة بدر وإلقاء النعاس وإنزال المطر........................ ٢٦٠
الفرار من الزحف والنصر من عندالله........................ ٢٧٣
الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من المخالفة ٢٨٣
الاستجابة لما فيه الحياة الأبدية........................ ٢٨٧
خيانة لله والرسول وخيانة الأمانة ٢٩٥
تقوى الله وفضلها........................ ٣٠٠
ألوان الكيد والمؤامرة من المشركين على النبي ﷺ........................ ٣٠٣
طلب المشركين الإتيان بالعذاب ومنع تعذيبهم إكاما للنبي ﷺ ٣١٠
وأوضاع صلاتهم عند البيت الحرام
إهدار ثواب الإنفاق للصد عن سبيل الله........................ ٣١٦
المغفرة للكفار إذا أسلموا وقتالهم إذا لم يسلموا لمنع الفتنة في الدين........................ ٣٢٠